موسوعة مقارنة الأديان السّماوية

د. مهدي حسين التميمي

دار أسامة
للنشر والتوزيع

موسوعة

مقارنة الأديان السماوية

تأليف

د. مهدي حسين التميمي

دار أسامة للنشر و التوزيع
الأردن - عمان
هاتف : ٥٦٥٨٣٥٣ - فاكس : ٥٦٥٨٣٥٤ - تلفاكس : ٤٦٤٧٤٤٧
ص. ب : ١٤١٧٨١
حقوق الطبع محفوظة للناشر
٢٠٠٥م

تنويه

بعد صدور كتابنا (موسوعة الأديان) وما أحرزه من إقبال القراء الكرام، واهتمامهم بموضوعاته، وجدنا حاجة إلى توسعة مفرداته ومضامينه في مواضع مفصله تتناول بيان المقاربة بين الأديان، نتناول منها في جزئه الأول هذا مدخلا لتوافق الفكر الديني في مسائل وقضايا أساسية، وسنلحقه بموضوع خاص عن الوفاق الديني بين الإسلام والمسيحية، وجزء خاص عن خطاب التوحيد الرسالي في الإسلام، نتبعها بموضوع مفصل عن منظومة السلوك الإيماني في الأديان، نتمنى أن تروق للقارئ الكريم وبالله التوفيق.

المؤلف

الإهـــداء

إلى كل من آمن بالدين ولاء ومحبة له في

الله ...

ومن وجد في التوحيد نوراً يهتدي به إلى السبيل الواحد،

والأمل الواحد، والمصير الواحد...

إليهم أهدي هذا النتاج ...

اجتهادا في التفكير الاجتماعي لا اجتهادا

في الدين........

المؤلف

المقدمة

كان الدين ولا يزال يشكل المنظومة الروحية الأكثر أثرا وتأثيرا في مدار السلوك الإنساني، وبعض الأديان قد شكلت جزءاً هاماً من التراث الحضاري والروحي للكثير من الشعوب، وكانت عنصراً حيويا من عناصر توجهاتها الفكرية والحضارية، وأنه بقدر ما يكون للدّين من الأثر الإيجابي مجسداً في السيرة الإيمانية المثلى، والتي مثلت عناوين للشد والجذب الإنساني- الروحي فإنه كان بالمقابل للاستخدام والتفسير السيئ لقيم الدين انعكاساته السلبية التي أضرّت بالكيان الإنساني، مشوّهة قيم الدين وأصوله الحيوية.

ومهم يكن من أمر نشوء الأديان وطبيعة توجهاتها فإنها قد ارتبطت أساسا بتصورات العلاقة ما بين الإنسان ككائن أرضي – دنيوي، وبين السماء ككائن فوقي – إلهي، وانتظام ذلك بعدئذ في محور السلوك الإيماني وطقوسه المرتبطة بدءاً بمجموعة من الآلهة، والتي كان كل منها يمثل ظاهرة أو عنصراً كونياً رئيسياً فيما انتظمت صيغة العلاقة الشعورية واللاشعورية للإنسان بجملة من الطقوس المرتبطة بكل إله، ثم بالإله الأعظم (الله) حيث تبلورت النظرة والموقف الإيماني بعدئذ في مدار التوحيد، أو الوحدانية، وهو ما تعرضنا لأصوله في أول فصل من فصول هذا الكتاب، مستدلين على أنه من خلال الموقف الشمولي من مسألة الإيمان

بالله نلتمس جانبا من النسق التكاملي للفكر الديني بشكل عام، وحيث يتجسد السلوك الإيماني في منظومة (التقوى) وهي الخير الواسع الذي نجده في الأديان عامة ممثلا بمجموعة القيم والمثل التي تؤكد على هذه الخاصية في السلوك الإيماني والتي تتمثل لها الأديان وهي تسير في هذا الاتجاه على جادة واحدة،وإن تكن على أرصفة ولكنها تتقابل في البعد والغرض الروحي لتؤدي بمجموعها الوظيفة الروحية للدّين، وسنتناول ضمن منهج هذه البحث موضوع التقوى في جزء خاص عن معالم السلوك الإيماني في الأديان.

وقد استحضرنا من نصوص الشرائع الدينية مجموعة من القيم السلوكية اشتملت على قيم السلوك الإيماني – الروحي وقيم العمل وقيم العلم والمعرفة وقيم الحكم والإدارة، والتي تتفاوت في الغرض والمدار الموضوعي بقدر الدور الذي مثلته الأديان في حياة الشعوب، ومدى تأثرها بدور الدين وأثره في حياتها.

ومن الإطار الفكري – العقائدي – للأديان استوضحنا موقفها من بعض المسائل الحيوية، ومنها خلق الكون،وخلق الإنسان، والجزاء، أو معتقد الآخرة، الطوفان، وصلة الانتساب السلالي لأنبياء الأديان السماوية الرئيسية متوافقا مع وحدتها المصدرية، وهو ما تتعرض له النصوص الدينية وعلى قدر متفاوت من السرد ما نستبين منه معالم التوافق في المسار الرسالي لعامة الأديان وفي انتظامها في محور معتقدي واحد.

واستدللنا في خاتمة هذا الجزء ببعض شهادات المعنيين بالتاريخ

والدين ما يعزز حكم التوافق في المنهج الرسالي للأديان، فيما أعرضنا عن تفصيل ما يختص بالرسالة الإسلامية والتي تغتني نصوصها ومنهجها بالوافر من الدلالات على وحدة المسار الديني، إذ أفردنا لذلك كتابا خاصا.

وقد أدركت وأنا استقي مادة البحث من منابع مختلفة قيمة التواصل والتكامل في منطلقات ومعالم الفكر الديني عامة، وفي مجمل النتائج التي حصلت مع ذلك القدر من المعاناة والمكاربة التي واجهت عامة الرسل ورواد الدين والتي كانت ثمرتها تمكين هذا الفكر من أن يأخذ مداه في دائرة رحبة من المحيط الإنساني لتواصل مسيرة الإيمان امتدادها ورسوخها على مر الأجيال، وفي وقت تستدعي الضرورة أن تتوافق قنوات الفكر والسلوك الديني، وتأتلف مع بعضها ما دامت تستقي مادتها من نبع واحد، أو من منهج متوافق، وتبتغي غاية واحدة ليحل السلام والوئام على الأرض محل الخصام بين جماعات لم تعد تدرك من الحقيقة ما يكبح جماح نفوذها وخصامها.

وسيلي هذا الجزء الحديث عن مجالات التوافق بين الإسلام والمسيحية واللذان يحتلان موقع الصدارة من حيث سعة التواجد على الساحة الإنسانية مع تكامل نظرتهما وموقفهما الديني والسماوي، نليه الحديث عن الإسلام ونظرته التكاملية والتي يلتقي في محورها النظام الديني كله.

وسأكون ممتنا وشاكرا من يمحضني الفكرة والرأي السديد وهو يقرأ سطور هذا البحث الذي أبغيه دعوة للتوحيد الإنساني بمثل ما يكون

التوحد في الله عنوانا للشدّ والجذب الروحي الذي تتوافق فيه النفوس وتتسامى رقياً إلى الملكوت الأعلى.

المؤلف

الفصل الأول

معالم الفكر الديني ومنطلقاته

***نشأة الفكر الديني.**

*** أصول التوحيد في الأديان.**

أولاً: التوحيد في الكتاب المقدس.

أ- العهد القديم "اليهودية".

ب- العهد الجديد "المسيحية".

ثانياً: التوحيد في الإسلام نظرة أولية.

ثالثاً: التوحيد عند الصابئة المندائيين.

رابعاً: نبوءة التوحيد في الزرادشتية.

خامساً: الهندسوسية "بين تعدد الآلهة والتوحيد".

سادساً: البوذية: التأليه البشري.

سابعاً: الكونفوشية: الصلاح من السماء.

نشأة الفكر الديني

الواضح من السياق التاريخي للفكر الديني أن الحس، أو الإدراك للكينونية الإلهية كان يتسم بدءا بالبساطة والعفوية، وثمة من يشير إلى: أن النظريات المتصلة بتاريخ الأديان إنما تقوم على مجرد افتراضات أكثر من قيامها على علاقات واضحة بين السبب والمسبب[١]، ومثال ذلك أن الصينيين كانوا – كما يرد في موسوعة الأديان في العالم – يجهلون الحقائق المادية لخوارق الطبيعة، فكانوا يحسون أن آلافا من الأرواح الطيبة والخبيثة ترفرف من حولهم في الهواء المحيط بهم، وفي الأرض تحت أقدامهم، وكانوا يحرصون على أن يردوا عداوة هذه القوى الخفية، وان يستعينوا عليها بالأدعية والرقى السحرية[٢].

وهذا ما يرجح الاعتقاد بأن أقدم صورة للدين كما ذكر هي "الفيتشية" (الإيمان بإله واحد مع عدم انتفاء الإيمان بغيره) وان تعدد الآلهة يرتبط ارتباطا وثيقا بعبادة الطبيعة بمظاهرها، وان الهندوكية والأفلاطونية الجديدة إنما هي صورة متطورة لتعدد الآلهة، إذ تكاد تنتهي كل منها إلى الوحدة، بإضفاء صفات الإله الأسمى الأوحد على الآلهة المتعددة، فيما يعتبر التوحيد أسمى المراحل عند القائلين بالتحليل التاريخي للدين[٣].

وقد رأينا أن انتظام الفكر الديني في جملة من التصورات المعتقدية التي أفرزت وجود الإله أو الآلهة بأشكال ومظاهر متعددة وضمن طقوس ومراسيم تعبدية، كان لكل شعب من الشعوب حصة منها على تفاوت إدراكها وما رسخ عندها وتوارثته من الأفكار المفاهيم الغيبية.

وقد كان الناتج الطبيعي لامتداد التفكير لدى الإنسان وتطوره إن جملة التصورات والرؤى عن الآلهة قد آلت في نهاية المطاف إلى توحيد الموقف تجاه

الإله الأعظم لتبرز فكرة التوحيد، والتي تعد الحلقة الأخص والأوثق في محيط الأديان السماوية بشكل خاص، ومنطلقها اعتبار الله كأصل للخلق والوجود، وترتبط بهذا المحور الحيوي مسألة الصلة بين حياة الإنسان في دنياه وآخرته والتي تهتم بقدرتها وكذلك الأديان غير السماوية، وعلى نحو متفاوت من التصور – كما سنلاحظ لاحقا– لتتفرع منها جملة المبادئ والقيم التي تشكل بمجملها منطلقات الفكر الديني الموحد، وقد وجدنا أن (راما كريشنا) قديس الهند الحديثة، وهو يمارس كل المناهج الثنائة واللاثنائية قد وصل في نهاية المطاف إلى حالة الوعي الإلهي، حيث اتبع تعاليم السيد المسيح، ومحمد صلى الله عليه وسلم وذكر انه قد بلغ الهدف الروحي ذاته، وهو نفس الهدف الذي رأينا أن زرادشت وسواه من أقطاب الأديان غير السماوية قد ارتقوا إليه بوسائل تفكيرهم، وبذلك نجد أن الرباط الروحي في سياق العقيدة بالله قد تجسد وانتظم في مباحث الحوار بين الأديان في قاسم مشترك من وحدة المعتقد الإلهي وهو ما تمثلته عند حضوري مناقشات المؤتمر العاشر للحوار الإسلامي المسيحي المنعقد في المنامة عاصمة مملكة البحرين في فبراير عام ٢٠٠٢ إذ اتفق المجتمعون من كافة الأديان على توحدهم في الله، وعلى الدور الفاعل والهام للوفاق الديني في تكريس وإقرار التعايش السلمي في العالم.

والواقع أن أصول التوحيد تمتد إلى عمق التاريخ فقد استقر الآراميون الأوائل كما يذكر – على عبادة إله واحد– لم يكونوا يعرفون سواه، وهو الإله "حدد" مما يعني أنهم أصحاب نزعة التوحيد الأوائل، حيث كانت رموز الإله حدد هي الأكثر شيوعا بين رموز المعتقدات الآرامية لارتباطها بأهم جوهر اعتقادي عند الآراميين وهو الإله حدد الذي يعد المركز الفريد للآلهة الآرية[٤]. – فيما عدا الإله (آن) الإله الأول في الدين السومري – هو إله السماء وإله المدينة المسيطر على كافة ما فيها، وقد أصبح منذ فجر التاريخ وحتى زوال سومر

وتحوله إلى إله بابلي (آنو)[٥]، فيما استقر رأي حمورابي بأن يجعل الإله مردوك الإله الأعظم للإمبراطورية البابلية وسيد الآلهة أجمعين بعد أن كان عدد الآلهة في الإمبراطورية قد زاد كثيراً.

وعند الآشوريين كان (آشور) إلههم القومي، ملك الآلهة جميعا، فهو خالق البشرية، فيما كان أهل الصين القدماء يعتقدون بوجود حاكم أعلى فوق كل الأرواح وفوق كل الناس اسمه (شانج تي) – رب الأرباب– وهو القوة العليا المسيطرة على العالم، ثم (تيان) الذي يعد هو السماء، منطلقين من فكرة أن السماء هي التي تأتيهم بالمطر والسحاب، والريح، والرعود، والبرق، وبناء على ذلك يتعين على الناس أن يعبدوا ذلك الرب العلي الذي يعيش في السماء، وهو غاية في العدل إلى جانب عبادتهم الشمس والقمر والنار والرعود والجبال والأنهار[٦].

أما بالنسبة لقدماء المصريين فيقال انهم قد أخذوا نظام دينهم عن نبيهم (هرمس) وقيل أن الهنود القدماء قبل هرمس لقدم أسفار الفيدا التي يرجع تاريخها إلى أكثر من ثلاثين ألف سنة قبل المسيح، وقد وجد في هيكل إيزيس مصبباً لحجر نقش قديم يتضمن عبارات:

(أنا كل شيء كان، وكل شيء كان، وكل شيء سيكون، ومحال على من نفي أن يزيل النقاب الذي تنقب به وجه من لا يفنى).

ونقل عن العلامة ماسبيرو قوله: (إن إله المصريين الأول كان عالماً بصيراً،لا يدرك، موجوداً بنفسه،حياً بنفسه، حاكماً في السموات والأرض،لا يحتويه شيء،فهو أب الآباء، وأم الأمهات، لا يفنى ولا يغيب، ملأ الدنيا، وليس له شبيه ولا حد، ويوجد في كل مكان).

وأن الدين الأصلي للمصريين بعدئذ قد هبط من آسيا وهو دين التوحيد الذي حمله لهم النبي إدريس واتباعه "الحورشوش" قبل عصر "مينا"،وأن "آتون"

إله أخناتون هو أقدم الآلهة المصرية وأولها[٧].

ويذكر أن كلمة إله قد اشتقت من كلمة إيل وهو الاسم الذي كانت جميع الديانات السامية تدعو به آلهتها وهو عين القوة والقدرة، وأما لفظة الله فإنها ناتجة كما يستفاد من قواميس اللغة عن إدخال (أل) التعريف على كلمة (إله) لتصبح (الالاه) ثم أدغم الألف وسط الكلمة باللام التي قبلها، وتشديد اللام فأصبحت الله وهو الاسم الأعظم بين سائر الآلهة فيما أصبح الله في سائر الأديان السماوية يعني الإله الوحيد.

وإذا شئنا أن نسحب ذلك التصور المعتقدي حول الآلهة في العصور السابقة للأديان المشترعة سماويا -كما نود تسميتها- وللفترات الواقعة ما بينها، وما بعدها إلى الحالة الحاضرة فإننا سنقف عند حقيقة أن الأديان جميعا- سواء منها الموحدة أو متعددة الآلهة- تنتسب إلى منظومة الألوهية، مع فارق الصلة المباشرة أو غير المباشرة بالله، وان كان البعض جريا على المألوف السائد، يطرح العديد من الأديان خارج المظلة السماوية على خلاف ما ترسمه النظرة المتمعنة في نصوص عقائدها من صور تتجلى فيها علاقتها الحميمة بالسماء،وإذا ما أخذنا بالمعنى المجازي لمفهوم السماء، ودلالتها للوجود الفوقي الذي يتسامى على الوجود الأرضي، والذي كان محط اهتمام الإنسان في مراحل تطور الإدراك الحسي عنده للطبيعة والوجود الكوني،وانتبهنا بعناية لمضامين النصوص المعتقدية للأديان، فإننا سنقف عند حقيقة كون التعلق بالسماء قد ضمها جميعاً، وأن وجود الله أو الإله منفصلاً أو متوجهاً على رأس النظام الفيولوجي القديم، وكما يذكر، ليدل بالفعل على علة وجود عقيدتين متلاصقتين، أحدهما يسود فيها تعدد الآلهة، والأخرى تؤمن بإله واحد، وأن التوحيد الغنوصي (العرفاني) كان مفتاحاً لحل هذه المشكلة، فالله يفضي إلى عوالم، وعقول، ونفوس حتى يصل إلى الإنسان، وقد وضع الله لاحقاً في منظومة إلهية متعددة تحولت إلى ملائمة نورية

وبقي الله يطل عليها من "عل.."[٨].

ولازلت أتذكر من حديث أحد المتنورين من الهندوس معي أثناء إقامتي في الهند قبل أكثر من عقد من الزمان، ما نوه به إلى أن ثمة ما يربط بين عقيدته والإسلام، بالقول: أنتم المسلمون عندكم الله، ونحن عندنا (البكوان) وأنا إذ أتمعن اليوم في طائفة من نصوصهم الدينية فإني لأجد حضور الله بالاسم والمضمون في المطلب الروحي فيها وبما يتوافق مع المطالب الروحية للأديان السماوية، فيما هي لا تتوافق في شكل وطبيعة الطقوس المعتقدية لاختلافها مصدريا.

والى جوار الفكر التأليهي والذي كان له حصة وافرة من مجمل التفكير الديني، كأنه قد نشأ اتجاه معاكس أقل شأناً وتأثيراً في الواقع الإنساني، كاتجاه "الجينية" وهي فرقة منشقة عن الهندوسية، ومطبوعة بطابع المذهب الهندوسي العام، ويذهب فيها "مهاويرا" إلى عدم الاعتراف بالآلهة وبكل مخلوق يتكون من جسم وروح، ولأن الاعتراف بالآلهة في تقديره قد يخلق من جديد طبقة براهما أو كهنة يكونوا صلة بين الناس والآلهة وقرر أنه لا يوجد روح أكبر وخالق أعظم لهذا الكون، واتجهت الجينية إلى الاعتقاد بأن كل موجود – إنساناً كان أم حيواناً، أم نباتاً أم جماداً– يتركب من جسم وروح، وأن كل روح من هذه الأرواح خالدة ومستقلة يجري عليها التناسخ والذي اتفقت فيه الجينية مع الهندوسية فيما اعتبر فيها ديرا إلها من قبل اتباعه ليكمل ذلك من صورة الدين عندهم، واستتبع ذلك انهم لم يعترفوا بكل القيم التبعية التي تتعلق بالعقائد، فهم كما تورد "موسوعة الأديان في العالم" لا يقولون بالصلاة، ولا بتقديم القرابين ولا يعترفون بالطبقات، ولكن خلق المسألة أدى بهم إلى الاعتراف بالبراهمة[٩].

والواقع أن مسألة الانتماء الديني، أو شكل الإيمان وطبيعته إنما يعد انعكاساً للواقع البيئي في كل مكان وزمان، كالإنسان إنما يكتسب معتقداته

وفلسفته في الحياة من مجتمعه كمثل ما تكتسب الشجرة لون حياتها من أرضها، ويصدق في ذلك قول الرسول محمدﷺ:"مَا مِنْ مَولود إلاّ وَيُولَدُ عَلى الفِطْرَة، فَأبواه يُهَوِّدانه، أو يُنَصِّرانَه، أو يُشْرِكَانه".

وفي حديث آخر: "مَا مِن مَولود إلاَّ وَيُولَدُ على المِلّة" (حديث ابن غير)[١٠].

أصول التوحيد في الأديان

١-التوحيد في الكتاب المقدس

أ-العهد القديم (اليهودية):

إذا رجعنا إلى العهد القديم من الكتاب المقدس نجد في نصوصه وضوحا كاملا لطبيعة الله وصفاته فــ(إيل- إيلوهم) وكما يرد في معجم اللاهوت الكتابي: كان معروفا أو معبودا خارج إسرائيل لجنس يدل على الألوهية تقريبا، وكاسم علم هو اسم إله عظيم يظهر أنه كان الإله الأعلى في القسم الغربي من هذه المنطقة خاصة في فينيقيا، وكنعان ... وأن آباء الأسباط كانوا يسمون إلههم (إيل)،وينعتونه بصفات شتى: "الإله العلي" (تكوين ١٤:٢٢)،الرائي (١٣:٣٦)، الله القدير (١٧:٣٥،٤٨:١١)، الإله السرمدي (٢١:٣٣). وإن التوحيد الإسرائيلي لم يكن ثمرة تفكير فلسفي، أو توحيداً سياسياً أو تطوراً دينياً، إنما هو تأكيد إيماني، وأن موسى لم يكن بوسعه أن يكتشف بأن (يهوه) هو الإله الحقيقي لو لم يكن قد عرف الله من قبل، أو ما تميز باسم (إيل- إيلوهيم) مع كل ما يوحي به هذا الاسم من ذكريات مثل "إله أبيك" (خروج ٣:٦)، إله آبائكم (خروج٣:١٥)، إلهكم (خروج ٦:٧)، الرحيم ورؤوف (٣٤:٦)، وإلهك (اشقيا ١٠:١٤،٤٣:٤) أو بصورة أبسط (الله) (ملوك ١٨،٢١،٣٦،٣٧)، وتنشأ بين الله واسم يهوه صلة حية وجدلية وأنه لكي يستطيع أن يكشف عن نفسه أنه (يهوه) يعرض إلى إسرائيل نفسه كإله، ولكنه عندما يعلن أنه يهوه يكشف لنا بطريقة جديدة تماما ماهية جوهره) [١١].

ويفيد النظر في أسفار العهد القديم في إدراك مضمون الدعوة لتوحيد الله الذي هو غالبا ما يطلق عليه اسم "الرب" و"الله" وفي بعض جمل (يهوه) فيما يفهم منه تواصل الرباط التوحدي مع دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام مع

تخصيص الربوبية لنبي إسرائيل حيث كرّس الرب (إله العبرانيين) معجزاته لموسى عليه السلام لخلاصهم من فرعون ففي ابتداء ظهور ملاك الرب لموسى عند جبل حوريب ناداه الرب:

"أنا إله أبيك، إله إبراهيم، وإله إسحق، وإله يعقوب.... اسمع يا إسرائيل: الرب إله واحد، فتحب الرب إلهك، من كل قلبك ومن كل قوتك" (الخروج:٣).

وورد في سفر التثنية من الوصايا:

"أعلم أن الرب إلهك، هو الإله الأمين الحافظ للعهد والإحسان، هو الرب إله السموات وسماء السموات والأرض وكل ما فيها، لا تسير وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي من حولك، إن نسيت الرب إلهك وذهبت وراء آلهة أخرى وعبدتها وسجدت لها أشهد عليكم أنكم تبيدون لا محالة".

وبالنسبة لماهية الله أو كينونته فإن العهد القديم كما يصرح معجم اللاهوت الكتابي: يجهل مذاهب توالد الآلهة (Theogonies) التي تفسر صنع العالم بتكون الآلهة في أديان الشرق القديم فلأنه هو وحده الأول والآخر (أشعيا ١٤:٤،٤٨:١٢).

كان العالم كله وخلقه ولأن الله هو الأزل، فليس عليه أن يقدم نفسه، فهو يفرض نفسه على عقل الإنسان بمجرد أنه الله،في أي مكان، ومعنى أن الإنسان يعرف الله هو أن يكون الإنسان معروفاً منه) (عاموس ٣:٢). وأن يكتشفه في مصدر نفسه وأن الهرب منه أيضاً هو شعور بأن الله يلاحقه بنظره (تكوين١:٣، فرمور ٣٩:٧).

وأن الأسبقية المطلقة لله تعبر عنها التقاليد المختلفة في التوراة على طريقتين متكاملتين، في الرواية المعروفة باسم اليهودية يظهر يهوه منذ بدء العالم، وقبل حادث العليقة المشتعلة بزمن طويل أنه يعمل مواصلاً تحقيق قصده

الوحيد، أما الروايات الأيلوهيمية فهي بالعكس تلح في الجديد الذي يأتي من إعلان الله، باسمه إلى موسى ولكنها في الوقت نفسه تشير إلى أن الله قد سبق فعّرف نفسه تحت ألقاب مختلفة تكاد تكون كلها نعوتاً بالاسم الإلهي (إيل) هذا لأن موسى لم يكن في وسعه أن يكتشف أن "يهوه" هو الله الحقيقي، لو لم يكن قد عرف الله من قبل معرفة متميزة، وأن الإله الذي يكتشفه العقل بمجرد يقظته هو نفسه ذات الله الذي نعرفه بالوحي والكتاب المقدس يعبر عن هذه الحقيقة بالتطابق المباشر والدائم الذي يضعه بين يهوه وإيلوهم، أي بين الإله الذي لم يكشف عن نفسه لإسرائيل، والإله الذي قد تذكره الأمم.

ولذا فكلما يكشف يهوه عن نفسه مقدما ذاته سمي نفسه وتميز باسم (أيل – إيلوهم) مع كل ما يوحي به هذا الأسم من ذكريات من مثل (إله أبيك) (خروج ٣:٦)، "وإله آبائكم" (خروج ٣:١٥)، "إلهكم" (خروج ٦:٧) "الرحيم ورؤف" (خروج ٣٤:٦)، "إلهك" (أشقيا ٤١:١٠،٣٤:٣)،أو بصورة أبسط "الله" (ملوك ١٨:٢١،٣٦:٣٧).

وتنشأ بين الله ويهوه صلة حية وجدلية ولكي يستطيع أن يكشف عن نفسه أنه يهوه يعرض إلى إسرائيل نفسه كإله، ولكن عندما يعلن إنه (يهوه) يكشف لنا بطريقة جديدة تماما عن ماهيته وجوهره (١٢).

وبإزاء ذلك نجد في بعض النصوص ما يفيد كون النبي موسى في بلاغاته عن الرب لفرعون إنما يأخذ دور الإله الذي يتكلم باسم الرب فيما يأخذ أخوه هارون وهو يتلقى منه دور النبي وهو ما يفهم من النص التالي:

(فقال الرب لموسى انظر أن جعلتك إلها لفرعون، وهارون أخوك يكون نبيك، أنت تتكلم بكل ما آمرك، وهارون أخوك يكلم فرعون ليطلق نبي إسرائيل من أرضه) (تثنية – إصحاح ٦).

وإذا ما اعتبرنا بالدلالة اللغوية لعبارتي (إله) و(نبي) كمثل ما يرد

في القرآن (إلهه هواه) (٢٣:٤٥،٤٣:٢٥)، (ونبأنا الله) (٩٤:٩)، (ونبي عبادي) (٤٩:١٥) و (تتبؤن الله) (١٨:١٠)...إلخ، نفهم أن المراد هنا أن يكون موسى رسول الله لفرعون ينبئه عوضا عنه بلسان هارون لما ورد في سؤال موسى لربه ذلك.

وينوه (جاك مايلز) إلى أن قراءة الكتاب المقدس العبراني قراءة متسلسة دقيقة تكشف التعاقب والتطور في شخصية الله الرئيسية وذلك المزيج اللاهوت والسيرة وانه حين يقول اليهود في صلواتهم:

(مبارك أنت يا رب، ملك الكون) يتصورون أن إله الكون ملك، مع أن الله لا يقدم نفسه كملك إلا في الإصحاح السادس من سفر أشعيا).

وكلمة لاحقا هنا تعني لا في الزمن التاريخي وإنما لاحقا في الورود حسب أي لاحقا في قراءة الكتاب من البداية إلى النهاية (١٣)، وعلى ذلك فإن الإيمان بوحدة الخالق يكون كمثل الإيمان بوحدة الخلق (أليس أب واحد لكلينا، أليس خلقنا) (ملاخي ٢:١٠).

ب- العهد الجديد (المسيحية):

لا نجد في بشارات الكتاب المقدس (الأناجيل) إشارات صريحة لمضمون التوحيد الإلهي كمثل ما يرد في العهد القديم، فيما ترد عبارة "الله" صريحة في جملة نصوصها، ويعود ذلك كما يبدو إلى كون الرسالة المسيحية قد بعثت في وسط لا تزال العقيدة الموسوية في التوحيد قائمة فيه ولم يكن هناك من دليل على سريان حالة الشرك في المجتمع اليهودي وقتذاك، مع وجود بعض الممارسات التي أبعدت ذلك المجتمع عن أصول ديانته الحقة كما يرد ذلك في شكوى السيد المسيح من الفريسيين والكهنة، ومثل ذلكما ورد في القرآن الكريم فيما يلاحظ من عبارة الرب التي أطلقها النبي موسى عليه السلام وبدلالتها الاعتبارية قد تأكدت

على نحو واضح في جملة تقريرات السيد المسيح، مع إطلاق نعت (الأب) على الله وهو ما يرد كثيراً على لسان السيد المسيح، معلناً في ذلك كما يشار: تجليته للرب بإعلان القرابة القريبة بين الله وعباده، إذ جعل الله أباً لخلقه، وجعلهم بنيه الأندين بحماه، فانهدمت بذلك على حد تعبير محمد فريد وجدي:الحواجز الحديدية التي كانت بين الله وخلقه [١٤].

والواضح أن عبارة (الرب) في الخطاب المسيحي إنما تقابل عبارة (الرسول) في الخطاب الإسلامي بمثل ما تقابل عبارة (الأب) عبارة (الله أو الإله) ففي رسالة القديس بولس الأولى إلى كنيسة كورنثوس ورد قوله:

(عليكم السلام والنعمة من الله أبينا ومن الرب يسوع المسيح) (١:٣).

وفي الرسالة الثانية (تبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح، الأب الرحيم) (١:٣). (ولتكن نعمة ربنا المسيح، ومحبة الله وشركة الروح المقدس معكم جميعاً) (٢:١٣).

وكما يفهم فإن تسمية (ابن الله، هي عبارة ورثها المسيحيون عن اليهود فيما يدعون شعبهم (ابن الله) أو (شعب الله) ففي أحد فراير داوود (١٠٨) يرد على لسان الله مخاطبا شعبه :(أنت ابني، أنا اليوم ولدتك). فيما أضفى السيد المسيح على هذه الكلمة معنى حميما وصبغة عائلية، فعلم تلاميذه أن يقولوا (أبا) وهي عبارة تودد ودالة كالتي يستعملها الأولاد في العائلة لينادوا والديهم البشريين [١٥].

وفي الكتاب المقدس الكثير من التعابير التي تعطى لمفهوم الأبوة دلالته الروحية التي تخالف الدلالة البشرية على نحو ما نقده القرآن، ففي الكتاب المقدس نقرأ:

(وهذه الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنك الإله الحقيقي- وحدك- ويسوع المسيح الذي أرسلته) (يوحنا ١٧:٣)،

(والأب نفسه الذي أرسلني يشهد لي، لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته)(٥:٣٧).

ومما يذكر عبارة (أبا) كانت تعني في الأساطير الهندية روح طيب وخلق السموات والأرض[١٦] فيما ترد عبارة الرب في القرآن الكريم ضمن السياق الإنساني كمثل ما ترد في السياق الإلهي ففي قصة يوسف مع صاحبيه في السجن تجيء العبارة مع السيد والمالك.

(أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً ،وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ)(يوسف: ٤١- ٤٢).

فيما ترد هذه العبارة وعلى نحو واسع مرادفة لعبارة الله وهو الإله باعتباره مالك الملك في السموات والأرض.

ويورد معجم اللاهوت الكتاب حول (أب): "أن الأبوة هي الصفة الأساسية لله وانطلاقا من الاختبار البشري للآباء والأزواج ممن توفر لهم الحياة العائلية وسيلة ممارسة السلطة وتحقيق الذات في المحبة، وبطريقة تختلف عن الطريقة الوثنية التي تنتقل إلى إلهتها هذه الأمور البشرية وأن هذه الأبوة الروحية هي التي تخصص بولس في إبرازها لاهوتيا، وقد وردت دعوة خرقيال (أبو البشر) وهذه اللقطة – تظهر الفوارق بين الله والإنسان وتذكر النبي بطبيعته الثنائية، وكذلك فإنه عندما تطلق عبارة "ابن الله" في مناسبات متفرقة في العهد القديم على الملائكة الذين يكوّنون الحاشية الإلهية، وقد أعطى بولس الرسول الدليل الواضح لذلك في قوله:

(ولنفتدي الذين هم حكم الشريعة، حتى نصبر نحن أبناء الله، والدليل على أنكم أبناؤه هو أنه أرسل روح ابنه إلى قلوبنا هاتفاً: أبي، يا أبي، فما أنت بعد الآن عبد، بل ابن وإذا كنت ابناً فأنت وارث بفضل الله)(غلاطية ٤:٥-٧).

وإن الاكتشاف الذي ينير كل العهد الجديد هو الذي يجعلنا نرى أن الله إنما قام بحياة يسوع وموته وقيامته، وبفعله الأسمى، وأن كل إنسان منذ ذلك

يستطيع أن يتقرب إليه، وأن هذا الفعل الفريد والنهائي يستطيع أن يأخذ أسماء مختلفة بحسب وجهات النظر وأن أكثر التعبيرات تقول ببساطة: (هذا الذي صلبتموه.. جعله الله سيداً ومسيحاً) (أعمال ٣:٣٦-٣٧).

(وأنه بقدر ما تعد هذه التعبيرات متواضعة ولكنها تحمل معناً بعيداً مثل أكثر التعبيرات لبولس "الرسول جلاءً وعن سر الله أعني المسيح") (كولسي ١:٢٧،٢:٢).

(لأنه كان سبيلاً إلى الله) (أفسس ٢:١٨،٣:١٢).

ومثلها تعبيرات يوحنا "ما من أحد رأى الله، الابن الواحد الذي في حضن الأب هو الذي أخذ عنه" (يوحنا ١:١٨).

"وأساس الاختبار المسيحي واحد في جوهره، وإن بدا تحت صور مختلفة وأسماء شتى (ظهر بر الله)" (روقه ٣:٢١) روقه (٥:١١ أفسس ٢:١٦)، و"انعكاس مجد الرب على وجوهنا" (٢كورنتس ٣:١٨) و "معرفة الله" (يوحنا ١٧:٣).

وكل هذه التعبيرات تفيد أن الله في متناول إدراكنا وأنه يقدم ذاته لكل من يريد أن يقبله في شخص المسيح الذي يظهر قدرته الفائقة ومحبته العجيبة، ولذا فإنه لشيء واحد أن يتحد المرء بالمسيح بواسطة الإيمان، وأن يعرف الله الحق "فالحياة الأبدية أن يعرفوك، أنت الإله الحق وحدك، ويعرفوا الذي أرسلته يسوع المسيح" (يوحنا ١٧:٣).

فأمام ظهور يسوع المسيح يكتشف الإنسان المؤمن وجه الله الحقيقي وحضوره الفعال، سواء أكان هذا الإنسان آتيا من اليهودية أم من الوثنية، أكان تكوينه مبنيا على الحكمة البشرية، أم على التراث اليهودي [١٧].

وبالجملة فإن الفكر التوحيدي يجد تجسيده في قانون الإيمان المسيحي: "نؤمن بإله واحد، أب ضابط الكل، خالق السماء ما يُرى وما لا يُرى" وهذه هي

الوصية الأولى حسب قول السيد المسيح حين سأله واحد من أهل الشريعة عن أهم وأعظم الوصايا فأجاب:

الوصية الأولى: هي اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا هو الرب الأحد، فأحب الرب إلهك بكل قلبك، وبكل نفسك، وبكل قدرتك" (متى ١٢:٣٤ مرقس ١٢:٢٩).

ويشير معجم اللاهوت الكاثوليكي إلى: أن عقيدة التوحيد هي لقاء مباشر بين الخليقة والإله الشخصي كما هو في جوهره، والتعرّف إلى حقيقة هذا اللقاء هي استباق أكيد للعقيدة المسيحية في النعمة، وفي الوحي وفي عطية الله، فعقيدة التوحيد ليس فقط حقيقة فلسفية، إنها تظل أساسية للمسيحية أيضاً،ولما في المسيحية من خاصيات (د.أوما يتبع ٤٢٠،١٨٠١، مرقس ٢٩/١٢، يوحنا ٣:١٧، اكور ٨:٥) [١٨].

وفي تقديرنا فإن تبعات أو دواعي هذا اللون التقديسي للسيد المسيح يكاد في جانب منه يناظر تقديس النبي محمد ﷺ في العقيدة الإسلامية فقد اقترن اسم الرسول محمد ﷺ باسم الله تعالى في آذان الصلاة، وفي كل الأدعية، مع فارق أن الإسلام قد ميّز في توجهات العبادة ما بين الله والرسول كواسطة، ودليل،ومبلغ للوحي الإلهي.

وكون محمد ﷺ لم تكن له مثل صيرورة السيد المسيح أو قيامته ما يستدعي ذلك الربط ما بين شخصيتي الله والرسول، أو مثل التوحد في النظرة القدسية، للسيد المسيح الله "إذ هو شعاع مجده وصورة جوهره" (عبرانين ١:٣)، "ومن رآني رأى الأب" (يوحنا ١٤:٩)، وأن السيد المسيح هو في الأب، والأب منه (١٤:٤).

وأن: (يسوع لا يستطيع أن ينطق بكلمة أو يعمل حركة بدون أن يتحول نحو الأب، وبدون أن يتقبل منه القوة الدافعة، موجهاً نحوه كل نشاطه"٥:١٩-٢٠،٣٠).

كما أنه "لا يستطيع أن يفعل شيئا بدون أن يرجع إلى الأب"(متى١١:٢٧)،وأن النبع الذي يستمد منه كيانه وعمله فهو حضور الأب ومحبته، وأن الأب الذي له الألوهية بدون أن يستمدها من أحد آخر يعطيها كلها للابن المولود منه أزلياً، وللروح القدس الذي يتحد كلاهما..

وهكذا يعلن يسوع عن مطابقة الأب والله، وعن السر الإلهي، وعن سر الثالوث، وأن بولس يردد ثلاث مرات العبارة التي تعبر عن هذا الإعلان (إله ربنا يسوع المسيح وأباه).

"وأن السيد المسيح لا يستطيع أن يتحد بالأب إلا في الروح كذلك فهو لا يستطيع أن يكشف عن الأب بدون أن يكشف عن الروح في الوقت نفسه، وإذ يكشف يسوع المسيح أن الروح أقنوم إلهي، فهو يكشف في الوقت نفسه عنه (إن الله روح) (يوحنا ٤:٢٤).

ومع كل هذه المعاني التي يتضمنها هذا التعبير، وإذا كان الأب والابن يتحدان في الروح فهذا يعني أنهما يتحدان ليجدا سعادتهما لا في التمليك المتبادل، بل بالبذل والعطاء لأن اتحادهما هو هبة وينبوع، ولكن إذا كان هو هبة يحتم اتحاد الأب بالابن على هذا الشكل فهذا يعني أن كيان كل منهما يقوم على الآخر في هبة ذاته، وأن جوهرهما المشترك هو العطاء، والوجود في الآخر، وقوة إيجاد الآخر غير أن قوة الحياة هذه مع قوة المشاركة والحرية هي الروح [١٩].

ويتعرض القرآن لمسألة الروح في آيات شتى من سور متفرقة وفي صلتها بالمقام الإلهي، فهي ترد مترافقة مع اسم الله عنوانا لمشيئته (وفيوضاته):

"روح الله" (١٢:٨٧)، "روح القدس" (٢:٨٧، ٢٥٣، ٥:١١٠، ١٦:١٠٢)، وترد مقترنة بخلق السيد المسيح: "وروحا منه" (٤:١٧١)،"روحا من أمرنا"

(٥٢:٤٢)، "وأرسلنا إليها روحنا"(١٧:١٩)،"فنفخنا فيها من روحنا"(٩١:٢١)، "فنفخنا فيه من روحنا" (١٢:٦٦)، "فنفخت فيه من روحي" (٢٩:١٥،٧٢:٣٨).

وترد في مجال تنفيذ القرارات والبلاغات الإلهية عن طريق الملائكة "ينزل الملائكة بالروح" (٢:١٦) "أنزله روح القدس" (٨٥:١٧) "نزل به الروح الأمين" (١٩٣:٢١).

ويرد اقتران فعل الروح بأداء الملائكة لوظائفها في الملكوت الأعلى مصطفة إلى جوار العرش الإلهي، وفي تنزيلها للوحي "تعرج الملائكة والروح" (٤:٧٠)، "يوم يقوم الروح والملائكة" (٣٨:٧٨)، "تنزل الملائكة والروح" (٧:٩٧).

ويعرض ابن منظور في لسان العرب لمضمون الروح في النصوص القرآنية ومن ضمنها علاقة أمرها بالسيد المسيح، مبيناً أن قوله تعالى: (مِنْ رَوْحِ اللَّهِ).معناه (من رحمة الله)، وأن الروح: الفرح، والروح: القرآن، والروح: الأمر، والروح النفس.

وقد أطلق على القرآن والوحي والرحمة وعلى جبرائيل الروح في قوله تعالى:(الرُّوحُ الْأَمِينُ). وفي الحديث: "تحابوا بذكر الله وروحه" أراد أن يحيا به الخلق ويهتدون فيكون حياة لهم.

وأما قوله تعالى: (وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ)(البقرة: ٨٧). فهو جبريل عليه السلام،والروح:عيسى عليه السلام، والروح: حفظة على الملائكة الحفظة على بني آدم، وقوله(تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ)(القدر: ٤) يعني أولئك [٢٠].

ويقول الأب د. بيتر فدروس بشأن الصفة البشرية للسيد المسيح: أن رسائل بولس الرسول تؤكد ما تؤكده الأناجيل الأربعة من أن السيد المسيح هو من نسل إبراهيم عليه السلام،وأنه ابن داود، وأنه الفادي المخلص،والمسيح

المنتظر، ولا يختلف بولس في هذه الأمور مع أصحاب الأناجيل ولامع سائر أسفار العهد الجديد الأخرى [٢١].

٣- التوحيد في الإسلام

- نظرة أولية-

تستفيض النصوص القرآنية في مجال التوحيد منطلقة من اعتبارات الفاصلة الزمنية ما بين مرحلة الإبلاغ الرسالي في الإسلام وما سبقها من الدعوات الإبلاغية، وما شاب الحياة العربية من شيوع الشرك والوثنية، وعلى ذلك فقد اقترنت دعوة الإسلام إلى التوحيد بالمناظرة والمحاججة وبتكثيف واضح في بلاغات الدعوة التوحيدية، وتركيز منطلقاتها الفكرية وعلى وفق ما ترد تفاصيلها في الكثير من الآيات القرآنية لتكون دليلاً اعتبارياً لمطلب تحريك الفكر باتجاه الوصول إلى حقائق الكون والحياة وربطها بالموجد الحقيقي وبما يتناسب مع مدارك الإنسان في مرحلته، ومن خلال التوجيه للتدبر والتفكر في علل الكون ومعجزات الخلق وصولاً إلى الحقيقة عبر مستند عقلي، ودون أن تترك مسألة الإيمان بالله للفطرة فيما يعتبر الله كخالق للإنسان قادر على تثبيتها وتكريسها في النفس البشرية لو أراد: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (يونس:٩٩).

وبذلك فقد قررت الرسالة الإسلامية أن يبلغ الإنسان مرتبة الإيمان بالله والتيقن به بعقله وعبر تبصير الرسل والأنبياء ليكون العقل مفتاحاً لرسم الاتجاهات الصحيحة لمعتقد الإنسان بالله عبر التفسير العقلي لظواهر الوجود: (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ) (آل عمران:١٩١).

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)(العنكبوت:٢٠).

وتعتمد النصوص القرآنية الشواهد لإقناع الإنسان الوثني المشرك كيما

يتحول منها إلى عقيدة التوحيد في تبصيره بظواهر الكون وعلة خلقها وانتظامها:
(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ* وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الرعد: ٢-٣).

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة: ١٦٤).

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة: ٢١-٢٢).

وتعرض فصول كاملة من القرآن قصصاً عن الأنبياء والرسل السابقين تتضمن في ثناياها الدعوة لعبادة الله ووحدانيته وللاعتبار بما ورد فيها:
(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (يوسف: ١١١).

إلى جانب الآيات التي تروي حكايات ذات مغزى هادف إلى تقريب فكرة الإيمان بالله الواحد إلى الأذهان، من ذلك الاستشهاد بما كان من أمر أبي الأنبياء إبراهيم كمثل ما ورد في سورة البقرة:
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ * أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة: ٢٥٩).

ثم ترد التفاصيل لقصة إبراهيم مع أبيه وقومه بشأن الأصنام وهي مطابقة مع اختلاف في أسلوب العرض في سرد الجزئيات مع ما يرد بشأنها في كتاب العهد القديم – دعوة إبراهيم أثرها قومه للتدبر في حال أصنامهم:

(قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ(٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ(٧٤)قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ(٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ(٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)(سورة الشعراء).

وبذلك فقد كانت حملة التشكيك بعبادة الأصنام والمعتقدات الوثنية وتسفيهها حلقة أساسية من حلقات الجهاد الابتدائي الأساسي لتثبيت ركائز التوحيد، وأن جمهور العرب الوثنيين قد تقبلوا التعاليم القرآنية – كما ينوه المستشرق هـــجب: دون أن يتخلوا تمام التخلي عن معقداتهم القديمة، فكان ما حققه محمد لديهم هو أنه فرض قوة مسيطرة عليا باسم (الله القوي المتعال) – وجعلها فوق ما عندهم من حصيلة تسميته، وبذلك ظل الموروث الغربي القديم قائماً تحت هيمنة ذلك القادر الأعلى وظل لديهم إيمانهم بالسحر والقوى الغيبية وبخاصة الشريرة منها كالجن وبالقرينة أو التابع وأشباهها ظلت قائمة مصبوغة بصبغة إسلامية تكثف هناك أو تضعف هناك. [٢٦].

وقد اشتمل مبدأ التوحيد كما يتضح من جملة النصوص القرآنية على ربط مركزي لوحدة الفكر الرسالي في كل دعواته للأنبياء: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ

رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء:٢٥).

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)(آل عمران:٦٤).

ونجد في العهد الجديد من الكتاب المقدس ما يؤيد ذلك التوجه في كون رسالة السيد المسيح قد جاءت تكملة لشريعة السابقين من الرسل وأنها جميعاً تشكل نسيجاً واحداً:

"لا تظنوا أني جئت لأبطل الشريعة وتعاليم الأنبياء، ما جئت لأبطل بل لأكمل، الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف أو نقطة واحدة من الشريعة حتى يتم كل شيء" (متي ٥:١٧-١٩).

وسنورد في الموضوع الخاص عن "خطاب التوحيد الرسالي في الإسلام"، تفاصيل أوفى عن منطلق التوحيد، ودلائل الدعوة التوحيدية في الرسالة الإسلامية كما ترد على وجه الخصوص في النصوص القرآنية.

٣- التوحيد عند الصابئة المندائيين

تجد في الكتاب المقدس للصابئة المندائيين (كنزاربا) مصداقاً للنظرة الفلسفية العامة للفكر الديني السماوي عن الله إذ يرد في القسم الأول منها – صفات الله – من (بوثة) "سورة التوحيد":

(ملك عالم الأنوار، رب الحق ذو النفس الشاملة التي لا حدود له).

(النور الطاهر، والضياء العظيم، الذي لا ينضب، الغفور التواب، الرحمن الرحيم .... العزيز الحكيم، والعليم البصير، والقادر على كل شيء).

(رب كل عوالم النور العليا والوسطى والسفلى، ذو السيماء العظيم، الموقر الذي لا يرى ولا يحد...).

(ليس له كفؤ بتاجه، ولا شريك في سلطانه، ومن اتكل عليه لا يخيب...).

(ومسبح اسمه بالعهد ويدرك من اتكل عليه وليس على غير الله العظيم).

(رب كل عوالم الملائكة وهو من نفسه، وليس من غيره، والموت لا يشمله)[٢٢].

وورد في الكتاب المقدس (العهد الجديد) من نشيد زكريا:

(لأن إلهنا رحيم رؤوف... يتفقدنا مشرقا من العلي، ليضيء للقاعدين في الظلام، ويهدي خطانا في طريق السلام) (لوقا ١:٧٨-٧٩).

وتشير موسوعة الأديان في العالم إلى: أن الصابئة المعاصرين يتحدثون عن كائن أعلى يعطونه أسماء متعددة منها: (ملك النور، وملك دنهورا، أو رب العظمة، ماراوبوثا)، كذلك يتحدثون عن مساعدين لهذا الكائن الأعلى لهم أدوار في عملية الخلق، وأحياناً يكون لهم وكلاء في هذه المهمة، ومن هؤلاء الكائنات المساعدة:(هيبل زيوا، وأباثر، وتباهيل) وتختلف أدوارهم وصفاتهم وعندهم أن الله يخلق الخير فقط، وأنه لا يجوز كما يرون أن يخلق الشر، وينقل عن الشهرستاني وصفه لمذهب هؤلاء الذين يتقربون بالمتوسطات لدى الله بأنهم: "الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً وفعلاً وحالة"، وتخلص الموسوعة من

مجمل عرضها لمعتقدات الصابئة إلى أنهم عقيدة وشريعة استمدوا ما هم عليه من مصادر متعددة منها ما هو من اليهودية والمسيحية والإسلام، ومنها ما يعود إلى المجوسية وسواها من الأفكار الوصفية [٢٣].

وبصدد ذلك يقول السيد عبد الرزاق الحسني في بحثه عن الصابئة:

"إن ديانتهم تكاد تكون تاريخاً عاماً للأديان الأخرى، فإن السنن التي استنت عليها هذه الديانة، والتطورات التي تطورت بها تبدو في سنن وتطورات سائر الأديان، منوهاً إلى أنهم ليسوا منكرين لوحدانية الخالق، بل هم موحدون، ولكنهم يعتقدون بأمور كخلق الخير والشر ووجود وسائط هي الكواكب، وهو ما يسيء ويشوش توحيدهم وإيمانهم"[٢٤].

ويذهب د. رشدي عليان إلى الاعتقاد بأن الدين الصابئي ليس من أرومة الأديان المنزلة، وإنما هو دين معرفي ينتسب إلى عائلة الأديان والمذاهب الغنوصية متذرعاً بما وجده في مقدمة كتاب الصابئة المندائيون من أن اعتقاد الصابئة بالله يشبه إلى حد كبير اعتقاد الفئات الغنوصية (المعرفيين) حيث إنهم يدركونه عن طريق الفيض الإلهي، ومن مظاهر الخليقة التي أبدعها[٢٥].

ولا تظن ذلك فطالما أنهم يسندون أفكارهم المتقدمة إلى النبي يوحنا المعمدان فإن من البديهي أن يكون اعتقادهم بالله مستمداً من مصدر سماوي، وبالتالي فإنهم يعدون من بين سائر الأديان السماوية كما صرحت بذلك نصوص القرآن الكريم (٥:٦٩،٢:٦٢) إضافة إلى ما ذكرناه من دلالات النصوص في شريعتهم.

٤- نبوءة التوحيد في الزرادشتية

تعتبر الزرادشتية من أخص الديانات التي التزمت دعوة التوحيد في مجتمع وثني وبالنبوءة الشخصية، إذ كان زرادشت قد أعلن نبوته قائلاً: أنه تقابل وجهاً لوجه مع الله الذي يدعوه "أهورامازدا"- الرب الحكيم- وحيث كان بأن الله يتحدث من خلال فمه وأنه قد أدركه في سلسلة من الرؤى كرب مقدس، وانه تحدث إليه كما يتحدث الصديق إلى صديق:

(امنحنا السند الذي يعطيه الصديق إلى صديقه).... وهذا جزء من العلاقة التي كان يتصورها بين الله والإنسان، وأنه من صميم طبيعة الله، وأن للإنسان أساليب يوحد بها نفسه مع الله، إنها "القرابين" التي تخلق العلاقة السحرية بين البشر والإله، وأن شكلاً واحداً من القرابين يتوافق مع هذه العقيدة الجديدة وهو"قربان النار"، حيث يعتقد زرادشت كما هو وارد في (الأوبانيشادات):

(إن الكون كله عبارة عن قربانية، وأن هناك تطابقاً أساسياً بين النار والقانون الكوني: "عند تقديم التبجيل إلى نارك، سوف أفكر في الحق، في الرب طالما أملك القدرة") (٢٧).

وفي خطوة جريئة وموفقة من زرادشت لنشر دعوته فإنه قصد (الملك كاشتاسب) معلناً له بصوت قوي:"أنا زرادشت سبتاما نبي الإله الواحد الحكيم جئت إليك أيها الملك لأحول قلبك من الأصنام الشريرة التافهة إلى عدالة حق خالد حكيم".

ومن خلال تلك المناظرة المثيرة التي جرت بين زرادشت والكهنة بحضور الملك والتي استمرت لطوال ثلاثة أيام وثلاث ليال استطاع أن يثبت جدارته في تأهيل دعوته التوحيدية لأن تأخذ مكانها المميز في مجتمعها الوثني لفترة من الزمن بحيث استطاع أن يكسب إيمان الملك كاشتاسب الذي التزم دعوته واعترف به كنبي لإله حكيم، وقد وضح خلال ذلك جوهر عقيدته الموحدة

التي تقوم على فكرة وجود عالمين متجاورين ومتصارعين هما عالم (أهورامازدا) – عالم النور– وعالم الشر – (أهرمان) وأن الصراع الطويل بينهما قد انتهى لصالح (أهورامازدا) الذي يدعوه بالإله الحكيم والذي يعده وراء الخلق الخيّر في الكون– وسنأتي على تفاصيل أوفى لذلك في الآتي–.

الواقع أن زرادشت كان قد اقترب في أفكار كثيرة من الأديان السماوية حيث انه حذف الآلهة الذين تمتعوا بوضع خاص في إيران وقتذاك، بما في ذلك (ثيرا) العظيمة لصالح (أهورا) العظيم بمفرده، الرب الحكيم الذي ارتبطت به منذئذ المفاهيم في علم الكون الهندو– إيراني، مع (الأهورات) الأخرى وأصبح (الديقان) خاضعين له لتصبح وجوهاً للرب الحكيم ونماذج لفعله، واندمجت عناصر الصراع المبعثرة لنماذج مختلف الآلهة، والشياطين، والوحوش الخرافية بلا تحديد في صراع واحد عام بين الخير والشر يكون في الإله والإنسان في جانب واحد في ثلاث جواهر تشكل نوعاً من الثالوث العلوي إذ لها: الروح المقدسة وهي الله كأصل للخير، وتمثيل الاختيار الطيب، وثانيهما النظام أو الحق، وثالثهما: العقل الخير.

ومن بين هذه الأقانيم التي أعلن انها متطابقة مع الرب ذاته الأولى، باعتبار أن (الله) قد اختار الحياة الضوء والحكمة، وأنه قد خلق ونظم العالم لخير البشرية، فيما يضع النظام أو الحق في مكانة عالية بين جميع الكائنات السماوية، وبذلك فإنه قد أزال صورة (ياما) والذي كان فيما مضى البطل للتصوريين الأوليين وإخراج هذه التصورات في صورة رؤيا خاصة [٢٨].

وإننا لو حذفنا شرط أو أطروحة الاتصال المباشر لزرادشت بالله كما يقره هو: (عندما أدركتك بعيني كخالق صادق للحق) لكان ثمة ما يقابل صورة الأنبياء والرسل في الديانات السماوية الذين يمثلون وجه النظام والحق لله بما يوحي إليهم، إذ أن القرارات التشريعية لهذه الأديان لم تكن إلاّ وحياً منزلاً من

مصدره في السماء (الله) عن طريق رسل منتدبين ومكلّفين لمثل هذه المهام، أو ما يحصل بالنداء، ولم يكن فيها ثمة ما يقر بالاتصال المباشر بالله على نحو ما يذكره زرادشت ففي بدء الإبلاغ الرسالي لموسى يشير الكتاب المقدس أنه قد سمع نداء الرب في وسط العليقة التي كانت تتوقد بالنار ولم تكن لتحرقه، وأنه قد أمره أن يقترب إلى هنا بعد أن خلع حذائه من رجليه لأنه يقف في أرض مقدسة -وهذا نحو ما ذكر في القرآن الكريم- ثم قال له:

(أنا إله أبيك إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى السماء) (خروج ٣).

فما كان من موسى إلا أن يصعد إلى الجبل ليسمع نداء الله: وأنه كان يقول لكل جماعة من إسرائيل امتثالاً لأمر ربه: (قربوا إلي أمام الرب) بعد أن تذمروا وهم في برية سيناء، وبينما كان هارون يكلمهم التفتوا نحو البرية وإذا مجد الرب قد ظهر في السحاب فكلم الرب موسى (خروج ١٦)، ويصدق القرآن ذلك مؤكدا بأن موسى لم يكن بوسعه أن يرى الله إلا على تلك الصورة.

ويذكر العهد الجديد من الكتاب المقدس بشأن النبي يحيى (يوحنا المعمدان) وهو يعمد السيد المسيح: أنه خرج من الماء وانفتحت السموات له، فرأى روح الله يهبط كأنه حمامة وينزل عليه، وقال صوت من السماء: (هذا هو ابني الحبيب الذي رضيت) (يوحنا ٣:١٦-١٧).

وقبل ذلك فإن سيدنا إبراهيم سأل ربه أن يريه (كيف يحيي الموتى) فأشار له أن يعمد إلى أربعة من الطير فيقطعهن ويخلط ريشهن ويجعل على كل جبل من جبال أرضه جزءا ثم يدعهن إليه فيأتينه سريعاً[٢٩] على نحو ما ورد في الآية (٢٦٠) من سورة البقرة.

وبالنسبة للرسول محمد ﷺ فإن الوحي كان يتنزل عليه عن طريق الملك (جبرائيل)، وفي حادثة الإسراء والمعراج والتي ذكر أن الرسول ﷺ قد إلتقى

فيها بسائر الأنبياء، فإنه لم يصح فيها كما نقل أنه قد رأى الله عياناً، فقد ذكر (شمس الدين بن القيم) بشأن الآية (٣) من سورة النجم ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾(النجم: ١٣).أنه اختلف رأي الصحابة أن رسول الله ﷺ هل رأى ربه، وصح أنه رآه أم لا؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه، وصح أنه رآه بفؤاده، وعن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك، وقال إن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عند سدرة المنتهى﴾ -إنما هو جبريل- وصح عن أبي ذر أنه سأله هل رأيت ربك؟ قال (نور أنى أراه) أي حال بينه وبين رؤيته النور كما في لفظ آخر رأيت نوراً، وأن عثمان بن سعيد الدارمي قد حكى اتفاق الصحابة على أنه لم يره، وقال الإمام ابن تيمية وليس: كقول ابن عباس أنه رآه مناقضاً لهذا ولا قوله رآه بفؤاده وقد صح عنه أنه قال: رأيت ربي تبارك وتعالى، ولم يكن هذا في الإسراء ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الفجر ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه [٣٠].

وعلى أية حال فإنه عدا ما ذكرنا، فإن زرادشت كان قد جسد في ترانيمه وحدة الذات الإلهية، وأعطى لله تعالى نفس الصفات التي وردت عنه في الفكر التوحيدي السماوي، مركزاً على القصور العقلي في معرفة الله، "بواسطة العقل أيها الحكيم قد عرفتك كمبتدئي ومنتهي كوالد للفعل الخيّر، عندما عاينتك بعيني كخالق حق، كسيد في أفعال الوجود" (ترنيمة ٣١:٣)، وهو نفس المعيار الذي حضّت النصوص القرآنية على اعتماده في معرفة الله حيث ترد في الوافر من الآيات عبارات: (يتفكرون، يتدبرون، أولوا الألباب...) وعلى ذلك فإن زرادشت يقدم الدلائل العقلية التي تمثل بها وجود الله مما في الطبيعة:

(من عين للشمس والنجوم سيرها).

(من إلا أنت الذي بواسطته ينمو القمر ويغيب).

(من أرسى الأرض، موضعها السفلي، وسماء السحب التي لا تسقط أبدا).

(من خلق المياه والنباتات).

(من أسرج للريح والسحب حياتها السريعة).

(من أيها الحكيم خالق العقل والخير).

(من الصانع الذي صنع النوم واليقظة).

(من صنع الصباح، والظهيرة والليل).

(من يذكر الرجل الحكيم بواجبه) – (ترنيمة ٤٤:٣).

وعن طبيعة الله وصفاته جاء في ترانيم زرادشت:

(إن الرب حكيم بالغ العظمة له العرش والقصاص)(٢٨:٥).

(الواحد الحكيم، أب العقل الخيّر الفعال).

(الرب كلّي القدسية، لا سبيل للإخلال به) (٤٥:١٤).

(الرب كلي الكمال والخلود من نصيب ملكه والقوة على الدوام في مقره وله المجد المقبل)(٣١:٢٠).

(أيها الرب الحكيم، أنت كروح بالغ القداسة، امنحني الخلود والكمال والقوة) (٥١:٧).

(أنا أعرف أن أفضل شيء هو عبادة الرب الحكيم) (٥١:٢٢).

(هو المدرك بالروح كرب حكيم)[٣١].

وعلى ذلك فإن زرادشت كان كما قال (جان جوش جيلمان): "قد استوعب القيم الإنسانية كقيم كونية، وأنه استطاع أن ينزل إلى مستوى الإنسان بكلمات (بول فاليري):

"الأعمال العظيمة التي في السموات"، غير أن الزرادشتية كعقيدة كما رأينا لم تستطع أن تصمد أمام المد التوحيدي للإسلام الذي امتد بظلاله إلى ديارها.

وبالنسبة لفكرة أو عقيدة النار في الزرادشتية فإن لها أصولاً تاريخية فعند اليونان كما يفيد معجم ديانات وأساطير العالم، كانت النار تعتبر عنصراً إلهياً، وقد أخذت مكانها في جميع المدن اليونانية التي كانت توقد مشاعل تستمر موقدة ولا تطفأ أبدا، واتخذ الرومان عبادة النار التي عهدوا بها إلى كاهنات "فستا Vesta" وفي أفراح الزواج في روما يقام حفل غريب، تؤمر فيه العروس أن تلمس النار والماء، وفي الهندوسية لعب "أجني Agni" دوراً رئيسياً فهو ابن الأرض والسماء الذي فصل بينهما، كما فصل بين الأعلى والأدنى، والأنثى والذكر بقضيب من نار، ولأجني سبعة ألسنة يخرج منها اللهب وأجني كاهن وهو الوسيط بين الآلهة والبشر(٣٢).

ويشير الزعيم الروحي للزرادشتية رستم بهزادي إلى أن مبعث دخول النار ضمن الطقوس العبادية كونها مصدراً للنور وهو قبس من (أهورامازدا) وفي ذلك يقول:

(إننا نتجه للنار في بعض الأحيان باعتبارها تمثل النور الذي نعتقد أنه انعكاس أو مظهر من مظاهر الله، فنحن في الحقيقة وعندما نتوجه لعبادة الله نتجه إلى النور بأي شكل كان، ففي النهار تكون قبلتنا الشمس، وفي الليل القمر أو النجوم، أو أي ضياء كان ومنها النار طبعاً حيث نعتقد أن نور جميع هذه الأشياء يمثل النور الإلهي، فالمهم إذن أن نتجه لأي مصدر للنور مهما كان شكله أو حجمه كقبلة لنا نقدسها ولا نعبدها) (٣٣).

٥- الهندوسية بين تعدد الآلهة والتوحيد

تعتبر الهندوسية أو ما تسمى أحيانا بالهندوكية من بين الديانات العريقة التي تأصل جذرها التاريخي في الحياة الإنسانية لتمر في بعدي التطور في الفكر الدبني، ما يتصل منه بتعدد الآلهة وأساطيرها، وما يتصل منها بوحدة الآلهة وعلى نحو غدت فيه هذه الديانة على نحو ما تشير موسوعة الأديان في العالم، (أسلوباً في الحياة أكثر مما هي في مجموعة من العقائد التي يوضح استيعابها لشتى العقائد والفرائض التي منها ما يهبط إلى عبادة الأحجار والأشجار،وما يرتفع إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة، وإن تقديس الظواهر وما يتعلق بها من الآلهة المفترضة عندهم إنما ينبع من مفهوم يسود في دينهم مفاده أنه عندما عمّت الفوضى والمفاسد في المجتمعات القديمة فإن الحق بحاجة للظهور، ولذلك نزلت الآلهة لإحقاق الحق ونشر العدل، والثبات عندهم القول بالثالوث من الآلهة الذين تسند لكل منهم مهمة بعينها).

ويتكون هذا الثالوث من (براهما، فشنو، وشيغا) ومن بين هؤلاء يعتبر براهما الذي يطلق عليه اسم (سانج هيانج) هو الخالق الذي ترجى رحمته وكرمه وعطفه جميع الأحياء، وينسبون إليه الشمس التي يكون فيها الدفء وانتعاش الأجسام، وتجري بسببها الحياة في النبات والحيوان، ويعتقد أنه خالق الكون على طريقته،فيما يكون فشنو بمثابة الرسول، وكثيراً ما يصورونه على هيئة إنسان جاء ليقدم الخير والعون للبشر وتنسب إليه كل صور الخير والجمال والحب، والعطاء، ويساعده في مهمته آلهة آخرون مثل -راما وكرشنا- وتظهر عشرة تجليات رئيسية لفشنو الإله الأعلى والرب الحافظ للكون، وكل شكل من أشكال فشنو هي تجلي لبراهما في الواقع المطلق أو الحقيقة النهائية.

وهذه التجليات يستحضرها الهندوس باسم الآلهة التي لها حضور مميز في الشعائر الهندوسية، فيما ينسب إلى شيفا الفناء والدمار، فهو الملك للعالم

ومهمته تفيض مهمة فشنو وتنسب إليه كل الأعمال البشعة والشر والحروب والجفاف، وهكذا فقد حددت لكل من فشنو وأتباعهم من الآلهة، كرشنا وراما وبودا وكاليكي، مهمات ووظائف من أجل إحلال صفة الربانية الطاهرة في النفوس، مقابل الشياطين ومن والاهم ممن يشيعون ظواهر الشر ويقاومون مواقع الخير والفضيلة.

وبالنسبة للتصور الآخر للوحدة أو ما يصح أن نسميه وحدة الأداء، أو الوظيفة الكونية، فيشار إلى أن كاهناً توجه إلى الآلهة برهما، وفشنو، وشيفا وسألهم: أيكم الإله الحق؟ فأجابوا جميعاً أيها الكاهن إنه لا يوجد أدنى فرق بيننا نحن الثلاثة، فإن الإله واحد، يظهر في ثلاثة أشكال بأعمال من خلق وحفظ وإعدام، ولكنه في الحقيقة واحد فمن يعبد أحد الثلاثة فكأنه عبدها جميعاً، أو عبد الواحد الأعلى(٣٤)، فيما يذكر أن الهندوسية الحالية تعد براهما هو أبو الآلهة وهو منشئ الكون وحارس العالم.

وعلى ذلك فإن كلا من: فشنو وشيفا وأتباعهم من الآلهة يكونون لو قرّبناهم لما هو متصور في العقائد السماوية، بمثابة الملائكة المديرين لشؤون الكون والذين يختص كلاً منهم بمهمة كونية.

ويقف بنا المؤرخ (ول. ديوارنت) على حقيقة التطور الذي مر به الاعتقاد الهندوسي والذي لعب فيه حكماء (اليوبانشاد) دورهم الهام وقد تم ذلك كما يذكر في خطوات ثلاث،

الأولى منها: ما يدعى بـ(المذهب السري) والذي يقوم على أن جوهر النفس ليس هو الجسم ولا العقل، ولا هو الذات الفريدة، ولكنه الوجود العميق الصامت، الذي لا صورة له الكامن في الوجود (أتمان) .

والخطوة الثانية: فهي (براهما) وهو جوهر العالم الواحد الشامل الذي لا هو الذكر ولا هو بالأنثى، غير المشخص في صفاته، والمحتوي لكل شيء

والكائن في كل شيء، والذي لا تدركه الحواس، والذي لا يولد ولا يتحلل ولا يموت، وان (أتمان) روح الأشياء والقوة وراء جميع القوى الإلهية.

والخطوة الثالثة: قد تمت إثر ذلك الحوار المثير الذي كان بين (ياجنا فالكيا) و (فيدا جاداسا) الذي استمر يسأل:

- كم عدد الآلهة يا ياجنا فالكيا؟
- فأجابه: عددهم المذكور في الترنيمة للآلهة جميعا ثلاثمائة وثلاثة وهم ثلاثة آلاف وثلاثة.
- نعم، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياجنا فالكيا؟
- عددهم ثلاثة وثلاثون.
- نعم، ولكن كم عدد الآهلة على وجه اليقين يا ياجنا فالكيا؟
- عددهم ستة.
- نعم، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياجنا فالكيا؟
- عددهم اثنان.
- نعم،ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياجنا فالكيا؟
- آله ونصف.
- نعم، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياجنا فالكيا؟
- إله واحد.

وانتهى ذلك إلى أن (اتمان) و(براهمان) إن هما إلا واحد بعينه وإن ما هو ذاتي وموضوعي شيء واحد، الإنسان في حقيقته التي تتجرد من الفردية هو بعينه جوهر الكائنات جميعاً وأن هذه الفلسفة كانت سائدة في التفكير الهندي.

من بوذا إلى غاندي، ومن ياجنا فالكيا إلى طاغور، وهي بمنزلة العهد الجديد للأفكار المسيحية مذهباً دينياً سامياً(٣٥).

وثمة من يشير إلى أن الهندوس قد فتحوا الباب للمسيحيين فيما يسمى

(تثليث في وحدة) و (وحدة في تثليث) [٣٦].

أما عن السيخية: فهي الديانة التوحيدية المنبعثة من بين الوسط الهندوسي – الإسلامي في الهند، وقد نشأت بفكرة وسطية أعلنها "ناناك NANAK" الذي أشار إلى انه لم يلمس الفارق بين "الله" عند المسلمين و"فشنو Vishnu" الآلهة الحافظ عند الهندوس وعنده أن الإله واحد وهو الذي يبني الروح، ويحيط علمه بالملايين،وليس له أعين، وهو الخالق لملايين الأشكال والأجسام، والغالب لكل ساحر وشيطان، وأن ما من قلب منير إلا والنور الذي حل فيه من مصدر واحد هو الإله الذي هو مفارق للمخلوقات كافة، وبذلك فإن أفكار ناناك كما تشير موسوعة الأديان في العالم متأثرة بمؤثرات إسلامية[٣٦].

٦- البوذية: التأليه البشري

نشأت البوذية من فكرة مغالبة الأهواء، والتركيز الذهني السليم، أو صدق التأمل الروحي بالتبتل والرياضة الروحية كي يصل الإنسان إلى الغرض الأسمى وهو (النيرفانا Nirvana) وهي الهدف الأسمى من التأمل في التفكير الديني الهندي، وحالة الاستثارة والتحرر في البوذية، أو انعدام فكرة الأنا كجوهر(٣٧)، وبصدد ذلك فإن بوذا قد علم الناس بأنه ينبغي أن يسعوا للخلاص من الآلام، وتخليص أنفسهم من كل الرغبات الدنيوية والمتع المادية لكي ينالوا، النيرفانا (السعادة القصوى)(٣٨)، وإن ذلك ينطلق من الناموس الطبيعي الذي يقول عنه بوذا بأنه: ليس بخاضع لذات قدسي يتصرف فيه كيفما يشاء، بل أن ذلك الناموس مستقل بذاته، نافذ بنفسه، لا يتأثر بمؤثر بشري أو إلهي(٣٩).

وعلى ذلك فإن بوذا قد تخلى عن القول بأن هناك إلهاً، بل أنه كما نقل من قول (رادهاكرشنن) – نائب رئيس الجمهورية الهندية– (لم يعن بالحديث عن الإله ولم يشغل نفسه بالكلام عنه إثباتاً أو إنكاراً وتحاشى كل ما يتصل بالبحوث اللاهوتية وما وراء الطبيعة أو القضايا الدقيقة في الكون إذ كان يرى أن خلاص الإنسان متوقف عليه هو لا على إله، وإن الإنسان صانع مصيره، ومن كلماته في ذلك: كونوا لأنفسكم جزائر قائمة بنفسها، وكونوا موائل وكهوفا، ولا تعتصموا بملاذ خارجي).

بل إنه وقف مرة يسخر ممن يقولون بوجود الإله وكان مما قاله في ذلك: (إن الذين يتكلمون عن الله، لم يروه وجها لوجه، فهم كالعاشق الذي يذوب كمداً وهو لا يعرف من هي حبيبته، أو كالذي يبني السلم وهو لا يدري أين يوجد القصر)، ولكن اتجاهات البوذية نمت في الهند لسهولة هذه الاتجاهات ولعدم تعارضها مع آلهة الهندوس، ولذلك فإن كثيراً من الهنود كما أشار رادهاكرشنن يتبعون البوذية في إطلاقها ويظلون مع ذلك على ولائهم لآلهة الهندوس، وعلى

ذلك فقد بدأت البوذية تختلط في مظاهر الهندوسية وبدأ البوذيون يعترفون بالآلهة الهندوسية ويتقربون إليها ليندمجوا في تقاليد الهندوسية وطقوسها وآلهتها.

فيما وضع اتباع بوذا الذين قالوا عنه أنه كان (كائن إلهي) تمثال بوذا بين آلهة الهندوس، ولم يعارض الهندوس لأن العقل الهندوسي لا يضيره أن ينضمّ إله جديد إلى ما يعترف به من آلهة، وبجوار تمثال بوذا ظهرت آلهة أخرى في البلدان التي دخلتها البوذية فظهر في اليابان تمثال (الإله شنتو Shinnto)، وفي الصين تمثال الإله (تاوسيم Taosim)، ثم بعدئذ فقد وجدت مظاهر لتقديس بوذا الأكبر، لتجعل له من الصفات ما يكون للإله الأعظم ذلك أن (آدي – بوذا Adi Buddha) قد عد في بوذية المهايانا هو بوذا الأصلي الذي كان قبل كل شيء، اللامتناهي العليم بكل شيء، الموجود بذاته بغير بداية ولا نهاية، لكنه مع ذلك ليس إلهاً خالقاً ولا يرادف تصور الإله، وان إحدى الأساطير تذكر أن الخلاء كان يحيط بكل شيء عندما تجلى صوت غامض من أوم الذي أنتج بإرادته الذاتية (آدي – بوذا) الذي تجلى على هيئة مشعة انبثقت من زهرة اللوتس[٤٠].

ومهما يكن من أمر البوذية في موقفها من الله فإن في دعوتها للتجرد والتسامي الروحي – كما سيرد بيانه ما يقربها من المنحى الروحي للأديان السماوية ويرى بعض المفكرين أن البوذية تعد ديناً لأنها ترسم الطريق للتخلص من الذنوب، ولأن فيها جانباً روحياً،ولأن معتنقيها يمتازون بحماسة قوية لا تتوافر إلا مع الأديان.

٧- الكونفوشسية: الصلاح من السماء

أقرّت الكونفوشية التي تنسب إلى الفيلسوف الصيني كونفوشيوس (٥٥١-٤٧٩ق.م) بأن السماء هي مصدر الخير والصلاح، وفي ذلك يقول (السماء أمدتنا بالصلاح الذي فينا) و(ما أسمى التفوق الخلقي الذي مصدره السماء) معلناً أن:

(من لا يعترف بالقانون الإلهي لا يكون إنساناً رفيعاً) ومؤكداً:

(إن المخطئ في حق السماء ليس له من يتوجه إليه في الصلاة) مقرّاً بهذه المفاهيم وسواها مما يرد في جملة تقريراته وأحاديثه- التي سنورد نبذا منها في الفصول اللاحقة – توافقه مع منهج الأديان السماوية التي يكون الصلاح والاستقامة من أخص مبتغياتها، فمن مشترطات العبادة التي يرمز إليها في الصلاة أن تكون اللازمة للسلوك القويم والرادعة عن اجتناب الآثام،وبذلك جاء القرآن الكريم:(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ)(العنكبوت: ٤٥).

ويذكر "معجم ديانات وأساطير العالم": إن الأمر انتهى بالصينيين إلى عبادة كونفوشيوس وشيّدت له الكثير من المعابد في كل مقاطعة في الصين، وأنه حتى عام ١٩١٤ استمرت عبادة كونفوشيوس بقيادة (يوان شهى yuan Shihi) أول رئيس لجمهورية الصين، وأن كتبه الخمسة والمسماة بــ(كتب القانون) استخدمت كوثائق أو كتب مقدسة تحولت إلى ما يشبه الديانة فيما بعد، وأنه تحت ضغط تحدي البوذية والتاوية شرع بعض فلاسفتها من أمثال (شاوبونج) و(شوكون –آي) إلى استخراج كل منظم من الكونفوشية، واكتمل هذا الفكر في صورة نهائية على يد تشوهسي، والذي يعد من أعظم الفلاسفة الصينين طوال ألف عام، حيث سادت الكنفوشية الجديدة التي سيطرت على الحياة العقلية في الصين وامتد أثرها إلى كوريا واليابان، ومن خلاصتها الفلسفية يمكن استخلاص

المعيار العقلي الذي يفضي إلى الإيمان بحقيقة الوجود (يوجد في أي عقل بشري ملكة للمعرفة، كما يوجد في أي شيء مبرر وجوده، ويرجع نقص معرفتنا إلى عدم كفاية بحثنا عن علة كل شيء) .

وكان مرد استحسان حكام الصين من قبل للكونفوشية كما يذكر تأكيدها على احترام السلطات وإخلاصها للمصالح العامة، وقد اتخذت كتبها المقدسة أساس النظام التعليمي عند الصينيين لقرون وكان المتقدمون لوظائف الدولة يخضعون لامتحان مبني على هذه الكتب، وقد تطورت الكونفوشية إلى نظرية فلسفية لا تدعو إلى الإيمان بإله ولا حياة آخرة، وكان لها أثر على القيم الأخلاقية، والفلسفية عند اليابانيين في الفترة من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، وعندما استولى الشيوعيون على الحكم عام ١٩٤٩ حاربوا الكونفوشية كمثل محاربتهم الأديان الأخرى فهاجر اتباعها إلى تايوان [٤١].

ومن ديانات الصين "الطاوية" وهي تنادي بأن يسعى الإنسان لتحقيق السعادة والخلود، ولهذه الديانة كما يرد في الموسوعة العربية العالمية بممارسات وطقوس من صلوات وسحر ومحاربة حبس النفس، والتأمل وتلاوة نصوص مقدسة،والإيمان بالتنجيم والعرافة، والاتصال بالأرواح، ويعبد الطاويون آلهة أكثر من اتباع ديانة أي ديانة أخرى، فيما تطورت "الشنتوية" –ديانة اليابان الوطنية – من معتقدات شعبية محلية، وان معتنقيها يتبعون الأرواح والشياطين التي تحل كما يعتقدون في الحيوانات والجبال والشجر وغيرها من عناصر الطبيعة وأنها قد تأثرت في القرنين السادس والسابع الميلادي بالبوذية والكونفوشية في معتقداتها وطقوسها ولم تستطع أن تطور لها معتقدات عن الخلاص والحياة الآخرة كالبوذية [٤٢]. ومعنى الشنتو هو "الطريق إلى الآلهة".

وهناك من المذاهب الدينية (الجنا نايوجا)،والتي ترى في كل الديانات وفي كل الفلسفات حقاً، ولكن هذا الحق ليس سوى ذرة من الحق الأعظم الكامل،

وهي ترى أن أي دين أو فلسفة ليس هو كل شيء وليس هو كل الحق، وأن أتباع كل الديانات المختلفة أخوة مهما اختلفوا[٤١].

ولعل في ذلك ما يشبه الفكر السيخي الذي نشأ وسيطاً بين الهندوسية والإسلام في الهند وقد كان "ناناك" مثالا للوسطية الدينية.

الفصل الثاني

توافق الأحداث في الأديان

* خلق الكون.

*خلق آدم... وما كان أمره.

*الملائكة وإبليس.

*الجزاء، أو معتقدات الدار الآخرة.

*الطوفان.

*إبراهيم وبنوه.

توافق الأحداث في الأديان

في مقايسة الأحداث في نصوص الشرائع مع بعضها يبرز الوافر من دلالات التوافق الموضوعي بينها، ومن يستجلي الأصول التاريخية للفكر الديني لا يمكنه أن يخرج من إطار الدائرة التي تشكل محيط الأديان ومحورها الإيمان، وما يرتبه من معتقدات حول ظواهر الكون وحوادثه.

وأن استجلاء ما يرد في أدبيات الأديان يقف بنا عند وجهات نظرها في الحوادث والأحداث الكونية، وإننا لو شئنا تتبع سائر الأحداث والمشاهد التي ترد بالتواتر والتوافق في معظم كتب الشرائع الدينية مع ما يقتضيها من شروح لاقتضانا ذلك العديد من المجلدات، وعلى ذلك فإننا سنكتفي بالبارز الهام مما تكون له الدلالة الاعتبارية على توافق الأحداث في مجريات التفكير الديني وتطوره عبر العصور من الحالة التصورية المجردة إلى الحالة النظامية من أعمال الفكر والنظر الموضوعي.

ومن نافلة القول التنويه إلى أن الكتاب المقدس قد انفرد بسرد الكثير من أحداث العصور وما يتصل بالخلق الكوني وبشكل خاص ما يتصل بها بالمرحلة الإسرائيلية،أو بنطاق التفكير اليهودي بشكل أوفى ما سردته النصوص القرآنية، وإنما كان السرد القرآني قد جاء لاعتبارات التأكيد على توحد الموقف الرسالي من القضايا الأساسية التي التزمت الرسالات الدينية بمنهجها.

وفضلاً عن مجريات الأحداث التاريخية التي تفي بدلالات التوافق في المسار الرسالي للأديان، فإن هناك الكثير من شواهد التوافق في تفسير الظواهر والأحداث الكونية وإرجاعها للمصدر الإلهي، وفي الآتي بيان موجز لأبرز الحوادث التي توافقت فيها نصوص الشرائـــع الدينية،
وما يكون بصددها من التفسير والتعليل الذي يختلف حيناً حسب النطاق المصدري ما بين الأديان السماوية وغير السماوية.

خلق الكون

تندرج ضمن مسألة خلق الكون كما تورده النصوص التاريخية والدينية قصة التكوين الطبيعي للوجود، وتشتمل روايته على قدر متفاوت من السرد للجزئيات تمثل بمجموعها واقعة الخلق الكوني – المنظور منها وغير المنظور– وقد اختلفت روايات الأديان السماوية عن غيرها أنها ربطت خلق الكون وأحداث الزمان بالمصدر الإلهي، فيما نقلت أساطير الأولين حكايات كثيرة طبقاً لتصوراتهم، وما اتصل منها بإله أو آلهة أو انبثق عن خوارق أسطورية،ففي بلاد ما بين النهرية منح الإله (مردك) السلطة السماوية الكاملة وأنه فيما يذكر لما انتهى من رفع السماء نثر على صفحتها الكواكب لتضيء،ولتجري في طريق منتظم مرسوم، وعندما أضاء السماء جعلها مكاناً لإقامة الآلهة (اونو وبعل آي...)، أما الآلهة الأخرى فقد قسّم عليهم الكواكب ليكون لكل كوكب بيتاً لإله، وإذا انتهى مردك من إقرار كل إله فوق كوكبه وضع نفسه هو الآخر في كوكب كان أكبر كل الكواكب الأخرى وجعله المصدر الرئيس للنور في صفحة السماء(٤٣).

وعند الفينيقيين فإن "ملحمة ستكن تين" تروي: أنه امتزج الروح والفضاء فولد منهما موط (الطين، أو اختلاط وإختمار) ومن موط هذا خرج أصل كل ولادة، وتناسل كل شيء فوجدت حيوانات معدومة الحس، وقد أبرزت موجودات فاهمة فسمّوها "صفاسيم" –أي ناظرة السموات– وربما المقصود بها أو منها البشر، وكانت هيئتها كهيئة بيضة، وعند ذلك سطع موط والشمس والقمر والنجوم والكواكب الأخرى (٤٤).

وفي العقائد الصينية فإنه قبل خلق العالم لم يكن هناك شيء على الإطلاق، واستمر ذلك وقتاً طويلاً، ثم ظهر شيء، ومن هذا الشيء خلق (بان

كو) وعندما تجمعت أنفاسه صارت ريحاً وسحباً، وأصبحت أناته الأخيرة الرعد، وأصبح الدم في عروقه الأنهار، وعرقه الأمطار، وعظامه الصخور،وأسنانه المعادن،وشعره الغابات والأشجار ولحمه الأرض ورأسه الجبال وأصبحت عينه اليسرى الشمس وعينه اليمنى القمر أما الحشرات التي كانت تعلق في جسمه فأصبحت آدميين (٤٥).

مقابل ذلك فإن الفكر الديني قد أولى مسألة خلق الكون عناية خاصة لتفرد لها ضمن نصوص الكتب المقدسة فصولاً خاصة تعد من موارد الاستدلال على مصدرية الخلق، وتعدّ فصول (التكوين) في الكتاب المقدس بشكل خاص المصدر الحيوي، والتي يمكن من خلالها –مع ما يرد في السور القرآنية – التعرف على عالم الملكوت الإلهي، وما يكون فيه من معالم التدبير أو الإدارة الكونية وملاكها، والذي هو من السعة والشمول ما لا تقارن به وظائف التدابير (الإدارة) في ممالك الأرض وقد رأينا أن نفرد موضوعاً خاصاً عن ذلك لا نزال نستجمع مادته من كثير من المصادر نتمنى أن نوفّق لإنجازه في مقبل الأيام.

يروي لنا الكتاب المقدس (العهد القديم) قصة خلق السموات والأرض في ستة أيام، متوافقاً في ذلك مع ما يرد في القرآن الكريم ومختلفاً في شيء من ذلك مع الفكر الصابئي وحيث :

(خلق الله في البدء السموات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه القمر ظلمة، ووجه الله يرف على وجه الماء... وقال الله ليكن نور فكان نور، ورأى الله النور أنه أحسن، فأمضى أوامره لبناء الوجود يوماً فيوماً (معماراً كاملاً لا يرقى إليه أي معمار يمكن تخيله من صنع الإنسان على الأرض) وعلى وفق الآتي:

في اليوم الأول: فصل الله بين النور والظلمة ودعا الله النور نهاراً والظلمة ليلاً وكان مساء وكان يوماً واحداً.

في اليوم الثاني: قال الله تعالى ليكن جلد في وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد، وكان ذلك، ودعا الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً.

وفي اليوم الثالث: قال الله تعالى لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة وكان كذلك ودعا الله اليابسة ومجمع البحار بحاراً ورأى الله ذلك أحسن وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبرز بزراً وشجراً إذا أثمر يعمل ثمراً كجنسه وشجراً يعمل ثمراً بزره كجنسه ورأى الله ذلك أحسن وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً.

في اليوم الرابع: قال الله تعالى لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وسنين، وتكون أنواراً في جلد السماء لتنير على الأرض، وكان ذلك فعمل الله النورين العظيمين والنور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل (الشمس والقمر) وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض، ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة ورأى الله ذلك أحسن وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً.

اليوم الخامس: قال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طير على وجد جلد السماء فخلق الله التنانين وكل ذرات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه، ورأى الله ذلك انه أحسن وباركها الله قائلا أثمري واملئي المياه في البحار وليكثر الطير على الأرض وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً.

في اليوم السادس: قال الله لتخرج الأرض ذوات الأنفس حية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها وكان ذلك، فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها والبهائم كأجناسهم وجمع دبابات الأرض كأجناسها، ورأى الله ذلك أنه حسن، وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا على سمك

البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى جميع الدبابات فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة خلقه ذكراً وأنثى، خلقهم وباركهم، وقال الله أنى أعطيتكم كل بقل يبرز بزراً على وجه الأرض، وكل شجر فيه ثمر لكم يكون طعاماً، ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء، وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاماً، ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن، وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً (التكوين ٣:٤).

فأكملت السماوات والأرض وكل جندها،وفرغ الله في اليوم السابع، وقدّسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمله الله خالقاً(التكوين ٢:٥)، وفي ذلك ندرك مغزى تقسم أيام الأسبوع إلى سبعة أيام واستراحة الإنسان في آخر يوم منها.

والآن... وبعد أن أدلى العهد الجديد من الكتاب المقدس بشهادته حول خلق السموات والأرض وما فيهما، وخلق الإنسان ليكون الوارث المدبر والمسخر لما في هذا الكون تحقيقاً لإرادة الله في خلقه، فكان لنا أن نستطلع ما أفادت به سائر الكتب المقدسة حول ذلك.

الملاحظ أن العهد الجديد من الكتاب المقدس لم يشأ أن يورد ما يتصل بمسألة خلق الكون لما أوردناه من كون رسالة السيد المسيح قد انبعثت في الوسط اليهودي الذي أغنته الرسالة الموسوية بالحقائق المتصلة بالسلوك الإيماني المتفق مع جوهر الشرائع السماوية، فيما وردت الإشارة في أعمال الرسل لبعض الحقائق المتصلة بمسألة خلق الإنسان سنوردها عند الحديث عن ذلك.

وفي القرآن الكريم فإن نصوصه قد أشارت إلى فترة خلق الكون طبقاً لما ورد في الكتاب المقدس:

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ

الْعَالَمِينَ)(الأعراف: ٥٤).

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) (يونس: ٣).

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) (هود: ٧).

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً) (الفرقان: ٥٩).

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) (ق: ٣٨).

وتجمل آيات أخرى فترات الخلق وموارده بقدر أوجز مما ورد في الكتاب المقدس:

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ(١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ).

(أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا(٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا(٢٨)وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩)وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا(٣٠)أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) (الذاريات:٢٧-٣٠).

وعن تعيين أيام خلق السموات والأرض ورد في التفسير أن اليهود أتت النبي محمد ﷺ فسألته عن خلق السموات والأرض فقال:

"خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال وما فيهن من المنافع يوم الثلاثاء، وخلق الشجر والماء والمدائن والعمران والخرائب يوم الأربعاء، فهذه أربعة، فقال تعالى:

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (فصلت: ٩).

وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والقمر والملائكة".

وقد اختلف المفسرون في أن خلق السماء مقدم على خلق الإنسان أو مؤخر ونقل الإمام الواحدي عن مقاتل الأول وأختاره المحققون ولم يختلفوا في أن جميع ما في الأرض مما ترى مؤخر عن خلق السموات السبع فحينئذ يجعل الخلق في الآية بمعنى التقدير لا الإيجاز أو بمعناه وتقدر الإرادة فيكون المعنى المراد خلق ما في الأرض جميعاً ولا يخالفه.

(وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) (النازعات: ٣٠). فإن المتقدم على خلق السماء إنما هو تقدير الأرض وما فيها، أو أراد إيجادها، والمتأخر عن خلق السماء إيجاد الأرض وجميع ما فيها، وفي قوله:

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (فصلت: ٩).

أراد إيجاد الأرض وما فيها من الرواسي والأقوات في أربعة أيام، ثم قصد إلى السماء فتعلقت إرادته بإيجاد السماء والأرض فأطاعا بأمر التكوين فأوجد سبع سموات وأوجد الأرض وما فيها في أربعة أيام(٤٦).

ويورد الفكر الصابئي بيانات عن خلق الكون لا تتماثل في جانب منها بالكلية مع ما توافق عليه الكتاب المقدس والقرآن الكريم خاصة فيما يتعلق بنوع الكائنات وتدرج عملية الخلق، إلا أنها تقرر حقيقة أن الله قد خلق بالفعل عوالم سبعة تستمد نورها من الشمس ومن ضمنها عالم الأرض في خضم عوالم لا تعد مملوءة بالنفوس المقدسة، حيث أن المخلوق الأول لله كان شخصاً روحانياً يدعى: (هيي قدمايي – أي الحي القديم – أو الحياة الأولى)، وقد خلقه الله وخلق معه عوالم كثيرة مملوءة بالنفوس المقدسة التي لا تحصى، ثم خلق الحي الثاني: (هيي ثنياتي– أو الحياة الثانية) وخلق معه كذلك عوالم لا تعد مملوءة بالنفوس المقدسة،

فخلق (هيي ثلثياتي -أي المخلوق الثالث- أو الحياة الثالثة) وخلق معه ما خلق مع سابقيه وهذه النفوس التي تقطن هذه العوالم ينقسمون إلى قسمين حسب رتبهم (عوام، وملوك).

ويسمى الأول (أثري) والثاني (ملكي) ثم خلقت سبعة عوالم تدعى (آلمي دهشوخا) أي عوالم الظلام التي تستمد نورها من الشمس وسكانها بين قسمين أيضاً (عوام، وملوكي) (أثري ملكي) وأن أرضنا هي ضمن هذه العوالم السبعة، أما هيئة الأرض عندهم فهي: (مدورة ثابتة، غير متحركة)، وتحت الأرض انبسطت عليه وأن السماء تتكون من سبع طبقات تقع الشمس في الطبقة الرابعة والقمر في السابعة والأرض والسماء مركبتان من مادتين هما الماء والغاز ومن هاتين المادتين تكونت الأرض والسماء، وكذلك جميع المخلوقات الحية فإنها تمتاز بأربع طبائع أخرى هي الصفراء والسوداء والبلغم والرطوبة(٤٧)
وفي نصوص كتابهم المقدس (كنزاربا) يرد فيما يخص نشأة الكون:
(وأعطى ماء الحياة الذي يروي العالم كله)
(وأوجدت الحيوانات والدواب والطيور الجميلة كل أصنافها ذكراً وأنثى)
(وهبت سائبة لآدم وذريته)
(ووهبت الرياح أربعة ونسيم تنسمه الدنيا) (٤٨).

وفي ترجمة الخليقة من(ريك فيدا Rigveda)من كتاب العقائد الهندوسية نقلت إلينا النصوص التالية وهي تشير إلى قصة الخلق :

(لم يكن حينئذ ما لا وجود له، ولا ما هو موجود، لم يكن هناك منطقة هداء لا من وراءها سماء لم يكن يومئذ موت ولا خلود، ولم تكن علاقة تفصل بين الليل والنهار، ذلك الأوحد الذي لا يتنفس تنفس بطبيعته الخاصة وما عداه لم يكن شيئاً أبداً).

(كان ظلاماً، وفي البدء اختفى هذا الكل الهيولي الذي لا يميز كل الوجود،

كان وهماً لا شكل له، وبقوة الدفء العظمى ولدت تلك الوحدة، ثم نشأت الرغبة في الرغبة المبتدئة، البذرة الأولى والنطفة للروح، والحكماء الذين بحثوا في قلوبهم علاقة الوجود بالذي لا وجود له، وعرضاً امتد خط تقسيمهم فماذا كان فوقه وماذا كان تحته وجد الوالدات ووجدت الطاقات العظمى، تعمل حرة على الأرض وقوية في السماء).

"ومن يعلم حقيقة هذه الخليقة، ومن يستطيع أن يجد من أين جاءت إن الآلهة جاءت بعد أن أوجدت هذه الدنيا فمن ذا الذي يعلم كيف جاءت الدنيا إلى الوجود".

"هو الأصل للخليقة، سواء كان هذا الذي أنشأها جميعها، ولم ينشئها الذي عينه تحكم هذا العالم من علياء السماء، هو يعلم حقيقتها أو ربما لا يعلمها".

والنصوص الهندوسية الحالية كما يذكر (براهما – أبو الآلهة) هو منشئ الكون وحارس العالم وقد جاء في الملحمة الهندوسية (المهابارتا) أن براهما خرج من سرة الإله فشنو، وأنه لما كانت الأرض غارقة بالمياه فقد اتخذ شكل الخنزير البري، وفي كتابات هندوسية متأخرة أن الذي قام بهذا التحول وتجسد في هيئة خنزير بري هو الإله فشنو وأنه غاص تحت الماء ليرفع الأرض على نابيه، ثم باشر براهما بعد ذلك عملية الخلق [٤٩].

وفيما يبدو مما مر تغلب النزعة الطبيعية في تفسير الخلق، فإن ثمة إشارات إلى كون الفكر الهندوسي قد تطور بعدئذ متأثراً بالنظرة الصوفية وقد لحق الإله هذا التأثير الذي بدأ في(الأوبانيشادة سفيسفترا Svetasatara) وفكرته تقوم على تصور الإله السامي العظيم وهي فكرة دينية تقوم على التجريد والاعتراف بالوحدانية كما ذكر، وما نقل من الجزء (٢–٦) منها ما يفيد الغرض المذكور:

(قدس القداس الأعظم،

حاكم الحكّام الكبير المتعالي
دعنا نعرف أن الرب المعبود رب العوالم
هو العلة ،رب أرباب حواس الأعضاء
لا أب له ولا رب، الله الواحد، الكامل في كل شيء
مراقب الأفعال، قائم في كل شيء
الذي هو خالق كل شيء، والمحيط بكل شيء مصدر نفسه
هو حاكم المادة الأصلية، وحاكم الروح، وسيد الصفات
إليه الذي خلق براهما قديما
والذي هو.. الذي أعطاه الفيدات
إلى هذا الإله الذي يضيء بفعله هو
حينما يطوي الناس في الفضاء
كما لو كان قطعة من الجلد
حينئذ يكون نهاية البشر
ما عدا معرفة الرب) (٥٠).

ومن ذلك الكتاب الذي يقول عنه (ول. ديوارنت):

"أنه أقدم كتاب ظهر بين أشد الشعوب تمسكاً بالدين"، أورد من ترنيمة الخلق ما يفيد في إدراك منحى التوحيد الإلهي وتصور مبدأ الخلق في آن واحد:

(الواحد الأحد، لم يكن هناك سواه
ولم يوجد سواه منذ ذلك الحين حتى اليوم
كانت هناك ظلمة، وكان كل شيء في البداية تحت الستار
من ظلام عميق- محيط بغير ضياء-
والجرثومة لم تزل كامنة في اللحاء
برزت طبيعة واحدة من الحر والحرور

ثم أضيف إلى الطبيعة الحب، وهو الينبوع الجديد
للعقل – نعم إن الشعراء في أعماقهم يدركون
إذ هم يتأملون هذه الرابطة بين خالق
وعالم لم يخلق، فهل جاءت هذه الشرارة من الأرض
تتخلل في كل شيء، أم جاءت من السماء.. ؟
ثم بذرت الحبوب ونهضت جبابرة القوى
فالطبيعة هي في أسفل، والقدرة والإرادة أعلى.
من ذا الذي يعلم السر الدفين؟ من ذا الذي أعلنه هاهنا؟
من أين، من أين جاءت هذه الكائنات على اختلافها؟
إن الآلهة أنفسها صارت متأخرة في مراحل الوجود
من ذا الذي يعلم أنى جاء هذا الوجود؟
إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم
سواء خالقه بإرادته، أو صدر عنه وهو ساكن
إنه هو ربنا الأعلى في السموات العلى
إنه يعلم السر– بل لعله لا يعلم من السر شيئا

وأن هنا الأمر وفق ذلك التصور قد لبث كما يذكر حتى أدركه مؤلفو أسفار (يوبانشاد) فتناولوا هذه المشكلات بالحل(٥١).

وعلى خلاف ذلك الافتراض الروحي الذي يعد ثورة في الفكر الهندوسي مقابل ما نراه من الطقوس التي تشيع في واقع الحياة في الهند ومنها ما تذكره موسوعة الأديان في العالم مما يتنافى مع المنحى التوحيدي فإن (الجانستية) وهي ديانة كالبوذية قامت على خلاف النزعة البراهمتية على أساس الافتراض المادي لنشأة الكون، حيث ترى أن المادة ذرية في تركيبها، وأنها لا تُفنى، وأن الزمن لا يُفنى كذلك وإنما يمر بدورات لا يدركها العقل طولاً، وكل دورة ترتفع رويداً إلى

ذروة من الخير ثم تنحدر من فلك لآخر يتردى باستمرار في الشر قبل أن تأخذ دورة في فلك جديد للخير، وتستغرق هذه الدورة ملايين ملايين القرون، وان من البديهيات الأولية إن جميع الأشياء الحية قابلة للتجسد، وأن قانون العمل (كارما) يتحكم في كل حياة... وأن الهدف الأسمى لجميع المخلوقات هو بلوغ انعدام الخلقة في مبدأ الخلود (نيرفانا) ومن أقوالهم في ذلك:

(إن كل الأشياء خالدة بطبيعتها) ومثل ذلك التصور ما تذهب إليه البوذية بالقول بأن ناموس الطبيعة ليس بخاضع لذات قدسي، بل انه مستقل لذاته ولا يتأثر بمؤثر بشري وإلهي.

وبالنسبة للزرادشتية فإن زرادشت قدم في مناظرته مع الكهنة وبحضور الملك كشتاسب تصوره الفلسفي لنشأة الكون وصراع الخير والشر فيه، حيث أفاد بأن الخالق (أهورافردا) إله الحكمة والحاكم الأسمى للعالم، وأن دورة العالم استمرت اثني عشر ألف سنة، وفي أثناء الآلاف الثلاثة الأولى كان هناك عالمان متجاوران هما: (عالم أهورامزدا–عالم النور– وعالم أهرمان عالم الظلام) وكان العالمان متناهيين من جوانب ثلاثة،ولكن كلا منها يجد الآخر من الجانب الرابع، وعالم النور في الجانب الأعلى وعالم الظلمات في الجانب الأسفل، وبينهما فراغ مملوء بالهواء.

وقال (أهورامزدا) لأهرمان أن طرقك لا تتفق وطرقي،وأفكارك لا تتفق مع أفكاري، وأعمالك ليست أعمالي، فلنفترق.

وكان أهورامزدا يعلم المستقبل فعرض على أهرمان حقبة من الحرب طولها تسعة آلاف سنة وقبل أهرمان العرض وهو لا يعرف غير الماضي وعندئذ قال أهورامزدا بأن الجولة ستنتهي بهزيمة عالم الظلمات وفزع أهرمان ولم تنته إلا وهو يسقط في الظلمات، ويقضي فيها مشلولاً لمدة ثلاثة آلاف سنة، ثم بدأ أهورامزدا –روح الخير– يخلق أرواحاً طيبة تنسجم مع طبيعته ليستعين

بها في مقابلة روح الشر أهرمان.

وعلم أهرمان بذلك فخلق أرواحاً شريرة من جنسه ليقاوم بها الأرواح الخيرة ثم خلق أهورامزدا النجوم والكواكب وانتهى من خلق الأرض وعندما انتهى من ذلك جعل الأرض حاجزاً بينه وبين أهرمان وأعوانه ولكن أهرمان شق الأرض وأخذ منها فجوة فجمع بداخلها أعوانه الشريرين،ثم صارت ميداناً للصراع بين القوتين... وعندما أتم خلق الأرض، خلق الثور الأول، ثم الإنسان الأول (كيومرد) الذي هو أول البشر وعندئذ ألقى أهرمان بقوته ضد خلق أهورامزدا فنجّس العناصر وخلق طوائف من الزواحف والحشرات،وأقام أهورامزدا خندقاً أمام السماء، ولكن أهرمان كرر هجماته ونجح أخيراً في قتل الثور كيومرد- أول البشر-(٥٢).

وعلى ذلك يبدو أن زرادشت قد خالف في هذا التصور لخلق الكون الديانات السماوية التي لا تقر بصورتين للخلق، الخلق الخير والخلق الشرير، ولا الشراكة في خلق الوجود الكوني كمثل ما كان بين أهورامزدا وأهرمان وهو ما يتعارض مع وحدة خلق الكون وما فيه من موجودات، ولا مع وجود كائن أو مخلوق بشري آخر أعقب قتل أول الخلق كما سيلي بيانه.

خلق آدم... وما كان من أمره

كما مر من العرض لخلق الكون في الكتاب المقدس، فإن المخلوق الأول -آدم- كان في اليوم السادس من أيام العمارة الكونية و"أنه أعقب خلق الأرض وأجناسها وثمارها لتكون في خدمة الإنسان الذي خلق على صورة الله وشبهه ليتسلطن على كل الأرض وجميع ما يدب عليها وعلى صورته خلق ذكراً وأنثى وبارك الله خلقهم وأجاز لهم أن يثمروا ويُكثروا ليملؤوا الأرض ويستعمروها وأن آدم قد أسمى امرأته حواء لأنها أم كل حي (تكوين ٣:٤).

وذلك الإيراد لقصة الخلق الإنساني يناظر ما ورد في القرآن الكريم مع ذكر اعتراض الملائكة على خلق آدم كونهم قد أدوا واجبهم في خدمة الملكوت الإلهي،وأنهم الأجدر في أن يتولوا هذه المهمة حتى على الأرض، ذاكرين أن بني آدم سيفسدون في الأرض ويسفكون الدماء فيما هم يسبحون بحمد الله ويقدسونه، وأقر الله بأن هذا المخلوق من شأنه أن يعلم من أسرار الحياة ما لا يعلمونه،وأذعن الملائكة في نهاية الأمر بعد أن أنبأهم آدم بأمر من الله علمه بما لم يعلموه:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ).

وفيما ما أجاز الله لآدم وزوجته حواء أن يعيشا رغدا في الجنة - يأكلان من ثمارها ما خلا شجرة واحدة نهاهما عنها- فكانت لهما في إقامتها فيها

كل عوامل الحياة ما نوه القرآن الكريم:
(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى). غير أن الشيطان أغوى آدم وحواء أن يأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها، وقد صور الكتاب المقدس إبليس بـــ(الحية) التي قالت للمرأة:

(لن تموتا بل الله أعلم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين بالخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون، وان الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا فأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر) (تكوين ٣:٣).

وفي هذا الوصف لإغراء إبليس ما يتوافق مع ما ذكر القرآن الكريم فيما لم يذكر القرآن كون إبليس تمثل بصورة حية فيما يشير إلى حقيقة عريهما حتى بدت سوأتهما وأنها بعدئذ (وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ)(الأعراف: ٢٢).

ويفصل الكتاب المقدس ما كان من اكتشاف الله لأمر آدم الذي اختبأ من وجه الرب الإله في وسط الشجرة فنادى الرب الإله آدم وقال: أين أنت، قال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت، فقال: من أعلمك أنك عريان، هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها، فبرر آدم فعلته لأن امرأته هي التي أعطته ليأكلا، وهو ما لم يأت النص القرآني على ذكره، ولا ما كان من وعد الله للمرأة جراء انقيادها لإغراء الشيطان وحثها لآدم للأكل من الشجرة الممنوعة،حيث أعلن الرب أن جزاءها الأرض: "تكثيرا أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدن أولادا من رجلك يكن اشتياقك وهو يسود عليك ثم لم ليكون جزاء آدم وهو يسمع لقول امرأته ويأكل من الشجرة": "ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشر الحقل

بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب والى تراب تعود" (تكوين ٣: ٤).

والقرآن الكريم يذكر قصة هبوط آدم إلى الأرض وما يكون في طلبه التوبة، وقبول الله لتوبته وما يلحق به من عذابات الصراع المرير بين أولاده:

(وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).

وعند التعرض لجملة الآراء حول طبيعة الجنة التي كان فيها آدم وهبط منها، يذكر العلاقة الآلوسي: أن ثمة من حمل "الهبوط" على الانتقال من بقعة لأخرى كما في: (اهْبِطُوا مِصْرًا)(البقرة: ٦١) .أو على ظاهره، فيما قالوا أنه لا نزاع في أنه تعالى قد خلق آدم في الأرض ولم يذكر في القصة أنه نقله إلى السماء: (ويؤيد ذلك ما ورد في سفر التكوين عن خلق اليوم السادس) ولو كان نقله إليها أولى بالذكر.

ويخلص مع إيراد سلسلة من الشواهد القرآنية إلى القول: إن الأدلة في ذلك متعارضة،وأن الذي ذهب إليه ساداتنا الصوفية أنها في الأرض عند جبل الياقوت تحت خط الاستواء ويسمونها جنة المروج، وهي الآن -كما تقول- موجودة وأن العارفين يدخلونها اليوم بأرواحهم لا بأجسامهم، ولو قالوا أنها جنة المأوى[٥٣].والواقع أننا نقرأ في القرآن عن وصف خبات في الأرض يتكرر في آيات كثيرة وفي سور شتى، ولو كنا نتجارى في هذا الموضوع -تأييداً أو نفياً- لأدخلنا ذلك في جدل طويل، لا طائلة منه، ومثل ذلك ما يقال عن خلق آدم وحواء سوية، أو بالانفراد، أم خلقت من ضلع آدم، أو.....

وقد أنحى القديس الرسول بولس باللائمة على آدم في الخطيئة التي قال أنها أدخلت الموت الذي سرى إلى جميع البشر:

(والخطيئة دخلت إلى العالم بإنسان واحد، وبالخطيئة دخل الموت، وسرى الموت إلى جميع البشر لأنهم كلهم خطئوا وأن الموت قد ساد البشر من أيام آدم إلى أيام موسى، حتى الذين ما خطئوا مثل خطيئة آدم وكان آدم صورة لمن سيجيء بعده)(روقيه ٥:١٢-١٤).

وفي الفكر الصابئي في قصة خلق آدم -مما ذكره السيد عبد الرزاق الحسيني-ما يتماثل مع مجمل ما ورد في الكتاب المقدس والقرآن الكريم في ذلك فإن آدم (كفر قدمايا) -أي أول- أو (آدم يغره) -أي آدم المادي- قد خلقه الله في الأرض لما أنزل (ابتاهيل) وهو ابن (هيبل زيوا) -أي جبرائيل- إلى الأرض فخلقه تشبيهاً على صورته من التراب، وخلق من ضلعه الأيسر زوجته حواء،ثم أنزل الروح القدس في جسمي آدم وحواء.

وعلم الملائكة آدم كل ما في الدنيا من صنائع ومهن وإجراء المياه، ووضع عدد السنين والأشهر والأيام والأوقات وغير ذلك،وذلك خلاف ما ورد في الكتاب المقدس والقرآن الكريم من أن الله هو الذي علم آدم ذلك وأنزلت عليه الكتب المقدسة التي فيها فروض العبادة بأنواعها، ثم أمر الملائكة النار بالسجود لآدم فسجدوا إلا (هاوبشه) وهو إبليس إذ قال خلقني الله من نار وخلق آدم من تراب فكيف أسجد له؟ فلعنه الله وطرده من الجنة ثم جرى التناسل بين آدم وولده)[٥٤].وقد ورد في بعض النصوص الصابئية مثل ذلك:" وكشف المعرفة لآدم وزوجته وذريتهما".

"وأمروا أن اتخذوا لأنفسكم أزواجاً كي تعمر وتكبر الدنيا بكم". وللقارئ أن يقارن بين هذا الذي ذكر عن خلق آدم في الصابئية، وذلك الذي سبق ذكره عن ذلك في الكتاب المقدس والقرآن الكريم.

وبالنسبة للزرادشية فإنها تقر كما سبقت الإشارة بأن الإنسان قد خلق من قبل (أهورامزدا) -إله الخير- بعد أن أتم خلق الأرض وخلق الثور الأول،وأن

أهرمان أثناء هجماته على أهورامزدا قد نجح في قتل الثور كيومرد أول البشر، فيما كانت بذور كيومرد مخبأة في الأرض فنتج عند انقضاء أربعين سنة شجرة خرج منها أول زوجين من بني آدم.

وهكذا بدأت فترة اختلاط الخير بالشر وأخذ الشر يلعبون دوراً في الحرب بين مملكتي النور والظلام(٥٥).

وفي هذا التصور ما يخالف عقيدة الأديان السماوية في خلق الإنسان كما مر ذكره، وفي ثنايا المواضيع الأخرى مرت علينا أفكار خاصة بمسألة خلق الكائن الإنساني، وتصورات الأديان غير السماوية عنها وصلة ذلك بالآلهة وبطبيعة كل مخلوق في الكون والتصورات الخاصة بنشأته وفي معتقدات شتى لا نروم التوسع بشأنها.

الملائكة وإبليس

في الحديث عن الملائكة وإبليس في الكتب المقدسة ما يشير إلى حقيقة كون (عالم الله) كما أسماه (بلي جراهام) كان عالماً منقسماً إلى مناطق نفوذ يخضع كل منها لإشراف أحد الملائكة ورئيس سماوي مسؤول مباشرة أمام الله، ويخبرنا بولس عن عروش، وسادات ورياسات وسلاطين في العالمين المتطوّر وغير المتطوّر إذ يرد ذكر الملائكة ورؤساء الملائكة في عدة مناسبات تبين أنهم خاضعون لترتيب معين كما كان بعضاً منهم يفوق بعضاً في القوة والسلطان، ويقال أن(ميخائيل) هو رئيس الملائكة[٥٦].

ويورد التلمود نبذاً عن وظائف الملائكة منها:

(حفظ الأعشاب التي تنبت وجلب النوم للإنسان ليلاً)، ويقول التلمود أن (ميتاترون) هو رئيس الملائكة، ملكاً آخر يُسمى(أمبائيل) ضُرب بالنار، وأن جبرائيل وحده يعلم بكل اللغات وهو علّم يوسف كل لغات الدنيا السبعين، وأن باقي الملائكة فهي لا تفهم اللغة السيريانية، ولا الكلدانية وأن جهل الملائكة هاتين اللغتين مرجعه كما يُذكر أن لدى اليهود صلاة يؤدونها باللغة الكلدانية وأن الملائكة يجهلون هذه اللغة حتى لا يَحسدون اليهود على صلاتهم.

وبالنسبة للتقسيم الوظيفي يرد في التلمود أن (جركيمو) ملك البرد وميكائيل للمياه، وجبرائيل للنار،وإنضاج الثمار[٥٧].

وفي الصابئية نجد ما يفيد خلق الملائكة في العالم الكوني،وأنهم أسهموا في عملية خلق العالم، فإنه لما تم خلق الأرض أُنزلت الملائكة من عالم الأنوار (آلمي دنهورا) بذوراً للأشجار وفتحت طريقاً للهواء،ولماء الحياة الذي تقوم عليه الأجسام الحية،وفتحت طريقاً آخر للنور تستمد منه الشمس أشعتها لتنير بقية الكواكب، وينوّه الباحث (خزعل الماجدي) في دراسته عن جذور الديانة المندائية

إلى:أنه قد تم تصور الآلهة جميعاً على أنها كائنات مُشعة يصدر عنها الضوء، وهو نفس التصور الذي اتفقت عليه الديانات التوحيدية للآلهة في صورة الملائكة، وهو ما ينطبق على التصور الصابئي حيث يوصف الرب بأنه الحي ويدل على أنه ملك عالم الأنوار (آلمي دنهورا)، ويلقب أحياناً بملك الضوء (ملكي زيوا)، الذي يُسيطر على قوى النور العشرة وتنحدر عنه الحيوانات النورية الأربعة، ويسيطر النور على الحياة الأولى والتي يرى فيها (مزداهي وياورزند) وهو ضوء النور مع (٨٠٠ ملاك نوراني) وأن احتشاد-الملائكة كائنات النور في الدين الصابئي- يعطينا فكرة أساسية هي أن الملائكة كانت قبل التوحيد آلهة، وأنها كانت كائنات نورية[٨٥].

وفي النصوص الصابئية تجسيد لذلك:

(تسبح ملائكة النور لملائكة النور الذي وهبها إياه)

(تسبح ملائكة الضياء برداء الضوء الذي وهبها الله أياه).

وتحتل الملائكة حيزاً واسعاً في النصوص القرآنية وما يختص بشأنها يماثل ما يرد في الكتاب المقدس،ومن المضامين الكلية للبلاغ القرآني ندرك أنهم الأجزاء الحيوية في منظومة الحرس الإلهي، والكتبة الحافظين الذين يقفون عن يمين العرش الإلهي بين جنبات السماء والأرض يملؤونها (شهباً وحرساً شديداً) فلا يدعون شاردة ولا واردة إلا ويثبتون وقائعها في تقارير مفصلة تُرفع إلى المقام الإلهي، كما تبرز مهمة تقسم العمل بين الملائكة ما بين عالمي السماء والأرض، وهي الوظيفة التي يرى دارسو الإدارة الحديثة أنها من ثمرات النهضة الصناعية الحديثة في عالم الأرض ولنقرأ في ذلك:

(وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)(الزمر: ٧٥).

(وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) (الحاقة:١٧).

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)(السجدة: ١١).

(عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (التحريم: ٦).

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ) (الرعد: ٢٣).

وترى جلال ذلك الاستعراض الملائكي أمام الله يتجسد فيه معاني الولاء والطاعة والامتثال:

(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) (النبأ: ٣٨).

وفي هذا ما يصدق وصف الأستاذ عبد الله يوسف للملائكة في ترجمته للآية القرآنية (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) بأنهم الجنود الممتثلون لربهم The Commands of Their Lord[٥٩]. وفي القرآن ما يثبت كون الملائكة رُسل الله لأغراض شتى:

(جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا)(فاطر: ١).

(وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ) (البقرة: ٢٤٨).

(فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى)(آل عمران: ٣٩).

وقد ورد ذكر ذلك في الكتاب المقدس:

(الملائكة تبشر زكريا بميلاد يوحنا) (لوقا ١:٥-٣٢).

وللملائكة بعد ذلك دورهم في التبليغ الرسالي،فهم رسل الله بينه وبين أنبيائه، ومن أرسلت إليه من عباده، إذ أصل الملائكة الرسالة[٦٠].

وعن ماهيتهم يذكر الفخر الرازي في تفسيره إن قول أكثر المسلمين إنها أجسام لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة مسكنها السماوات[٦١] وفي القرآن ما يثبت هذا التشكل الهوائي:

﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(فاطر: ١).

وبالنسبة للأديان غير السماوية فإن ظاهرة الملائكة تتفاوت في الإدراك حسب ما يتضح في نظام آلهتها، فبالنسبة للهندوسية فإنه حيث يُعد براهما هو الخالق، فإن كلا من فيشنو وشيفا وأتباعهم من الآلهة يُعدون بمثابة الملائكة المدبرين الذين يختص كل منهم بمهمة كونية محددة حيث حددت لكريشنا وراما وبودا وكاليكي مهمات ووظائف هي موجودة من أجل إحلال صفته الربانية في النفوس، ومحاربة الشراهة والهم، والنفس الخبيثة، كما ذكر وذلك بواسعة تعاليمهم التي تحث على السلام والمثل الرفيعة في الحياة.

وفي الزرادشتية فإن تلك الكائنات التي تحتشد مع أهورامزدا عالم النور في مقابل أهرمان عالم الظلام أو الشر يمكن تمثلها على أنها ملائكة.

وبالنسبة لإبليس ترد الإشارة إلى أنه كان في الأصل اسمه (غزازيل Azazil) وأن بعض الباحثين يرى أن كلمة إبليس هي تحريف للكلمة اليونانية (Diabolos) بمعنى الشيطان (Devil) أو كلمة شيطان (Satan)العبرية،وأن إبليس يتخذ عرشه على الماء، ومن هناك يرسل الشياطين لفتنة البشر، وتكون المكافأة متناسبة مع مقدار الفتنة، وأنه قد أنجب من الشياطين الأبطال خمسة لكل منهم تخصصه في أعمال الشر وإثارة الفتن وهم:

١- تير Teer :المتخصص في جلب المصائب والكوارث والخُسران.

٢- الأعور: ويقوم بتشجيع الناس على حياة الفسق والفجور ويجمل الزنى في عيونهم.

٣- مبسوط Sot-Sut: المتخصص في حث الناس على الكذب وتزيينه لهم.

٤- داسم أو دادسم Dasism:المتخصص في إثارة الفتنة والنزاع بين الرجل وزوجته.

٥- زلبور Zalboor: وهو الذي يحوم حول التجمعات كالأسواق ليثير الفتنة بين أهل السوق.[٦١]

وقد تحدث الكتاب المقدس عن إبليس على أنه شخص يسيطر على الأرواح الشريرة التي تحاول بدورها أن تهيمن وتضبط كل نشاط بشري، وأنه رئيس سلطان الهواء والروح الذي يعمل الآن في إثارة المعصية (أفسس ١:٢) فهو يقابل أهرمان في الزرادشتية.

ويحذر الكتاب المقدس من إبليس:

(فأصبحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمساً من يبتلعه هو)(بطرس ٥:٨).

ويطلق العهد الجديد من الكتاب المقدس على إبليس اسم"المجرّب" ويورد في ذلك قصته مع السيد المسيح حيث: قاد الروح المقدس يسوع إلى البرية ليجربه إبليس، فصام أربعين يوما وأربعين ليلة حتى جاع، فدنا منه المجرب، وقال له:

(إن كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة أن تصير خبزاً، فأجابه: يقول الكتاب ما بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكلمة تخرج من فم الله)....

وأخذه إبليس إلى المدينة المقدسة فأوقفه على شرفة الهيكل وقال له:

(إن كنت ابن الله فألق بنفسك إلى الأسفل، لأن الكتاب يقول: يوصي ملائكته فيحملونك على أيديهم لئلا تصدم رجلك بحجر فأجابه يسوع: يقول الكتاب لا تجرب الرب إلهك).

وأخذه إبليس إلى جبل عالٍ جداً، فأراه جميع ممالك الدنيا ومجدها وقال له:

(أعطيك هذا كله إن سجدت لي وعبدتني فأجابه يسوع: ابتعد عني يا شيطان لأن الكتاب يقول للرب وحده تسجد وإياه وحده تعبد) (متى ٤:١-١١).

وقد قدم السيد المسيح مثلاً حياً للمقارنة ما بين إبليس والملائكة في تفسيره مثل الزؤان في الحقل:

(إن الحقل هو العالم، والزرع الجيد هو أبناء الملكوت، والزؤان هو أبناء الشرير "إبليس" والعدد الذي زرع الزؤان هو إبليس، والحصاد هو نهاية العالم والحصادون هم الملائكة، وكما يجمع الزراع الزؤان ويحرقه في النار فكذلك تكون نهاية العالم) (متى ١٣:٣٨-٤١).

وتؤيد نصوص القرآن الكريم ما ذكره الكتاب المقدس في شأن إبليس مع آدم وإغراؤه على نحو ما ذكر مع اختلاف في بعض التفاصيل وكذلك فيما يكون لإبليس من دور مستمر في إغراء بني آدم وإغوائهم ليكون سبباً في إجتراحهم السيئات ودفعهم للشرور، مع جملة التحذيرات للإنسان من الوقوع في شباكه وحبائله.

الجزاء.. أو معتقدات الدار الآخرة

تحتل فكرة أو معتقدات الجزاء وترتيباتها المتصلة بالحياة، والدار الآخرة حيزاً واسعاً في التفكير الفلسفي الديني، وفي مراحل متعددة ممتدة من أعماق التاريخ إذ شغل الاعتقاد بالدار الآخرة فكر الكثير من حكماء العهد القديم فيما سمي بـــ(الولادة الجديدة)، فقد كان "بوذا وفيتاغورس" كما يذكر المؤرخ تونيبي: يشتركان في عقيدة هي أن الموت ليس له نهاية بل يتبعه عادة ثانية،وإن هذه السلسلة من الوفاة بعد الأخرى تستمر إلى ما لا نهاية،ما لم يتخذ إجراء صارم لكسر هذا الطوق المحزن، وكان هذا هو الهدف المشترك لهذين الحكيمين وأن الفكرة القائلة بأن التواتر هو أساس الإيقاع في الكون تظهرها الظاهرة المألوفة، توالي الليل والنهار، وتوالي الفصول في سلسلة معينة سنوياً، واستبدال جيل بآخر، وأن الاعتقاد بالولادة الثانية يتميز عن الاعتقاد بالتكرر(٦٢).

ولقد كان للبعث معنى آخر عند شعوب الشرق الأدنى القديمة وفي بلاد الرافدين متمثلاً في أسطورة تموز إله الخصب الذي قتلته عشتار ثم أعادته للحياة وفي أسطورة أوزيريس الذي قتله أخوه سيت فأعادته زوجته إيزيس للحياة.

ولكن فكرة البعث بمعناه المعروف، أي قيام الناس من القبور لم تكن معروفة لدى تلك الشعوب،ولم تصبح فكرة البعث في أساس العقائد إلا مع الديانات السماوية وبالنسبة للترتيبات الخاصة بإعداد الأموات للانتقال للدار الآخرة، فإن السومريين كانوا كمثل ما هو الشأن لأقوام أخرى، يدفنون الحاكم في تابوت يوضع في قبو من الحجر ويحاط بعدد من رجالاته وخدمه.

وحرص أهل سومر على تزويد الميت بحاجاته الشخصية، سواء بلفها مع الجثة أو وضعها بجواره داخل التابوت، وكانوا يضعون خارج التابوت قارباً صغيراً مملوءاً أواني فخارية تحوي أنواعاً كثيرة من القرابين، إذ اعتقدوا بأن

الميت سوف يضطر في رحلته إلى العالم السفلي إلى استخدام قارب مزود بأنواع المآكل والمشارب (٦٣).

وقد كانت فكرة الحساب تراود الإنسان وترافق حياته منذ القدم وقد ارتبط هذا الموقف بفكرته عن الآلهة ثم فكرته عن الخطيئة ويذكر الآثاري الفرنسي "جورج كونتيو" بصدد ذلك:أن الفكرة البالية عن الخطيئة في -نواح معينة -كانت مألوفة في كل دين، وأن معرفتنا عن الموضوع لم تأت عن قوائم الخطيئات الشاملة، بل من كتب الاعترافات التي عددت فيها الخطايا، وفي مصر حيث كان الاعتراف مطلوباً في الحساب الأعظم بعد الموت، فإن المؤمن يسلم بدور مضاعف فيطلب من نفسه ألا تغرق بالذنوب أمام الآلهة،وان المصري كان يقدم اعترافه باستعمال صيغة النفي فهو يقول: "لم أفعل هذا أو ذاك"، "لم أفعل شيئا يكرهه الإله"." لم أحاب أي إنسان ضد سيده، ولم أترك أي إنسان خائفاً، لم أقض على حياة في مدينتي قط، لم أرتكب فاحشة في المكان المقدس لإله مدينتي قط، لم أنقص كيل الحبوب قط، لم أسد مجرى الماء الجاري قط" (٦٤).

وتورد موسوعة الأديان في العالم مشاهد من محكمة الموت، أو محكمة الحساب، حيث تم فيها الجزاء للأخيار والأشرار، ففي القاعة السادسة تنعقد المحكمة ويرأسها القاضي الأكبر "أوزيريس" سيد الأمنت -أي الدار الآخرة- وإلى جواره يتربع أنوبيس والإله توت،وحولهما من شمال ويمين اثنان وأربعون قاضياً من الآلهة تكتمل بهم هيئة المحكمة، وهناك في وسط القاعة ميزان توزن فيه الحسنات والسيئات،ويستجوب أنوبيس الميت ويدون توت أجوبته، فمن رجحت حسناته على سيئاته قادته الآلهة المحيطون بأوزيريس إلى جنة الأموات الصالحين حيث يستمتع بالحياة الخالدة، وأما من رجحت مساوئه على حسناته فإنه يسلم إلى الإله معات سيد الأمنت المفترسة والمستلقية تحت قدميه، وهي مستعدة دائما لتمزيق كل محكوم عليه بالعقاب، وهي تثير الرعب بفمها الفاغر

كأتون، ومخالبها الحادة كالسكين،ورأسها المدبب كتمساح،وجسمها البشع كالتنين[٦٥].

أما في بلاد الرافدين فإن الاعتراف كان شاقاً، فلم يكن على المذنب أن يعترف بكل الخطايا التي لم يعلم أنه قد ارتكبها حسب، بل عليه أن يتلو بعض الخطايا الإضافية التي يمكنه أن يفكر فيها خشية أن يكون بعضها في خطاياه الخاصة التي ارتكبها عرضاً أو دون وعي، وكان الاعتراف عن طريق وكالة الكاهن بسبب عدم قدرة التائب على إعطاء نفسه الغفران[٦٦].

ويشبه ذلك كما يبدو ما عرف بعدئذ بــ(التعميد) حيث كان يوحنا المعمدان يمارس هذه المهمة زمن السيد المسيح وكان يقول:

(أنا أعمدكم بالماء من أجل التوبة، وأما الذي يجيء بعدي فهو يعمدكم بالروح القدس والنار) (متى ٣:١١-١٢).

وقد دللت محتويات قبور ما سمي بــ(حضارة أم النار) نسبة إلى جزيرة أم النار – ٢٠ كم إلى الجنوب الشرقي من أبو ظبي- بأن سكانها كانوا قد اعتقدوا بأن الموت لا ينهي الحياة بل ينقلها من العالم الأرضي إلى العالم العلوي، وهذا الاعتقاد متأثر بالمعتقدات العراقية وان الأديان السماوية قد عززت ذلك المفهوم وكرّسته في حياة الإنسان بما يتفق ومنطلقها الأساس ضمن عقائدها.

وبينما تذكر موسوعة الأديان في العالم عن الهندوسية:

"أنها لا تؤمن بحياة أخرى فيها جنه ونار وثواب وعقاب، وإنما تربط معتقدها في مصير النفس بموضوع التناسخ، فالنفس تنتقل من بدن لآخر وأعمال الإنسان هي التي تحدد مصير النفس، فإذا سلك سبيل الخير واتبع الفضائل انعتقت نفسه من دورة الحياة في الإبدال واتحدت بالروح الكلية وإلا تبقى في هذه الدورة متنقلة من بدن إلى آخر".

فإننا نجد في ما تذكره عن "نظام الكرما" من عقائد الهندوسية ما يفيد أن

جميع أعمال البشر الاختيارية خيراً كانت أم شراً لابد أن تجازى بالثواب أو العقاب طبقاً لناموس العدل الصارم، فنظام الكون (إلهي) قائم على العدل المحض، وأن العدل الكوني قضى بالجزاء لكل عمل، وأن في الطبيعة نوعاً من النظام لا يترك صغيرة ولا كبيرة من أعمال الناس بدون إحصاء وبعد إحصائها ينال كل شخص جزاءه عن عمله، ولكن يكون الجزاء في الحياة(٦٧).

وقراءتنا في نصوص المعتقدات الهندوسية تجعلنا ندرك إيمانهم بعالم الآخرة –وبأي شكل وصفوه–:

"المنزلق التائب وهو راغب في الاستقامة يبلغ منطقة العدل حيث يبقى سنين لا حصر لها، وحيث أنه ولد يبدأ حياة أخرى في بيت نقي بين الوادعين السعداء "جنة الخلد" وعلى هذا يجاهد من جديد بأمل أوفى لبلوغ الكمال" (من الباب الخامس – عدم الاكتراث بالتوبة).

" هناك دنيا تختلف عن دنيا الحس فهي أعلى وأعمق وأبعد غوراً لا يبلغها البصر ولا تتغير"، (الباب الثامن – التدين بالنسك).

"الذين لا يحيون حياة دنيوية ولم يدخروا إلا أنفسهم في شبابهم مدخرا يموتون كمالك الحزين على شاطئ بحيرة الأسماك فيه" (الداماپا د–١٥٥). "أبواب الجحيم التي يجتازها الناس على الهلاك ثلاثة: باب الشهوة باب الغضب، وباب البخل" (الباب السادس عشر – الديني والدنيوي) (٦٨).

وللهندوسية كما يذكر إله الموت تسمية (ديفا Diva) ونجد في المقرر التالي من المعتقدات الهندوسية: "ثمرة الأعمال تضاعف ثلاث مرات في الحياة القادمة سواء أكانت حسنة أم سيئة أو مزيجة من كليهما، ولا ثمرة بلا عمل أبداً". مقاربة من مبدأ مضاعفة الحسنات كما ترد في المعتقد الإسلامي مع خلاف في مقدار الجزاء للحسنات: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) (٧:١٦).

ومخالفة لها في عدم مساواة الحسنة بالسيئة بالجزاء أو مزيجيهما: (وَمَنْ جَاءَ

بالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ)(الأنعام:١٦٠).

وكما سبقت الإشارة فإن مفهوم الهندوسية تربط معتقدها بمصير النفس بموضوع التناسخ، فالأنفس تنتقل من بدن إلي آخر، وأعمال الإنسان هي التي تحدد مصير النفس، فإذا سلك سبيل الخير، واتبع الفضائل انعتقت نفسه من دورة الحياة واتحدت بالروح الكلية، وإلا تبقى في هذه الدورة متنقلة من بدن لآخر، ومن هذا المفهوم للموت والنفس يظهر أن الهندوس كما يذكر ينكرون خلود النفس كجوهر مستقل، وإن خلودها إن حصل فذلك يكون الاتحاد بالروح الكلية بعد التطهير من خلال دورة تناسخية في الأبدان..... وهذا مذهب يقربهم من مذهب وحدة الوجود الذي لا يقبله المفهوم المستمد من رسالات السماء(٦٩).

وبالنسبة للبوذية ذكر أن لها إلهاً للموت مشابه لما في الهندوسية وبما يفيد بمحاكمة الذات أمام الإله (ياما) بعد الموت:

(يخطئ المرء في العقل وفي الكلمة وفي التفكير ثم حالما يتفتت الجسد بعد الموت ويقوم بطريقة مفزعة، مقدمة إياه لعقاب الحفظة أمام (Yamama) مجرداً من بنيه، خلواً من الاحترام للأشياء الجليلة والمقدسة يؤنبه (ياما) قائلا: أذكر أيها الإنسان ألم تر ظاهراً بين الناس رسولنا الأول، فالثاني، فالثالث، لا لا يا سيدي، ألم تر شيخاً ومسنّة، ومريضاً أو مريضة ،أو ميتاً أو ميتة؟ أرايت يا سيدي. أذكر أيها الإنسان،ألم يحدث هذا لك تحذيرا وعبرة فيقول:سأكون مثلهم أيضاً،سأفعل الطيبات في العمل والقول والتفكير، لم أفعل يا سيدي، كنت مهملاً أذكر أيها الإنسان أنه بناء على إهمالك يفعلون بك وا أسفاه، فهذه أفعال لم تقم بها أم ولا أب ولا أخت ولا صديق ولا زميل ولا قريب سواك نعم أتيت بهذه الأفعال،فأنت الآن تجني نتائج ما كان".

وجاء في (الأنجترا نيكايا- الرابعة):"لا مكان لأحد يستطيع إخفاء جريرته... بالنفس فيك أيها الإنسان تعرف ما هو صحيح، وما هو زائف".

وبأزاء ذلك فإن في الأقوال المنسوبة لبوذا ما يشير إلى غير ذلك النفس الروحي الذي مر ذكره في مسألة الجزاء فيما يبدو أن ذلك كان تطوراً في الفكر البوذي مماثل لما تم في الفكر الهندوسي حيث أن ناموس الطبيعة كما نقل عن بوذا هو الذي يسيطر على كل شيء، وهو يقضي بأن لا يدوم العذاب والجحيم إلى ما لا نهاية، فلا تدوم الجنة ولا النعيم ومهما طال عهدها فإنهما زائلان وإن كل ما يتمسك بالاخوة العامة والمحبة الشاملة مع سائر الخلق، فإن ناموس الطبيعة يعاقبه أشد العقاب وإن ناموس الطبيعة ليس بخاضع لذات قدسي يتصرف فيه كما يشاء، بل ذلك الناموس مستقل بذاته نافذ بنفسه لا يتأثر بمؤثر بشري أو إلهي أبدا (٧٠).

وأن ما دعي بـــ(جنة النفوس) يتجارى –في جانب منه–مع ما ذهب إليه الأستاذ مصطفى محمود من الاستنتاج بأن: كل ما جاء عن الجنة والنار ما هو إلا تقريب للمعاني المستحيلة بقدر الإمكان وأن الجنة صورة ومقام تشتمل على جميع الدرجات من المتع الحسية ارتفاعاً حتى المتع الروحية الخالصة،فيما يكون العذاب لزوم ما يلزم وحلول الصفة بموصوفها وانتظام الأرواح في سلم درجاتها الحق، وأن العذاب يأتي من إحساس من هم أسافل الدرجات بالغيرة والهوان والخسران الأبدي... ويحرق هذا الإحساس الصدور كما تحرقها النار وأكثر وسوف يكون هذا النكال والتنكيل، نيكل الواحد منا بنفسه بالدرجة التي وضع نفسه فيها والتي أعذر إليها بأعماله في الدنيا (٧١).

وتقدم الزرادشتية تصوراً لعملية الجزاء يتقارب من حيث المضمون مع المنطق الديني السماوي، ويختلف عنه في افتراق عالمي الجزاء للخير والشر فيما يبدو وكأن معترك الصراع ما بين روح الخير وروح الشر، ففي تقدير زرادشت كما ذكر أن الإنسان خلق حر الإرادة يختار بين الخير والشر، وأن الأفكار التي يفكر بها، وكل الكلمات التي يقولها، والأفعال التي يأتيها كل يوم من

أيام حياته مكتوبة في كتاب الحياة، فالأفكار والكلمات والأفعال الصالحة مكتوبة في جانب، والأفكار والكلمات والأفعال الخبيثة مكتوبة في الجانب الآخر، وعندما يموت الإنسان تذهب روحه إلى الحفيظ على كتاب الحياة،فإذا كانت أفكاره وكلماته وأفعاله الخيرة أعظم من أفكاره وكلماته وأعماله الخبيثة ذهبت إلى الجنة، وإلا ذهبت إلى عذاب الجحيم (هذه الأفكار أو المفهوم يتفق تماما مع المنظور الإسلامي خاصة).

وفي يوم الحساب ينتصر الإله الواحد على الشر عندئذ يبعث الموتى ويقع المذنب على الأرض فتشتعل وتذوب جميع المعادن فتنتشر على الأرض كأنها سيل ملتهب وكل الناس الأحياء والأموات المبعوثين عليهم أن "يعبروا مجرى السيل الذي يبدو للأرواح الخيرة وكأنه لبن دافئ فيطرهم المرور به ويمضون منه إلى الجنة، أما الأرواح الشريرة فتظل تحترق إلى الأبد خالدة في المعدن الملتهب وعندئذ يطرد إله الخير روح الشر وكل من يتبعه من الأرواح الخبيثة إلى وسط الأرض ويدعها فيها إلى الأبد، وفي ذلك اليوم يبدأ العالم السعيد الخيّر الذي لا شر فيه ويدوم سرمدياً" (٧٢).

وفي الأديان السماوية تتأكد مسألة الإيمان بالدار الآخرة وعلى نحو منتظم يتوافق مع منطلقها في تقرير الصيغة الاندماجية بين حياة الأرض والسماء ضمن مبادئ وأصول تتحدد بمقتضاها سيرة المؤمن في الحياة الدنيا، وعلاقته بالسماء، تلك العلاقة التي تقتضي الإيمان بـ(الدار الآخرة) كحياة تالية ومكملة لوجود الإنسان على الأرض، بل انها حياة الخلود هناك.

وتعتبر جملة مطالب التقوى، أو العمل الصالح والتي ترد في سياق النصوص الدينية وأحكامها التفصيلية عن جوهر ومضمون نظرية الأخلاق،أو السلوك الإيماني،والتي تستهدف تكوين نمط من السلوك المرتهن لضوابط ومحددات مثالية تتصل بكل جوانب نشاط وحركة الإنسان في الحياة الدنيا، مع

نفسه ومع الآخرين، بانسجام وتوافق بين دخيلة النفس وظاهر السلوك وسنفي إن شاء الله موضوع التقوى ما يستحق من البحث في مواضيع لاحق مستقل عن جوانب السلوك الإيماني في الأديان.

والواضح أن الجزاء يمثل مقابلة موضوعية بين الفعل والنتيجة، تجعل الحياة الدنيا بمثابة مرحلة اختبار لإرادة الإنسان ومجمل أفعاله، يرى بعدها النتيجة بصورة جزاء يقابل حسناته أو سيئاته:

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)(النجم: ٣١).

(لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (إبراهيم: ٥١).

(ازرعوا لأنفسكم بالبر أحصدوا بحسب الصلاح) (هوشع١٢:١٠).

(أعمل عملك في حينه وسيعطيك الثواب وقته) (سفر الحكمة).

(دينوا كل واحد حسب عمله) (رؤيا ٣١:٢٠).

ويعتبر الصابئة المندائيون من بين أهل الأديان الذين يعتقدون بمحاسبة الأرواح، فالإنسان عندما يموت تنتقل روحه إلى العالم الآخر، فالجسد فان والروح باقية، وفي العالم الآخر تحاسب هذه الروح وتوازن أعمالها فإذا كانت الحسنات كثيرة تصعد الروح إلى عالم الأنوار، وإن كانت السيئات كثيرة فإن الروح تذهب إلى عالم المطهر (المطراثة) في عالم الظلام حيث تذهب في رحلة تمر بها بسبع محطات تسمى (عوالم الحساب) وهي عوالم شريرة تعرقل صعود الروح وتمسك كل روح خاطئة، وكلما كانت الروح قد استوفت مسبقاً مستلزمات الميت من غسل وتكفن وطهارة وما إليها من شعائر دينية فيرافق الروح مخلص (فارقا) ليحرر هذه الروح التي تخضع لقرار يقره الملك (أباثر) الموكل بالميزان قبل أن يقودها دليل المعابر والمسالك الخطرة ثم الدخول إلى عالم النور عبر المسالك الخطرة حيث تتسلم كساء نورانياً وإكليلاً وبذلك تعود

الروح إلى عالم النور.

ويذكر الصابئة أربعة عوالم أخروية هي: (عالم النور- آلمي دنهورا) و(عالم الظلام -آلمي-دهشوخا، وعالم المطهر (مطراثة)، عالم العهد (كشوني كشطة)، وهذا الأخير هو العالم المثالي أو موطن الإنسان السماوي (الجنة).

وفيه مخلوقات أو أشياء سماوية تقابل بل تشابه بالضبط على الأرض ويكون موقعها في الشمال من الكون حيث يقع عالم الكون، ويشبه هذا العالم كما يشير الباحث (خزعل الماجدي) ما تحدثت به النظريات العلمية لعالم أسمته (العالم المضاد للمادة Anti-material)، فيما كانت

هناك في التراث السومري كما يذكر أيضاً عوالم أربعة هي:

(عوالم النوناكي، والأيجيجي، وهي عوالم إلهية فقط- ودلمون- وفي الجنة السومرية التي فيها الخلود وأدنوا أو أدن- وهي السهل الأخضر ومنها اشتق العبريون اسم عدن أو جنة عدن وهي كما ترد في القرآن الكريم، وأخيراً العالم الأسفل الذي له عدة أسماء منها (كيكال) أي الأرض العظيمة وهي عالم الموت).

ويتساءل الماجدي فيما لو كانت المندائية قد أخذت هذه العوالم من السومرية ثم أعطتها وظائف أخرى -خصوصاً الثلاثة الأولى منها - ولعل هذه الوظائف أتت من الغنوصية أيضاً، فيما يرى أن هناك ملامح متشابهة في بعض عقائد ما بعد الموت المندائية والمصرية القديمة وخصوصاً العقاب والثواب[٧٣].

والواقع أننا لو استجمعنا كل موارد التراث القديم والمتقدم منه وقارنا بينها لتوصلنا إلى جملة من القواسم المشتركة بينها في هذا المجال وسواه مما أشرنا إليه أو لم نشر.

والنصوص التالية الواردة في (باب صلاة على راحة نفس الميت) من سيدنا آدم (كنزا ربا)- تعطي تصوراً مبسطاً لوقوف النفس في ساحة المحاسبة ما بين النور الإلهي والملائكة الأثيرين، ودور آدم في تسلم النفس وهي في

ضيافة الجسد حتى تكمل حسابها لتحلق بمحررها في عالم الخلود:

(حين وقفت النفس بين النور الإلهي وبين الملائكة الأثيرين سؤلت وقيل لها:

"تكلمي أيتها النفس من بناك وأتم بنائك؟"،

"من هو المنشئ والباني والمكون؟"

"من أوجدك..؟"، قالت النفس لمن سألها: "أبي، وهو واحد، هو الذي خلقني، ثم أخذني أحد الطيبين المخصيين فلفني بردائه من نور وسلمني لآدم، وحللت الجسد يعذبه ومرارته، وبقيت انتظر في ضيافة الجسد حتى أكملت قدري).

"حين أكملت النفس قدرها جاء من يحررها، ولحقت النفس بمحررها إلى عالم الخلود الذي لا تغرب شمسه ولا يداخل نوره ظلام".

إلى المكان الذين تقوموا بالصباغة وارتسموا برسم الله، المكان النوراني الأعظم والدار الباقية.

ونجد في الكتاب المقدس، كما هو الحال في القرآن الكريم ما يشير إلى حتمية الجزاء للإنسان في الدار الآخرة حيث أن:

(كل واحد سيحمل حمل نفسه)(غلاطية٦:٥).

(كل واحد يموت بذنبه) (أرومية ٣١:٣١).

وهذا مصداق لما نص عليه القرآن الكريم:

(يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة:٦-٨).

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) (الجاثية:١٥).

وإن الله يحاسب بالحق عباده:

(يحاسب المستكبرين،وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة) (بطرس٥:٥).

ويوم الحساب تشهد على الإنسان جوارحه: (إن فمك يستذنبك لا أنا وشفتيك تشهد عليك) (أيوب ١٥:٦).

ويجري ذلك مجرى التوافق مع ما يرد في البلاغ القرآني:

(حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (فصلت: ٢٠-٢١).

ويرد الوصف جزلاً في القرآن لما يقدم للمتقين وذوي الأعمال الصالحة من ألوان المتع والمباهج تشويقاً وترغيباً لهم ليحظوا بالفوز بالجنة، مقابل ذلك يلقى الآثمون والطاغون، ومقترفوا السيئات من أصناف العذاب، والضنك- وهو ما سنستوضحه في فصل خاص عن الجنة والنار- كما ترد في النصوص القرآنية في كتابنا اللاحق عن خطاب التوحيد الرسالي في الإسلام.

وقد قدم السيد المسيح وصفا مقتضبا لما يكون للناس في الجنة والحميم مثاله (زؤان الحقل):

(فذلك يكون في نهاية العالم، يرسل ابن الإنسان ملائكة، فيجمعوا من ملكوته كل المفسدين والأشرار ويرمونهم في أتون النار، فهناك البكاء وصريف الأسنان وأما الأبرار فيشرقون كالشمس في ملكوت أبيهم فمن كان له أذنان فليسمع) (متى ٣-١:٤١ -٤٣).

كذلك فإنه عليه السلام قد ذكر عن بعض ما يكون يوم القيامة:

(أنتم في ضلال لأنكم تجلهون الكتب المقدسة وقدرة الله، ففي القيامة لا يتزاوجون بل يكونون مثل الملائكة في السماء، وأما قيامة الأموات، أما قرأتم ما قال الله لكم: أنا إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب، وما كان الله إله أموات، بل إله أحياء)(متى ٢١:٢٩-٣٢).

ويتوافق ذلك مع الكثير مما يرد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ولو أردنا أن نسترسل في موارد الجزاء وأحكامها في كلا الشريعتين

وسواهما لاقتضانا ذلك بحثاً مستفيضاً وقد آثرنا أن تخصص فصلاً كاملاً عن منطلق التواصل بين الحياة الدنيا والآخرة وبضمنها موضوع الجزاء الآخرة كما ترد في أدبيات الفكر الإسلامي مع قدر من المماثلة عمّا في الشرائع الأخرى ضمن موضوعنا اللاحق عن التكامل الرسالي في الإسلام منوهين بالأصول التاريخية لفكرة الجزاء والحساب الأخروي.

الطوفان

يمثل الطوفان حدثاً هاماً في التاريخ الإنساني عامة، وتاريخ الفكر الديني خاصة لارتباطه بأحداث وشخوص لها دورها في صنع ذلك التاريخ، ففي الأساطير اليونانية يذكر أن (زيوس) كبير الآلهة أرسل طوفاناً هائلاً في نهاية العصر الحديدي، وكانت قمم (البرانس Parnassis) هي وحدها التي ارتفعت فوق الأمواج العالية، ولم ينج من البشر سوى اثنين هما: (دوكاليون Deucalian) ابن الإله برمثيوس، (وبورا) ابنة أخيه أبحثيوس فكانا بداية جديدة للبشرية.

وفي بلاد ما بين النهرين تصور ملحمتا أراحسيس وجلجامش الطوفان على أنه عقاب أنزلته الآلهة بالجنس البشري، وأن البطل أوتابشتيم -وهو إنسان- يظفر بالنجاة يفضل ما يقدمه له الإله أنكي، وكذلك عن طريق بناء سفينة هربت عليها عائلات البشر والحيوانات،ثم استقرت السفينة في النهاية على جبل (نصير Nisir) وأنه قد اختبر انحسار الماء بأن أرسل في البداية حمامة، ولكنها عادت، ثم أرسل السنونو، ثم جاء بغراب فأطلقه في السماء، فذهب الغراب بعيداً، ولما رأى الماء قد انحسر حط ولم يعد[٧٤].

هذا وقد شغلت أحداث الطوفان جزءاً من الشعر القصصي لجلجامش، وما مر ذكره يمثل شاهداً من شواهد التوافق القسي في إيراد الأحداث والتي يشترك في سردها الكتاب المقدس بحصة أوفر، ومع القرآن الكريم بفارق بسيط في إيراد جزئيات هذا الحدث الهام، فيما يقارب الفكر الصابئي ما يروى في التوراة من ذلك.

وفي نصوص الكتب المقدسة فإن واقعة الطوفان تعد من دلائل الامتثال للمطلب الإلهي الذي جسده النبي نوح في إذعانه لأمر الله بصنع السفينة والتي

حمل فيها كل جنس زوجين مع أهله، مواجهاً سخرية قومه منه بدءاً -كما سيرد بيانه- وقد كان نوح يمثل جيل النبوة الأول، وسلالته تمثل الجذر الأساس للكائنات الإنسانية الحالية،إذ تنتسب جملة البشر الحالي إلى أولاده سام وحام ويام أو يافث.

يروي الكتاب المقدس أن نوحا كان رجلاً باراً، كاملاً في أجياله، وأنه حين رأى الله الأرض قد فسدت، فإنه قال لنوح إن نهاية العالم قد أتت أمامي فها أنا مهلكهم مع الأرض، اصنع لنفسك فلكاً من خشب حفر وأوحى له بطريقة صنعها تجعل الفلك مساكن وتطليه من داخل ومن خارج بالقار وهكذا تصنعه ثلاثة مائة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه وثلاثين ذراعاً ارتفاعه، وتصنع كواً للفلك وتكمله إلى حد ذراع من فوق وتصنع باب الفلك، في جانبيه مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله....

وها أنا آتٍ بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح كل ما في الأرض يموت.... وأقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك ومن كل حي من ذي جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك، تكون ذكراً من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها...وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك فيكون لك ولها طعاماً ففعل نوح حسب ما أمره به الله (التكوين- الإصحاح السادس).

وبينما يعزي الكتاب المقدس سبب الطوفان كما مر إلى فساد أهل الأرض كلهم، فإن القرآن الكريم يشير إلى أن الله قد أوحى إلى نوح: (أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(نوح: ١).

وأنه امتثل لأمر الله بإنذارهم المرة تلو المرة لعاقبة عدم عبادتهم لله وطاعته وتمنيتهم بما يكون لهم من ذلك من غفران الله وإنعامه لهم إن تابوا إلى رشدهم دون أن يجد فيهم إصغاء لدعوته:

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (١٢) مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً) (سورة نوح).

ثم إن نوحاً شكا إلى الله ما كان من أمره معهم فيما يبدو أنهم أصرّوا على عبادة الأوثان:

(قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً (٢١) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالاً) (سورة نوح).

وكان ذلك سبباً لإغراقهم بالطوفان وليجز عليهم العذاب استجابة لدعاء نوح بأن يستأصل شأنهم لئلا يضلوا عبادة الله من بعدهم، فكان فعل الطوفان وسيلة ذلك:

(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً) (سورة نوح).

وفيما يذكر القرآن جانباً من التفاصيل التي سردها الكتاب المقدس عن وضع السفينة التي صنعها نوح بمثل ما مر ذكره وما اشتملته من الأجناس الحية

التي ادخلها معه حفاظا على بقائها مع أهله، فإن الكتاب المقدس لم يشير إلى ما كان من أمر ابن نوح الذي عصا أمره بالركوب معه في السفينة متذرعاً في أنه سيلجأ إلى مكان أمين يحصنه من الغرق، فكان أن غرق وأن الله لم يستجب لدعوة نوح واستعطافه لنجاة ابنه داعياً إياه أن يتبرأ منه كونه من غير الصالحين:

(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) (هود٤٢:٤٣).

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (هود٤٥:٤٦).

وقد سبقت ذلك إشارة القرآن إلى ما كان من أمر نوح مع قومه وهم يشاهدونه يعمل في السفينة في بريه خالية لا ماء فيها فكانوا يسخرون منه وهو ينذرهم بما سيكون من عاقبة أمرهم:

(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) (هود:٣٨:٣٩).

ويمضي الكتاب المقدس في ذكر أحداث الطوفان مشيراً إلى أن مياه الطوفان صارت بعد السبعة أيام على الأرض وانفتحت طاقات السماء وكان المطر أربعين يوماً وأربعين ليلة، وفي ذلك اليوم عينه دخل نوح، وسام، وحام، ويافث- بنوه- وامرأته وثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك وكل الوحوش وقد تغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء، خمس عشر ذراعاً من

الارتفاع حتى مات كل جسد كان يدب على الأرض، ولم يبق إلا نوح والذين معه في الفلك، واستقر الفلك في الشهر السابع من اليوم السابع عشر منه على جبال أراراط – وتقع شمال آشور واسمها في التركية أغرى– داغ وأطلق عليها القرآن اسم الجودي:

(وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)(هود: ٤٤). وبينما يتفصل الكتاب المقدس في ذكر الحيوانات التي اصطحبها نوح معه في الفلك فإن القرآن لم يورد ذكر ذلك.

وأما حديث الطوفان عند الصابئة فيعد قريباً كما ذكر كل القرب مما يروي الكتاب المقدس حتى في إطلاق الغراب والحمامة إلا أنهم يقولون أن الحيوانات التي اصطحبها نوح في الفلك كانت اثنين اثنين ذكراً وأنثى من كل نوع، وإن الذين كانوا معه في الفلك من البشر ثلاثة فقط وهم نوح وامرأته وابنه سام إذ لم يكن له قبل الطوفان ولد آخر، وأن نوحاً لما انحسر الماء نزل إلى اليابسة وحده يتمشى فإذا بامرأة من الجن تراءت له بشكل امرأة، وأخذت تتمشى بجانبه فأنكر نوح نزولها من السفينة دون إذن منه، فقالت له إنها سئمت المقام في الفلك، ثم دنت منه وأخذت تغازله حتى استدرجته إلى المعصية ظناً منه أنها زوجته فوافاه صوت من (اوثار) يؤنبه على ما فعل فعاد إلى الفلك وأخرج كل من كان فيه وحملت المرأة ووضعت له ثلاثة بنين هم حام، ويافث، ويامين وكان كل منهم يتكلم بلغة تخالف الآخر، ومن بين هؤلاء الثلاثة -كما يرون- جاء السودانيون والفرنجة والترك وعلى ذلك فإن الصابئة لا يذكرون نوحاً ولا أحد من أبنائه الثلاثة (حام، ويافث، ويامين) ضمن من يستغيثون من آبائهم الأولين، لأن (اوثارا) كان قد عاقب نوحا على أن يبقى مرتهنا بـــ(المطراثي) إلى أن ينقضي العالم.... ولكنهم كانوا يقرون بولده سام الذي كان معه في الفلك ويكرمونه أحسن تكريم.

وقد تنزه القرآن عن ذكر مثل ذلك عن نوح النبي وعن مثل ما ذكره العهد القديم من الكتاب المقدس من أن نوحاً ابتدأ يكون فلاحا وغرس كرما، وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلما استيقظ نوح من خمره وعلم ما فعل به ابنه الصغير فقال: ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته (تكوين:٩).

ومثل ذلك ما ذكر من أخبار الرب لهاجر بأن ولدها إسماعيل سيكون "إنساناً وحشياً يده على كل واحد عليه وأمام جميع أخوته يسكن" (تكوين :١٤).

فيما تنزه القرآن عن ذكر مثل ذلك ضمن منهجه في تنزيه الأنبياء والرسل جميعاً وعلى نحو لم يفرق فيه ما بين أبناء النبي إبراهيم كلهم، ومن سبقهم وتلاهم من الأنبياء بالإشادة والتمجيد:

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (٤١) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً(٥٣) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً (٥٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً (٥٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً) (سورة مريم).

وتجد في العهد الجديد من الكتاب المقدس ذكر المسيح لبعض ما كان أيام الطوفان منوهاً إلى أن مجيء ابن الإنسان سيكون في أيام الطوفان:

(وكما حدث في أيام نوح كذلك يحدث عند مجيء ابن الإنسان كان الناس في الأيام التي سبقت الطوفان يأكلون ويشربون ويتزاجون، إلى أن دخل نوح

الفلك، وما كانوا ينتظرون شيئاً، حتى جاء الطوفان فأغرقهم كلهم وهكذا يحدث عند مجيء ابن الإنسان، فيكون رجلين في الحقل، فيؤخذ أحدهما ويترك الآخر، وتكون امرأتان على حجر الطحن، فتؤخذ إحداهما وتترك الأخرى)(متى٢٤:٣٦-٤٠).

ومن غرائب الاتفاق كما ذكر فإنه قد اكتشفت على ألواح من وجدت بأطلال مكتبة آشور بانيبال بنينوى قصة للطوفان اكتشفها الآثاري جورج سميث تضمنها الشعر القصصي عن جلجامش يفيد بما أصاب أرض الرافدين من دمار نتيجة الطوفان وفيها من التفاصيل ما يشبه ما ورد في الكتاب المقدس، وبضمنها إطلاق الحمامة وعصفور الجنة، ثم الغراب الذي راح ولم يعد، منوهاً فيها إلى أن السفينة اتخذت مجراها إلى أرض (بنيصير Nisir) وأمسكت بالسفينة أرض جبل فيها...الخ.

إبراهيم وبنوه

يعتبر النبي إبراهيم مؤسس ومرشد الفكر التوحيدي للأديان السماوية الحاضرة، تستذكر شرائعها دوره ودور بنيه-إسماعيل وأسحق ويعقوب- في بناء وتركيز قاعدة الدين القائم على الوحدانية، وعلى ذلك فإن لإبراهيم وبنيه استذكاراً خاصاً في سيرتهم ومنهجهم في الكتب السماوية، وفي أحاديث الأنبياء من أنسالهم.

والملاحظ أن هناك تناوباً ما بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم في سرد تفاصيل السيرة الإبراهيمية في مرحلتيها، ما أعقب الهجرة التالية إلى الجزيرة العربية وما سبقها في أرض كنعان، وقد أوفى العهد القديم من الكتاب المقدس المرحلة الأولى من حياة إبراهيم، (إبرام) قدراً من التفصيل ليذكر ما كانت من شأنه من بدء نزوحه وزوجته وابن أخيه لوط من حاران (حران) إلى أرض كنعان ليبني مذبحاً للرب وينصب خيمته في بيت إيل- بين القدس إلى نابلس- ثم انجراره إلى مصر بعد أن حدث الجوع في أرضه.

وما كان من قصته مع فرعون والذي ذكر الكتاب المقدس أنه أخذ امرأته ساراي إلى بيته وهو لا يعلم أنها زوجة إبراهيم حتى ضربه الله بضربات موجعة فأرجع لإبراهيم زوجته ليرحل من مصر مع امرأته ولوط وكل ما كان له إلى الجنوب للمكان الذي كانت خيمته فيه في البداية بين إيل وتماي (التل).

ويشير إلى افتراق إبراهيم عن لوط بسبب نزاع حصل بين رعاة مواشيهما فسكن إبراهيم في أرض كنعان، وسكن لوط في مدن الدائرة (الأردن) ونقل خيامه إلى سدوم (إحدى مدن السهل) والتي احترقت بسبب خطيئة أهلها- وعلى ذلك النحو الذي ذكر القرآن تفاصيله- فيما أقام إبراهيم بعدئذ عند بلوطات ممرا في حبرون (مدينة الخليل).

ويتوقف الكتاب المقدس عند ذلك الحد من المرحلة الأولى لحياة إبراهيم في أرض كنعان مضيفاً إليها أحداثاً خاصة كمثل ما كان من شأنه مع امرأتيه ساراي(سارة)، وهاجر، وما كان من امتحان الله له بدعوته إلى ذبح ولده إسحق -الذي تختلف الرواية الإسلامية فيه عن الرواية الإسرائيلية في هل هو إسحق أم إسماعيل، وكذلك في مكان الذبح في أرض الجزيرة أم في أرض كنعان- فيما لم يرد اسم الذبيح ولا مكانه صريحاً في النص القرآني مما جرّ إلى قدر من الاجتهاد، وهو ما سنعرض عنه صفحا لعدم ملائمته لموضوع بحثنا.

ومقابل ذلك فإن القرآن يستعرض بتفصيل ما كان من أمر إبراهيم مع أبيه آزر وقومه بشأن عبادة الأصنام ليهجرهم إلى عبادة الله الواحد بعد ان استقرت في نفسه موجبات الإيمان بالتوحيد والتي حاجج إبراهيم بها قومه وما تلقاه من العنت الذي انتهى إلى إلقائه بالنار جراء قيامه بتكسير أصنام قومه، ثم ما كان على يديه من تثبيت دعائم التوحيد في مكة وحواليها وبناءه لمقام التوحيد (بيت الله) الحرام ودعوته للحج إلى كعبته وهو ما يستغرق جزءاً كبيراً من مجمل السرد القرآني الذي ركز على هذه الناحية بما يفيد في توضيح منطلقات الفكر التوحيدي ومعالمها الحيوية والتي أقام صرحها سيد الأنبياء الموحدين إبراهيم الخليل والقدس، وإبراهيم الكعبة المشرفة، حيث اشتملت الرسالات السماوية - اليهودية، والمسيحية، والإسلامية والصابئية- لدعوة رائد مسيرتها التوحيدية ليكون إله إبراهيم وإسماعيل واسحق إلههم جميعا، ولتكون صحف إبراهيم وشريعته الأولى مرجعهم وموئلهم.

وليس من كتبهم المقدسة إلا وفيه ما ينطق بما ينطق أو نطق به إبراهيم، وليس من أنبيائهم إلا وقد انحدر من أساله الذين توارثوا الشريعة وحياً متكاملاً ومتتابع الحلقات في سلسلة رسالية تمتد من نوح فإبراهيم وبنوه حتى محمد:

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً (١٦٤) رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً) (سورة النساء).

شريعة وضحت فيها دلالة الأحكام والشواهد على قدر من التوافق ينبئ بأن وحدة الشرائع قائمة بين كل رسالات السماء، وهي تستمد من السماء مثلها الأعلى.

ومن علاقات مجد النبوة الخالد لإبراهيم وبنيه هذه المقامات المقدسة التي تنتصب عمائر في النفوس والقلوب عمائر البيوت المقدسة في مواقع جليلة القدر في الأرض المقدسة حيث محجة الأديان السماوية كلها، وفي قلب الجزيرة العربية حيث محجة الإيمان بالتوحيد في بيت الله الحرام الذي رفع قوائمه إبراهيم وولده إسماعيل. بقرار ومرسوم إلهي ليكون محجة لأهل التوحيد الذين أسلموا لله وحده ومهوى روحياً مستديماً يقف بهم على جادة الله المرتقية إلى الملكوت الأعلى:

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) (البقرة:١٢٥).

وحتى يوافق مقام النسب مقام النبوة كان عهد الله لإبراهيم أن لا تكون الإمامة للناس في ذريته لمن لا يستحق ذلك عدلاً وتقوى وصلاحاً:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) (البقرة:١٢٤).

ومثل ذلك كان العهد لنوح النبي في مرحلة البعث الرسالي الأولى، أن ينبذ ابنه الذي عصى أمره بالركوب معه في سفينة النجاة مما كان من أمر الطوفان -كما مر- ليكون من المغرقين:

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (هود:٤٦).

وذلك جزء من النظام التربوي الصارم لسلالة النبوة التي اختصها الله بأن "يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيراً" لتكون عند المقام الذي تستحق فيه تلك الرتبة من رتب التشريف الإلهي.

وأنه بقدر ما يستوجب على أهل الرسالات الدينية من التقدير والاعتداد لإبراهيم وبنيه، فإن مما يثير الاستغراب وما يدعو لنزاع أستثير ولم يزل تيار غباره الأسود في موطن الرسالات الدينية ما يرى في بعض نصوص العهد القديم من روايات تقلل من شأن البعض من بني إبراهيم، فيما تشيد بالآخر كونها تنتسب إليه انتساب رسالتها الدينية التي جعلتها وقفاً على شعبها على غير ما أراد الله -رب العالمين- أن تكون كل الرسالات الدينية وقفاً على الإنسانية كلها، إن رحاب الله يتسع لكل خلقه، وأن كلمات الله تلقى لكل المسامع، وتدخل بلا استئذان إلى كل قلب، وفي كل موطن، وفيها من معاني الرحمة والألفة وفاقاً لما تصرح به نصوص العهد الجديد من الكتاب المقدس، كما تصرح به على وجه الشمول نصوص القرآن الكريم اتفاقاً ووحدة في المسار الرسالي الذي ينتظم فيه الناس على جادة الإيمان بالوحدانية.

وقد نوه الرسول بطرس في رسالته إلى كنيسة روقه بالمحتوى القيمي للوراثة النبوية لسلالة إبراهيم كونها قد ارتبطت بمعيار الإيمان أكثر من كونها مجرد وراثة لشريعة: (فالوعد الذي وعده الله إبراهيم ونسله بأن يرث العالم لا يعود إلى الشريعة، بل إلى إيمانه الذي برره، فلو اقتصر الميراث على أهل

الشريعة، لكان الإيمان عبثاً والوعد باطلاً... فالميراث قائم على الإيمان حتى يكون هبة من الله ويبقى الوعد جارياً على نسل إبراهيم كله، لا على أهل الشريعة وحدهم، بل على المؤمنين إيمان إبراهيم أيضاً، وهو أب لنا جميعاً كما يقول الكتاب:(جعلتك أبا لأمم كثيرة) (روقه ٤:١٣-١٧) وستكون لنا وقفة عند ذلك النبع الذي لن ينضب من فيض المنحة الإلهية.

الفصل الثالث
توافق الأديان في القيم

* أولاً: القيم الإيمانية (الروحية).

* ثانياً: قيم العمل.

* ثالثاً: قيم العمل والحكمة.

* رابعاً: قيم الحكم والإدارة.

وفاق الأديان في القيم!

من مجمل الأحكام والقرارات الواردة في الشرائع الدينية لفهم مقاصد الأديان وغايتها التي تتوافق في خط متجانس لتقيم الدليل والعلة لوجودها وانبثاقها من مصدرها السماوي، أو الوضعي المستند إلى حكمة التدبير الكوني، وللنظام الروحي – الخلقي الذي انبثق من هذه الحكمة كناتج طبيعي لتوازن وتوافق الإرادة الإلهية مع الإرادة الإنسانية الخيرة، توافق الخالق مع خلقه، وحيث يكون الإنسان الذي خلقه الله على هيئته وصورته مجسدا لحالة الامتثال لإرادة خالقه وما له في المدار الأرضي.

وفي هذا المبحث الذي نفصله بإيجاز على مثل هذه المساحة المحدودة نركز على الأعم الأشمل من النصوص، ولشواهد الدلالة على توافق القيم بين الأديان بكل جوانبها الأساسية معتبرين أن الأديان في توافقها وانتظامها في السلوك إنما تجسد مساراً لإدارة الروحية، وانعكاس ذلك على قوائم السلوك بكل تفرعاتها وأنشطتها والتي تتقرر مبدئياً بمجال الالتزام والارتهان للقيم الدينية واعتباراتها، ومردات هذا الالتزام وحدوده وهو في الغالب إلتزام طوعي تحكمه التوجهات الإيمانية، وما يترتب على مناهج التربية الدينية، والمؤثرات البيئية من نتائج.

أولاً: القيم الإيمانية (الروحية)!

في السرد التاريخي لقصة الحضارة يقف بنا (ول. ديوارنت) عند حقيقة أن الأديان السماوية الثلاث- اليهودية والمسيحية والإسلام- قد أقرت بأن ما يحتاج إليه المجتمع السليم هو الإيمان بأن الكون خاضع لحكم أخلاقي مسيطر على شؤونه – أي الإيمان بأن عقلاً حياً يعجز الناس عن إدراك كنهه يسيّر المسرحية الكونية إلى غاية عادلة نبيلة.

وأن الأديان السماوية قد أعانت على تكوين عقلية الإنسان في العصور الوسطى مجتمعة كلها على أن هذه العقلية الكونية هي الله ذي الجلال، غير أن المسيحية قد أضافت إلى هذه العقيدة أن الله الواحد يظهر في ثلاثة أقانيم مختلفة، أما اليهودية والإسلام فتريان أن هذا الاعتقاد ليس إلا شركاً مقنعاً وتعلنان وحدانية الله بأقوى الألفاظ وأشدها حماسة، وأن الجذر الذي تدور عليه المبادئ الأخلاقية في القرآن كما هو الحال في كتاب العهد القديم هو خوف العقاب ورجاء الثواب في الآخرة (وهو كذلك ما نرى في العهد الجديد)، منوهاً إلى أن القرآن قد عرّف الدين وحدّده تحديداً لا يجد المسيحي ولا اليهودي الصحيح العقيدة بداً من قبوله[٧٥].مستدلاً في ذلك بما ورد في الآية (١٧٧) من سورة البقرة من أحكام جامعة.

ونقول: إن كل أهل الأديان ليجدوا في مضمون هذه الآية، والآيات الأخرى المشتملة على موارد شتى من قيم السلوك الإيماني- مما سنورده لاحقًا-ما يجدونه في نصوص شرائعهم، وأن البلاغ القرآني في جملة مقرراته الروحية – الخلقية إنما يستكمل المشروع الروحي الضخم الذي تواترت وتضافرت في تصميمه وإشادته جهود الرسل والأنبياء، ورواد وحكماء الأديان على توالي الأزمان، وإننا إذ نستكفي في هذا الباب بإيراد مجموعة

منتخبة من الآي القرآني دون إيراد سائر النصوص من شرائع الأديان لأننا نجد فيها ما يجسد منظومة السلوك الإيماني في كل الشرائع الدينية، وحيث تكون قيم الأديان وفضائل الأخلاق القاسم المشترك الذي تنتظم في سلكه كل الأديان ولنقرأ من القرآن قوله تعالى:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (البقرة:١٧٧).

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (الأنعام ١٥١-١٥٢)

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (فصلت: ٣٤).

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ

مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين) (الشورى).

(والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما) (الفرقان: ٧٢).

(يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم) (الحجرات: ١٢).

(والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون (٣٢) والذين هم بشهاداتهم قائمون) (المعارج).

(والذين هم على صلواتهم يحافظون) (المؤمنون: ٩).

(والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً (٦٧) والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما) (الفرقان ٦٧-٦٨).

(يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور (١٧)ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور (١٨)واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) (لقمان١٧-١٨).

(الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢٧٥) يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم (٢٧٦) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (البقرة).

(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا

أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) (النساء: ٢٩).

(وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً)(النساء: ١١٠).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (١٩) وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً (٢١) وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً) (النساء).

(فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)(لأنفال: ٤٦).

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً)(النساء: ٥٨).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) (المائدة: ٩١).

(تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) (البقرة: ١٩٧).

....وهذه وتلك من الأحكام والوصايا تجد شخوصها في التوراة والتلمود والمزاير، والإنجيل، وفي العقائد الهندوسية، ووصايا بوذا، وترنيمات زرادشت، وحكم كونفوشيوس، وفي الأصول السبعة لتطهير الروح عند

الجينيين صوتاً سماوياً واحداً وضميراً روحياً وإنسانياً واحداً ينطق بدعوات للهدى والصلاح، وقد استوفى (جوزيف كار) جانبا هاما من نصوص الأديان في هذا السياق في كتابه "حكمة الأديان".

ثانياً: قيم العمل

وفيها نقرأ قسطاً من المبادئ والتوجيهات العامة لأداء الأعمال بما يتماشى مع مفاهيم الأديان التي تتجارى وتتجانس فيها قيم النشاط العملي لتشكل جزءاً هاماً من منظومة السلوك المنتظم المثالي المرهون لقيم ومفاهيم الأخلاق الدينية وان النصوص التي تنظمها الشرائع الدينية بخصوص العمل تمثل ضوابط ومحددات للنشاط الحياتي تجعل من صفحة الحياة امتثالاً للمعايير الروحية التي تشتملها الأديان التي تجد حضورها في ساحة النفس وفي كل بيئة من البيئات الاجتماعية التي يرتهن سلوكها وبالقدر المتفاوت للاعتبارات والمفاهيم الدينية بقدر وحدود الإيمان بها، وهي تشكل مع أحكام القوانين الوضعية السارية نظام الحياة العملية في أفرع النشاط، والواضح أن مجرى الحياة النظامية إنما يكتمل بسريان ما دعي بـــ(سلطان الضمير) أو الوازع الذاتي مترافقاً مع ما يلزم اعتماده من القوانين الوضعية التي تستن أو تعتمد من السلطة الزمنية لتنفيذ المهام الوضعية التي تستن أو تعتمد من السلطة الزمنية لتنفيذ المهام الوظيفة والإجرائية في مرافق النشاط المختلفة،وقد اخترنا من بين الوافر من النصوص أخصها بالدلالة على وفق مصفوفات مختصرة، استقيت من شرائع الأديان المعروفة، ودونما تعليق أو شرح وحيث يفهم القارئ الكريم منها وجهة التوافق:

١- من الكتاب المقدس (العهد القديم) نقرأ:

(بالأعمال يتبرر الإنسان لا بالإيمان وحده) (يعقوب ٢:٤).

(قدر العمل عظيم لأنه يشرف العاملين) (التلمود).

(ليس للإنسان خير من أن يأكل ويشرب ويرى نفسه في تعبه)(جامعة ٢:٤).

(المتأخر في عمله هو أخو السارق) (أمثال:١٨:٩).

(ما المنفعة يا أخوتي إذا قال لي إن لي إيمانا ولكن ليس لي أعمال هل يقدر الإيمان أن يخلصه) (يعقوب).

(إذا دعت الحاجة اسلخ جيفة في الطريق وأكسب قوتك ولا تقل إنني امرؤ عظيم وإن العمل دون قدري) (التملود).

(لا تؤخر مليء بيدرك وقطر معصرتك) (خروج ٢١:٤).

(لا تبقي أجرا لأخير عندك إلى الغد) (لاوبين ٩).

ومثله الحديث الشريف (أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه).

(لا تجعل يدك مبسوطة للقبض، ولا ممسكة عند الدفع) (سفر الحكمة). وفيها من القرآن الكريم قوله تعالى:

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً) (الإسراء:٢٩).

(الأجر على قدر المشقة) (آباء).

(منفعة الأرض للكل، والملك مخدوم) (جامعة:٩).

ويتطابق مفهوم الملكية العامة للأرض مع المنظور الإسلامي.(ومن يعرف ان يعمل حسنا ولا يعمل فذلك خطيئة له)(يعقوب ٤:١٧).

(لا تركبوا أجورا في القضاء ولا في الوزن ولا في الكيل ميزان حق ووزنات حق) (الأويين).

-مر في النص القرآني ما يماثله-

(المكثر ماله بالربا والمتاجرة فلمن يرحم الفقير يجمعه) (أمثال ٢٨:٨).

(النظريات بدون ممارسة تؤدي إلى العبث) (آباء).

(ليس لزاماً أن يكون الناجح في الأعمال حكيما) (آباء).

(النهار قصير والعمل كثير والعمال كسالى والثواب رفيع والسيد على عجل) (آباء).

(دامت المجاعة سبع سنين ولكنها لم تأت صاحب الصنعة) (التلمود).

٢- وفي العهد الجديد نقرأ:

(اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، دقوا الباب يفتح لكم، فمن يسأل ينل، ومن يطلب يجد، ومن يدق الباب يفتح له) (متى٧:٧-٩).

(كل من يجيء إليّ ويسمع كلامي، ويعمل به أشبه لكم، برجل بنى بيتاً، وعمق وجعل الأساس على الصخر فلما فاض النهر وصدم ذلك البيت فما قدر أن يزعزعه لجودة بنائه، وإما الذي يسمع كلامي ولا يعمل به فيشبه رجلا بنى بيته على التراب بغير أساس، فصدمه النهر فسقط في الحال، وكان خراباً عظيماً) (متى٧:٢٤-٢٧)، لوقا ٦:٤٧-٤٩).

(العامل يستحق أجرته) (لوقا ١:١٦).

(ومن أساء الأمانة في القليل، أساء الأمانة في الكثير، وإذا كنتم غير أمناء في المال الباطل، فيمن يأتمنكم في الغنى الحق، وان كنتم غير أمناء في ما هو لغيركم، فمن يعطيكم ما هو لكم) (لوقا ١٦:١٠-١٢).

(وتذكروا أن من ربح قليلاً حصد قليلاً ومن زرع كثيراً حصد كثيراً فعلى كل واحد أن يعطي ما نوى في قلبه والله قادر على أن يزيدكم نعمه فيكون لكم في كل حين من كل شيء ما يكفي حاجاتكم، وتزدادون في كل عمل صالح) (كورنثيوس ٦:٩-٩).

(فليحاسب كل واحد نفسه على عمله، فيكون افتخاره بما عمله هو لا بما عمله غيره، لأن على كل واحد أن يحمل حمله).

(وما يزرعه الإنسان فإيّاه يحصد) (غلاطية ٦:٣).

٣- وفي القرآن الكريم والحديث الشريف نقرأ:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) (النجم: ٣٩).

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) (التوبة: ١٠٥).

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ) (الأنبياء: ٩٤).

(أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه) (حديث شريف).

(رحم الله من عمل عملاً فأتقنه) (حديث شريف).

(وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) (البقرة: ٢٧٥).

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) (الأنعام: ١٥٢).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ....... وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ) (البقرة: ٢٨٢).

(وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ) (البقرة: ٢٨٣).

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) (الفرقان: ٦٧).

قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجلاً أعطى فغدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجلاً أستأجر أجيراً منه ولم يعطه أجره) (حديث شريف).

(لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد) (حديث شريف).

(ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيراً أو إنسان أو بهيمة إلا كان به صدقة) (حديث شريف).

٤ -ومن الكتاب المقدس للصائبة (كنزاربا) نقرأ:

(أعملوا كعمال يعمرون الأرض ويرفعون بأجوائها النبات).

(يوهب كل إنسان بقدر ما عملت يداه).

(كل من تعب ونصب ونصيب بكلتا يديه، ومن لا يتعب وينصب يبقى محروماً من العطايا).

(لا تأكلوا الربا ولا تستدينوا بالربا سرّاً).

٥- ومن العقائد الهندوسية نقرا:

(من ير الراحة في العمل والعمل في الراحة فهو السديد رأياً لأنه امتلك الحقيقية) (ع.هـ).

(لم يبلغ القديسون الأولون مقامهم القدسي إلا بالأعمال) (ع.هـ).

(إذا عرفت عملك وواجبك وأهملتهما فذلك هو الإثم) (ع.هـ).

(ورعك يصوغ أعمالك)(ع.هـ).

(في التفكير السليم العمل السليم) (ع.هـ).

(العمل الصحيح أن لا تختار عملاً يعتبر رديئاً) (ع.هـ).

(إنجاز العمل خير، والعمل الطاهر خير، ولكن أفضلهما التقوى في العمل) (ع.هـ).

(على المرء إذا أتضح له واجبه أن يكون أمينا على أدائه) (الدامايادا:١٦٦).

(الفعلة التي لا يندم عليها المرء ويسعد بنتائجها هي التي أحسن إنجازها) (الدامايادا ٦٧-٦٨).

(من تحرر من الغضب وأدّى واجبه ورعى الفضيلة وتجرد من الشهوات فهو من البراهمة) (الدامايادا: ٣٨٩).

(الجهد غير الموجه يؤول إلى الخسارة لا إلى الريح) (الجتاكاس: ٤٨).

(الواجبات المؤجلة في سرور تنجز بالدموع) (الجتاكاس: ٧١).

(لا تفرط بل تعلم تجنب الإفراط، إن زيادة النفخ تضيع مكاسب النفخ) (الجتاكاس:٥٦).

(من يستعجل حين يجب أن يتأنى، ويتأنى حين يقتضي أن يستعجل يقطع خيوط مسراته الرفيعة) (الجتاكاس:٣٤٥).

(مائة ألف أنشودة سيئة لا تساوي واحدة حسنة الأداء) (الجتاكاس: ٤٨١).

(ومن يحتفظ بنقوده للعد لا للتجارة أو الإحسان... فإنه في الواقع ليس من

الأحياء وان كانت أنفاسه كمنفاخ الحداد) (الهيتوباديسا).
(من يفكر بأن الدقيقة قليلة كالأحمق يسيء استعمال ساعته)(الهيتوباديسا).

٦- ومن البوذية نقرأ:

(العمل الصحيح أن لا يختار عملاً رديئاً) (بوذا).
(فليحاول الناس التغلب على الشرور بالعمل الفاضل) (بوذا).

٧- ومن أقوال كونفوشيوس نقرأ:

(على الصانع الذي يبغي تجويد عمله أن يعد عدته أولاً).
(عندما لا أحتاج مهارتي أكتسبها. الفضيلة أن تكافئ المجهود بأكثر من المكافأة).

٨- ومن أقوال زرادشت:

(مقدسي هو رجل التقوى من خلال الأفكار والكلمات والأفعال).
(بالفكر والكلمة والفعل.... بينهما يختار الرجل جيداً، ولا يفعل هكذا الأحمق).
(هو الذي يعطي أجراً لم يستحقه).

وعن القيم الإيمانية -التعبدية – فإن من نافلة القول الإشارة إلى أن هناك موارد تتصل بمسلك التصوف والزهد والرهبنة ما تتصف به بعض الأديان غير السماوية خاصة هي من الخواص التي تنفرد بها والتي تتصل بطبيعة الظرف والبيئة التي نشأت فيها،فيما يعمد بعض مؤمني الأديان السماوية كذلك إلى الإفراط في المسائل الروحانية منشغلين بها عن تصاريف الحياة المدنية ومقتضياتها في رهبانية يصفها القرآن الكريم بالابتداع.

ثالثا: قيم العلم والمعرفة!

وفي هذا المجال تزدهي الشرائع السماوية وغير السماوية بفيض من القيم والمفاهيم التي تعبر فيها عن الخواص المعرفية والحكمية للأديان، وأنها تعتبر نبع المعرفة بالله، وما ينبع عن ذلك من فيوضات معرفية دنيوية، فيما تكون (الحكمة ضالة المؤمن) ومدار الفلسفة التي بها قوائم اليقين بعقيدته ومن بعض القيم الاعتبارية في ذلك:

١- القرآن الكريم والحديث الشريف:

(وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً)(طه: ١١٤).

(وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)(الإسراء: ٨٥).

(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)(يوسف: ٧٦).

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)(البقرة:٢٦٩).

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)(يوسف: ٢٢).

(مدار العلماء أفضل من دماء الشهداء) (حديث شريف).

(من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله طريقه إلى الجنة) (حديث شريف).

(اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد) (حديث شريف).

(لا حكيم إلا ذو تجربة ولا حليم إلا ذو عثرة) (حديث شريف)

٢-ومن الكتاب المقدس (العهد القديم) نقرأ:

(بالحكمة يبنى البيت، وبالفهم يثبت، وبالمعرفة تمتلئ المخادع ومن كل ثروة كريمة ونفيسة) (أمثال ٢٤:٣-٤).

(أعط حكيماً فيكون أكثر حكمة، وعلم صديقاً فيزداد علماً) (أمثال ٩:٩).

(طريق الجاهل مستقيم في عينه، أما الصانع المشورة فهو حكيم) (أمثال ١٥:١٢).

(قنية الحكمة كم هي خير من الذهب وقنية الفهم تختار من الفضة) (أمثال ١٣:١٥).

(الدرس يؤدي إلى العمل) (التلمود).

(الحكمة المخبأة والكنز المكنوز ماذا ينفع بهما؟) (سفر الحكمة).

(حكمة الإنسان المتعلم تأتي من فرصة الراحة) (سفر الحكمة).

(المساير للحكماء يكون حكيماً، ورفيق الجهّال يضر) (أمثال ٢:١٣).

(لا تلميذ أعظم من معلمه، ولا خادم أعظم من سيده).

٣-ومن العهد الجديد (الكتاب المقدس) نقرأ:

(الحكمة تبررها الأعمال) (متى ١٩:١١).

(ما أعمق غنى الله وحكمته وعلمه، وما أصعب إدراك أحكامه وفهم طرقه) (روقه ١١:٣٣-٣٤).

(أما أنت فتكلم بما يوافق التعليم الصحيح) (تيطس٢:١).

(ومن كان منكم حكيماً عليماً، فليبرهن عن حكمته ووداعته بحسن أدبه) (يعقوب٣:١٣).

٤-من العقائد الهندوسية:

(أربعة صنوف من البشر يحيطون بي علماً، اليوكي، والمتلهف للمعرفة، والمجدّ في المعونة والمقيم على الثقة بي بصيراً) (ع.هـ).

(نار المعرفة تلتهم الخبائث) (ع.هـ).

(أسوأ الوصمات وصمة اسمها الجهل) (ع.هـ).

(فضائل البراهمي المنبعثة في طبيعته هي: الهدوء، النصح النفسي، التدين، الطهر والصبر، والاستقامة، والقلم، ومعرفة حقيقة الأمور)(ع.هـ).

(التفكر طريق الخلود) (الداياپادا).

(من يتعلم قليلاً يشب كالثور، ينمو جسماً ولا يزداد علماً) (الداياپادا).

(إذا كانت معرفة عقيدة الإنسان غير مستقرة، وعقله مضطرباً فإن معرفته لن تكون كاملة) (الداياپاد ٢٨).

(إدراك ماهية الخير والشر هي المعرفة الحقيقية) (الهيتوباديسا).

(تضليل الجهلاء يسير)(الجانسقية).

(العلم يتوج المثابرة بالنجاح)(الجتاكاس ٤٧).

(ثبت نفسك باللياقة أولاً ثم علّم) (الجتاكاس ٤٠).

(إذا كنا عقلاء فإننا نزرع العقلاء والحكماء" (الجتاكاس ٥٢٥).

٥-ومن أقوال زرداشت:

"بالفكر، والكلمة، والفعل، بينهما يختار الرجل الحكيم جيدا، ولا يعقل هكذا الأحمق".

"عسى من خلال الحق أن يتمم خالق الوجود بواسطة العقل الخيّر ....الإصلاح و التجديد".

"الفكر الصامت علمني الخير الكثير".

٦-ومن أقوال كونفوشيوس:

"الحكمة هي معرفة الإنسان".

"على المعلم أن يتذكر دائماً أربعة أشياء، علمه ، وسلوكه، نزاهته، وولاءه".

"ألا يؤدي الشعور بالرضى، أن يتعلم الإنسان وأن يمارس ما يتعلمه؟".

٧- ومن أقوال بوذا:

"إن الخليقة بأسرها انبثقت من العقل وتخلفت في التشبيه بأخلاق ما حولها، والعقل الأصيل فيها هو الذي يكون على استعداد لقبول البركة أو اللعنة".

رابعاً: قيم الحكم والإدارة (التدبير)

وتستكمل الأديان وظيفتها الأخلاقية بالوظيفة القانونية النظامية من خلال جملة من التوجيهات والإرشادات الحكيمة التي تنظمها نصوصها في مدار الحكم والإدارة وتكتسب هذه النصوص أهميتها كونها قد جاءت من سدة الحكم الإلهي، أو من منصة الخبرة والممارسة في شوط الحياة معتبرة ومستلهمة روح البلاغ السماوي.

وحيث أن بعض الأديان قد مارست دورها في الحكم على نحو مباشر، أو غير مباشر ناقلة أطروحتها النظرية إلى خير الواقع بقدر ما، فإن قراراتها أو مقرراتها التشريعية والتوجيهية في هذا السياق يكتسب أهميته الخاصة.

ونعرض في الآتي مقتطفات من نصوص الشرائع الدينية وهي تتناول مسائل محددة من هذا الجانب وبقدر من التوافق الموضوعي بينها.

١- في القرآن والحديث النبوي نقرأ:

(وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (المائدة: ٤٢).

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) (الشورى: ٣٨).

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) (النساء: ٥٨).

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (النساء: ٥٩).

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) (يونس: ٣).

(إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) (القصص: ٢٦).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)(الحجرات:٦).

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً)(الإسراء: ٣٤).

(ألا كلكم راع .... ومسؤول عن رعيته) (حديث شريف).

(ما من عبد يسترعيه الله رعيته يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة) (حديث شريف).

(من استعملنا منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوق كان غلولاً يأتي به يوم القيامة) (حديث شريف).

(يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليها فيها) (حديث شريف).

(إن الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ ما أمر به فيعطيه كاملاً موفراً طيبة في نفسه، فيدفعه إلى الذي أمر به له) (حديث شريف).

٢- ومن الكتاب المقدس (العهد القديم) نقرأ:

(هو ذا السفن وهي عظيمة بهذا المقدار تسوقها رياح عاصفة تديرها دفة صغيرة جدا إلى حيثما تشاء قصد المدير) (يعقوب٣:٤).

(كل من يزاول العدل والإحسان فكأن ملأ الدنيا بالحنو) (آباء).

(حكم واحد يكون لكم، الغريب يكون كالوطني) (لاوبين).

(حيث لا تدبير يسقط الشعب، إما الخلاص فبكثرة المشيرين) (إذا ساد الصديقون فرح الشعب، وإذا تسلط الشريرون يئن الشعب)(أمثال ٢:٢٩).

(تحفظ الدنيا بثلاث: الصدق والعدل والسلام) (آباء).

(لا تحكم وحدك إذ من يحكم وحده إلا الواحد) (آباء).

(الشريعة فوق الكهنوت وأعظم من الإمارة) (آباء).

٣- ومن (العهد الجديد) - من الكتاب المقدس نقرأ:

(تعلمون أن رؤساء الدول يسودونها، وأن عظماءها يتسلطون عليها، فلا يكف هذا منكم، بل من أراد أن يكون الأول فيكم، فليكن عبداً، هكذا ابن الإنسان جاء لا ليخدمه الناس، بل ليخدمهم ويفدي بحياته كثيراً منهم)(متى ٢٠:٢٦-٢٨).

(لا تحكموا على الظاهر، بل احكموا بالعدل) (يوحنا ٧:٢٤).

(أنا الراعي الصالح، والراعي الصالح يضحي بنفسه في سبيل الخراف) (يوحنا ٩:١١).

(أهم ما في الشريعة العدل والرحمة والصدق وهكذا ما كان يجب أن تعملوا به من دون أن تهملوا ذلك، أيها القادة العميان)(متى ٢٣:٢٣-٢٤).

(من كان أميناً على القليل، كان أميناً على الكثير، ومن أساء الأمانة في القليل أساء الأمانة في الكثير) (لوقا ١٦:١٣-١٤).

٤- ومن العقائد الهندوسية:

(اعتداد الكشاتري المنبعث من طبيعته، يفقد بالشجاعة والحدة، والجلد، والمهارة، والكفاح والسخاء وسماء بنبل سيد القوم) (ع. هـ).

(في نفس كل امرئ مرشد يرسم أعماله، ويشد فيها أوتارا يختارها فيرقص على أنغامها) (ع. هـ).

(من يؤدي واجبه المناط به، مهما كان نوعه، مثابراً وقانعاً يمسك بناصيته الكمال) (ع.هـ).

(العمل الصالح غير مشروط، مجرداً عن الهوى) (ع.هـ).

(الحظ والإدارة يسيران متلازمين) (الهيتوباديسا).

(خلق الله الملك ليصون البلد وليدافع عنه، ولذلك لا تحتقر ملكاً وإن كان طفلاً، لأنه إله في صورة إنسان فوق الأرض، وقد فتح الله الملك للسلطان الذي يعاقب به المذنبين، فلا ملك إلا بسلطان، ولا طاعة بسلطان الملك) (ع.هـ).

(على الملك أن يصطفي لنفسه الوزراء من الأسر الطيبة ممن اتصفوا بالعلم والشجاعة والنزاهة) (ع.هـ).

(على الملك أن يختار سفراءه من أهل العلم والفراسة الذين تكفيهم الإشارات للنفوذ إلى الأسرار العميقة) (من منودهرما ساستر).

(حين ينعدم العقلاء يسود قليلو الذكاء) (الهيتوباديسا).

(أحفظ بذرة المشورة ضمن قشرة الصمت) (الهيتوباديسا).

٥- ومن البوذية نقرأ:

(إذا وجدنا شخصا سجن ألفاً، ورجلاً آخر سجن هوى نفسه، فإن الآخر هو أفضل الذين يسيطرون على الأمور، ولئن يسيطر المرء على نفسه أفضل من أن يسيطر على أناس آخرين).

٦- ومن أقوال زرادشت:

(المصلحون المقبلون على الناس، هم الذين، من خلال العقل الخيّر، يناضلون بأعمالهم لينقذوا الحكم الذي أمرت به،أيها الرب الحكيم، كحق...لأنهم الأعداء المعينون ضد روح الشر) (ترانيم).

(عسى أن يحكمنا الأتقياء لا الأشرار) (ترانيم ٤٨:٥).

(بالنسبة للشرير والمستقيم... وهذا الذي يجمع بين الخطأ والصواب... ستكون المحاكمة بالنظام القائم... تبعاً لقوانين الوجود) (ترانيم ٣٣:١).

(إن القرار سيكون في مملكتك، أيها الرب الحكيم، وهي أيضا مملكة الحق) (٣٢:١-٦).

٧- ومن الكنفوشية نقرأ ما يمثل قوام الفكر الإداري الحديث:

(سئل كونفيوشيوس: ما هي في رأيك مقومات الحكومة الصالحة؟ فأجاب: على الحاكم أن يقدر المزايا الخمس: العطاء بغير إسراف والضرائب بغير إثارة وتذمر، والرغبة بغير جشع، والعظمة بغير عجرفة، والجلال بغير قسوة، لذلك عليه أن يتجنب الشرور الأربع: فرض العقوبة بدون نص قانوني فإنه الطغيان، وتوقع الانصياع الفوري للأوامر فإنه السرقة، وفرض الضرائب والإنفاق بتقتير فإنه إساءة استعمال الحكم).

(ليبد الزعيم الاستقامة في خلقه كي تنتظم الأمور حتى بغير توجيهات).

(الرفيع يفكر في أخلاقه، والوضيع يفكر في مركزه، الأول منها يفكر في العقوبات على الخطأ، والآخر بالمثوبة).

(ليرفع زعيم القوم ذوي القابليات، وليرشد من تنقصه، وبذلك ينصاع إليه برغبة) (٧٦).

ومن جماع تلك القيم التي انتظمتها تلك النصوص والكثير منها الوارد في ثنايا كتب الشرائع الدينية، يتشكل الدستور الأخلاقي للسلوك والذي تستمد منه القوانين الوضعية، وبقدر متفاوت، غايتها في السمو والتجرد، وقد قامت على هدي تلك المواثيق الخلقية بعض من سلطات الحكم استمدت منها إرشادها الحكيم في حكم عادل ومنصف، في هذا المكان أو ذاك، وفي كلها فالدين في جوهره عقيدة للسلوك الأخلاقي، يستفيد من قيمها ومثلها الحاكم والمحكومة في إرشاد نظم الحكم والإدارة.

وإلى جانب تلك القيم والمفاهيم في الأبواب المذكورة فإن ثمة مواردا

أخرى في الفكر الديني قد تركت بصماتها في بالغ التأثير على القيم الأسرية، وفي العلاقات الإنسانية مما يرد في شرائع الأديان ما يوفي الكيان الاجتماعي حقه من الترابط والألفة والانسجام ما يحقق أهداف الدين الروحية.

الفصل الرابع

الإبلاغ الرسالي

—حصة مشتركة من العناء والمكابدة ـ

مكابدات وعناء الإبلاغ الرسالي !

(حصة مشتركة) !

تولِّد حالة الارتطام بالواقع الاجتماعي أشكالاً من العناء والمكابدة تتناسب في شدتها ومدتها مع الظروف والاعتبارات السائدة في كل مجتمع.

والأنبياء، والرسل، وحكماء المعرفة، وفلاسفتها من بين أخص الناس الذين تلقوا وافرا من المكابدة والعناء كونهم قد ارتطموا مع واقعهم بما لا يتناسب ويتوافق مع الأهواء والنزعات الغالبة، وما يتحكم في وسطهم الاجتماعي من قيم ومفاهيم، متحملين أعباء التنفيذ لأوامر ملزمة من السماء، أو من وحي ضمائرهم، أو تقريرات عقولهم في أن يبلغوا رسالاتهم ودعواتهم بلا تردد أو توكل أو تواكل، وبلا خشية من ردود الأفعال المناهضة لدعواتهم.

والأنبياء كلهم، وكذا أصحاب الدعوات الدينية، قد أوذوا واستهزأ بهم قومهم، وواجهوا مع من آمن بهم العنت الشديد، وقد نوه السيد المسيح لذلك في موعظته لتلاميذه على الجبل، مبشراً ومنذراً ومهنئاً المضطهدين من أجل الحق بما يتحملونه ويلقونه من أنواع النكال والتنكيل:

(ها أني أرسلكم مثل الخراف بين الذئاب فكونوا حذرين كالحيات، ودعاء كالحمائم، وانتبهوا.... لأن الناس سيسلمونكم إلى المحاكم، ويجلدونكم في المجامع، ويسوقوكم إلى الحكام والملوك من أجلي، سيسلم الأخ أخاه إلى الموت والابن ابنه، ويتمرد الأبناء على الآباء ويقتلونهم، ويبغضكم جميع الناس من أجل اسمي، والذي يثبت من النهاية يخلص، وإذا اضطهدوكم في مدينة فاهربوا إلى غيرها) (متي ١٠:١٦-٢٣، مرقس ١٣:٩-١٣، لوقا: ١٧-١٢).

(هنيئاً للمضطهدين من أجل الحق لأن لهم ملكوت السموات، افرحوا وابتهجوا لأن أجركم في السموات عظيم، هكذا اضطهدوا الأنبياء قبلكم ...) (متى ٥:١٠-١٢، لوقا ٦:٢٠-٢٢).

ويورد الكتاب المقدس شكوى (إيليا) نبي إسرائيل إلى الله تعالى: (يا رب قتلوا أنبياءك وهدموا كل مذابحك، وبقيت أنا وحدي وهم يريدون أن يقتلوني...) (روقه ١٠:٣).

ويفيد القرآن الكريم أن المعاناة كانت حصة الأنبياء جميعاً في قومهم: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ) (ص: ١٤).

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) (المؤمنون: ٤٤).

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ)(الفرقان: ٣١).

بل أن مجرمي البلدان وشياطين الأنس والجن قد تضافروا لعداء الأنبياء: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)(الأنعام: ١١٢).

ومن بعض ما لقي النبي محمد ﷺ من مشاهد الإيذاء ما عرض له في بعض أحاديثه، فقد روي عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنه) قوله: (كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول:(رب أغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) [٧٧].

وإننا لنتجاوز عناءات ومكابدات الرسل والأنبياء الأولين منذ عهد نوح وحتى سيد المجددين إبراهيم، لنعبر ذلك المشوار الطويل من مشقات الإبلاغ

الرسالي – والتي لا يتسع بحثنا لإيرادها فيما اتسعت نصوص الكتب المقدسة لإيرادها تفصيلاً أو إيجازاً– لنقف عند المحطة الجديدة من شوط الإبلاغ الرسالي والتي بلغت فيها مسيرة الإيمان ذروة تألقها ممثلة بتلك النتائج الباهرة التي حققتها الأديان السماوية الماثلة الآن، وبأزاءها بعض من الأديان غير السماوية التي تطاولت على الزمن ليمتد بها العمر وهي فتية، يانعة إلى الحاضر، فيما يشكل استحضار معاناة رسلها ورواد مسيرتها الأولين تمثيلاً لصور ذلك العنت والمكابدة من أقوام شتى، قد اندثر البعض منها أو تقلص دوره وبقي الشاخص منها يتطاول على الزمن باحتمال وصبر المؤمنين بها والذين واجهوا، ويواجهون في كل دورة من دورات الإبلاغ لدعواتهم حصتهم من العنت والمشقة.

وإن مسيرة الرسالات السماوية لتجسد أوجه ذلك العناء الذي احتمله أولو العزم من رسلها الصامدون،المثابرون،الذين نحتوا على لوحة الوجود عمائرهم بالجلد والصبر، أنهم كانوا رموز المسيرة الرسالية بكل تبعاتها وتكاليفها، فقد كان على النبي موسى أن يبلغ الجبار فرعون رسالة كان أقلها عليه التنكيل والاضطهاد ثم القتل، مما لم يجرؤ عليه أحد سواه، ولم تشفع لموسى معاذيره في التردد خشية أن ينتقم منه الحاكم المتجبر، أو من يتربص للاقتصاص منه بعد أن انتصر لواحد من شيعته (فقتل الذي هو من عدوه)، أو لا يفلح أمره مع سحره فرعون، أولا ينطق لسانه، لتسد أمامه كل الأعذار كي يمضي قدماً في إبلاغ ما كلف به من أمر رباني ملزم، ويلقي الذي كان من فرعون الذي لم تفلح معه كل معجزات موسى الربانية لتثنيه عن تحرير شعب إسرائيل من ربقة العبودية والاضطهاد).

ولنترك المجال للكتاب المقدس وهو يروي لنا– عدا رواية القرآن الكريم– وافراً من أحداث المرحلة الموسوية نبذا من أوجه تلك المعاناة

التي كابدها موسى مع فرعون ومع قومه هو تذرع موسى في البدء لربه بعثرة لسانه (استمع أيها السيد لست أنا صاحب كلام منذ أمس، ولا أول من أمس، ولا حين كلمت عبدك، بل أنا ثقيل الفم واللسان، فقال له الرب: من صنع الإنسان فما أؤمن يصنع أخرس أو أصم أو بصيراً أو أعمى).

(إذهب وأنا أكون مع فمك فقال استمع أيها السيد بيد من ترسل، فحميّ غضب الرب، وقال: "أليس هارون اللاوي أخاك، أنا أعلم أنه هو يتكلم... فتكلمه وتضع الكلمات في فمه وأنا أكون مع فمك وفمه) (خروج ٣:٤).

ومع كل عجائب المعجزات التي جعلها الرب في يد موسى والتي وضعها أمام فرعون حيث أمره الله بالقدرة على أن يأخذ عصاه ويمد يده لتمتد على أنهار المصريين وعلى سواقيهم وعلى آجامهم، وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دماً، وضرب التخوم بالضفادع التي صعدت ودخلت بيت فرعون حتى مخدعه وسريره وبيوت حاشيته وتنانيره، وضرب تراب الأرض ليصير بعوضاً في جميع أرض مصر، وإرسال الذباب إلى بيوت فرعون وبيوت عبيده، وإرسال الوباء الثقيل في الحقل ليكون على مواشي فرعون والمصريين، وإرسال موسى لرماد الآتون وذره نحو السماء أمام عيني فرعون ليصير غباراً على كل أرض مصر، فيصير على الناس والبهائم دما بل طالعه بثبور، وإنزال الرعود والبرد والنار التي جرت على الأرض وإرسال الجراد على التخوم ليغطي وجه الأرض ليأكل الفضلة السالمة من البرد، ويأكل جميع الشجر النابت في الحقل، ثم الظلام الدامس في أرض مصر لثلاث أيام... وهكذا في تسع آيات بينات جاء على ذكرها الكتاب المقدس وأوردها القرآن الكريم إيجازاً.

وبعد كل آية كان فرعون يتضرع لموسى بأن يناشد الرب ليتجاوز

عما يصيبه وقومه من المحن، فلما يكون ذلك يرجع فرعون إلى مكابرته، حتى ضرب الرب كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون إلى البكر الجالس على عرشه، إلى الأمير في السجن، وكل بكر بهيمته حتى قام فرعون ليلاً هو وجميع عبيده وجميع المصريين، وكان صراخ عظيم في مصر، لأنه (لم يكن بيت ليس فيه ميت) بعدها ألح المصريون عليه ليطلق سراح بني إسرائيل عاجلاً من الأرض ليرحلوا بعدئذ من عمسيس إلى سكوت في نحو من ستمائة ألفاً من الرجال عدا الأولاد (خروج ١٢:٣-١٢).

ولم تنته معاناتهم، إذ أن هؤلاء الذين أطلق عليهم الكتاب المقدس اسم "أجناد الرب" ضلوا الطريق إلى أرض فلسطين وتاهوا في بحر سوف فيما لحقتهم جيوش فرعون الذي شد مراكبه المنتخبة ليسعى وراء قوم موسى ليدركوهم وهم نازلون عند البحر عند فم "الحيروث" أمام بعل صفون، فيما فزع بنو إسرائيل وارتدوا على موسى قائلين: (ماذا صنعت بنا، أأخذتنا لنموت في البرية، وأنه لخير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية...!) ولم يكن لموسى في خضم تلك المحنة إلا أن يحيلهم إلى الصبر منتظراً إخلاص الرب الذي سيضعه ذلك اليوم، وجاءت المعجزة الإلهية لموسى أن ارفع عصاك ومدّ يدك على البحر وشقه فيدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة، وهاأنذا أشدّد قلوب المصريين حتى يدخلوا وراءهم فأتمجد بفرعون وكل جيشه بمركباته وفرسانه فيعرف المصريون أني أنا الرب).

فانتقل ملاك الرب السائر أمام عسكر إسرائيل وسار ورائهم وانتقل عمود السحب من أمامه ووقف وراءهم فدخل بين عسكر المصريين وعسكر إسرائيل، وصار السحاب والظلام وصار الليل، ومدّ موسى يده على البحر فأجرى الله البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة. وانشق الماء فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم وتبعهم

المصريون وأدخلوا وراءهم جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه ولما كان هزيع الصبح أزعج عمود النار والسحاب وخلع بكر مركباتهم حتى ساقوها ثقيلة ليهربوا بعدها.... ثم مدّ موسى يده على البحر ليرجع عند إقبال الصبح إلى حالته الدائمة، والمصريون هاربون إلى لقائه، فدفع الرب المصريين في وسط البحر فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون فيما مشى بنو إسرائيل على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم ويسارهم) (خروج ١٤-١٥:١٤).

وابتدأ فصل جديد من المحنة إذ ارتحل موسى وبنو إسرائيل من بحر سوف ليخرجوا إلى برية شور ليسيروا ثلاثة أيام في البرية، ولم يجدوا ماء فجاءوا إلى مارّة ولم يقدروا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر فتذمر الشعب على موسى مرة أخرى، وصرخ إلى الرب فأراه الله شجرة فطرحها في الماء فصار الماء عذباً، ثم جاء إلى إيليم وهناك اثنتا عشر عين ماء، وسبعون نخلة فنزلوا عند الماء ثم ارتحلوا، وأتى كل جماعة من بني إسرائيل إلى برية سين (سيناء) في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني بعد خروجهم من أرض مصر (خروج ١٦:٦).

وقد ورد مصداق تلك الحوادث في القرآن الكريم مفصلة في الآيات (٤٩-٦٦)من سورة البقرة (١٠٥-١٤٢)من سورة الأعراف و(١٠١-١٠٤) من سورة الإسراء، والتي توافقت مضامينها مع ما ورد في الكتاب المقدس من الحوادث التي أغضبت موسى وآلمته، ومنها تحديداً ما كان من "اتخاذهم العجل" وثناً صنعوه من حليّهم بعد أن غاب عنهم موسى وخلفه هارون يوم صدع لأمر الله ليصعد إلى الجبل ليلتقي منه الألواح التي جعل فيها (من كل شيء موعظة وتفصيلاً) وحيث كادوا أن يهموا بهارون ويقتلوه، وبالكاد استطاع موسى أن يثنيهم عن ذلك الارتداد حيث "أخذ الألواح وفي نسختها

هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون"، واختار موسى سبعين رجلاً للميقات الذي حدده الله لهم ليريهم معجزته وقد كادوا ليهلكوا من فرط ما ارتهبوا، فقال موسى كما نص البلاغ القرآني:

(رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ) (لأعراف: ١٥٥).

وعدا ذلك من المشاهد المثبتة في النصوص المقدسة فإن قدراً لا يستهان به من الإيذاء قد لحق بموسى من قومه، ومن بعض ذلك ما وردت الإشارة إليه في نص قرآني متبوع بتعقيب للرسول محمد (ﷺ) بشأنه، وخلاصته أن:(موسى عليه السلام قد وجد يوماً ما يمنعه أن يغتسل مع جماعة فاتهمه البعض بأنه (آدر- أي منتفخ الخصيتين) فآلمه ذلك حتى برأه الله مما قالوا بأن وضع ثوبه على الحجر ليغتسل ففر الحجر كما ذكر حتى وقف بين ملأ من بني إسرائيل فأدركه موسى فأخذ ثوبه واستتر به فرأوه ولا إدره به) وقد وردت الإشارة لذلك في القرآن الكريم في معرض نهي البعض من التعامل المؤذي للنبي محمد ﷺ بمثل ما أوذي موسى من قبل وبه جاء قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً) (الأحزاب:٦٩).

وقد روى الشيخان بصدد ذلك عن عبد الله بن مسعود قوله: (قسّم رسول الله ذات يوما قسماً فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله فأحمر وجهه ثم قال رحمة الله على موسى فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر)[٧٨] .

كذلك كان شأن الرسول عيسى عليه السلام، الذي لقي من مقاومة

وعنت الفريسيين المتزمتين والكهنة وشيوخ المدينة،قدراً لا يستهان به مما ورد الوافر منه في ثنايا الكتاب المقدس، ليغالب القدر صابراً متحسباً ليشق طريقه الصعب إلى قلوب الناس بعد أن شق الدهر أوصاله عذاباً مراً وليرتحل عن الدنيا وهو يكابد العذاب والألم وقد تحمل قبله يوحنا المعمدان- يحيى- عليه السلام قدراً وافراً من المكابدة والعناء، حتى لقي حتفه بتلك الطريقة البشعة في سجنه على يد جندي من جنود الملك هيردوس.

وبقدر ما غمرت السعادة نفس السيد المسيح في الدورة الأولى من بدء دعوته وهو يرى اجتماع الناس إليه وتقديسهم إياه، للبركات والمعاجز التي أظهرها، فإن قدراً لا يستهان به من الألم والمعاناة قد أصابته في أواخر حياته على الأرض حيث شهد خيانة أحد تلاميذه الاثني عشر والذي تآمر عليه مع رؤساء الكهنة وشيوخ المدينة للقبض عليه، وإنكار أحد تلامذته له بعد أن حملوا عليه حملته الشعواء، وقد شهد عليه البعض شهادة الزور، وتجرأ البعض عليه أثناء ذلك -حتى أنه- وكما يخبرنا الكتاب المقدس: (بصقوا في وجه يسوع ولطموه، ومنهم من لكمه، واستهزأ به البعض فقالوا: تنبأ أيها المسيح من ضربك... ثم أخذ إلى مقر الحاكم وانتزعت عنه ثيابه وألبس ثوبا قرمزياً وضفروا له إكليلاً من شوك وضعوه على رأسه، وركع الجنود أمامه مستهزئين به، يبصقون عليه، ثم أنزعوه الثوب ليلبس ثيابه، ويساق ليصلب) لكل ذلك جرى لشخص السيد المسيح في أواخر حياته الشريفة على الأرض ليلقى قدره المؤجل من المعاناة والمكابدة.

وقد تحمل السيد المسيح ذلك القسط من النكال والتنكيل معلناً لتلاميذه أن ذلك هو قدره المحتم، مذعناً بإيمان راسخ لهذا القدر المحبب، قائلاً لواحد من تلامذته الذي مدّ يده إلى سيفه يستله ليضرب خادم رئيس الكهنة فيقطع

أذنه:"رد سيفك إلى مكانه فمن يأخذ بالسيف يهلك، أتظن أنى لا أقدر أن أطلب إلى ربي، فيرسل لي في الحال أكثر من اثنتي عشر جيشا من الملائكة...؟،معلناً أن ذلك كله قد حدث: لتتم كتب الأنبياء".

والسيد المسيح في معاناته تلك قد جسّد قول كونفوشيوس: (هناك من قضوا على حياتهم سعياً وراء الكمال)... والواقع أن السيد المسيح قد سعى للكمال الروحي لذات الله لتظل شريعته قائمة، فكان بالحق ممن وصفهم الله في القرآن الكريم:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) (الأحزاب:٢٣).

وتحمل رسل السيد المسيح من بعده قسطاً لا يستهان به من ذلك النكال والتنكيل، فهذا بولس الرسول يصف ما تحمّل:

(تعرضت للموت مراراً، جلدني اليهود خمس مرات تسعاً وثلاثين جلدة، وضربني الرومانيون بالعصي ثلاث مرات، ورجمني الناس مرة واحدة، وانكسرت بي السفينة ثلاث مرات، وقضيت نهاراً وليلة في عرض البحر، وفي أسفاري المتعددة تعرضت لخطر الأنهار واللصوص، ولخطر اليهود وغير اليهود، وواجهتني أخطار في البراري، وأخطار في البحر، وأخطار من الأخوة الكذابين، وعانيت الكد والتعب والسهر الدائم، والجوع والعطش والصوم الكبير، والبرد والعري... وهذا كله إلى جاني ما أعانيه كل يوم من اهتمام بجميع الكنائس) (كورنثوس٢:٢٥-٢٧).

وقد واجه الرسول محمد ﷺ قدره في مهمات الإبلاغ الرسالي بالاعتماد على ممكنات الذات باحثاً عن الإسناد الأرضي في أرض تهتز تحت قدميه عناداً ومكابرة من أهلها، أكثر من بحثه عن إسناد السماء حتى استطاع أن يجد بعد المكابدة الطويلة ذلك الإسناد البشري من نخبة الرجال المؤمنين

الذين صدقوا وعد الله فيهم ليحتملوا مع الرسول الكريم جانباً من عبء الرسالة بمثل ما تحمل تلاميذ السيد المسيح أعباء التنفيذ لرسالة معلمهم الأكبر الذي آزره الإسناد السماوي كما آزر الرسول الكريم موسى في جملة من المعجزات لتأدية مهامهم الرسالية.

ولم تشفع لمحمد مقدرته عند أول بلاغ إلهي بالجهر بدعوته: (ما أنا بقارئ) بل كان لزاماً عليه أن يعي مضامين الوحي ليمضي في مهمة الإبلاغ والتي تدرجت من الدائرة الصغرى (عشيرته الأقربين) لتصل إلى مداها الأرحب في أرجاء الأرض، و لتتدرج رحلة العناء في كل مرحلة من مراحل ذلك الإبلاغ، إذ لقي الرسول محمد ﷺ وهو يجاهر في الدعوة ألواناً من التنكيل والشدة حتى من أخص أقربائه، ومن جملة قومه، فقد كان أبو جهل – عمه–،وعقبة بن أبي معيط يلقيان بالقذرة والنتن على بابه، واتّبع أبو جهل أساليب خاصة لفتنة من يدعوهم الرسول إلى الإسلام تتفق مع ميولهم ووضعهم الاجتماعي، فيأتي الرجل الشريف فيقول له: (أتترك دينك ودين أبيك، وهو خير منك) ويقبح رأيه ويسفه حلمه ويضع شرفه، وإن كان تاجراً يقول له:" ستكدس تجارتك ويهلك مالك"، وإن كان ضعيفاً أغرى به حتى يعذب، وكان "الأسود بن عبد يغوث" – ابن خال محمد ﷺ– يستهزئ بالمسلمين وإذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه: (هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون كسرى!) وما أشبهها.

أما الحكم بن العاص فكان يتصدى للنبي ويشتمه ويمشي وراءه يحاكيه في مشيته ويخلج بأنفه وفمه، وكان يتطلع عليه في داره، وكان النبي ﷺ قد رآه على هذا الحال فقال: (من غديري من هذه الوزغة (دويبة)) وكانت مقابلته له حين مكّنه الله من الأمر أن لا يساكنه المدينة ما أقام وكان هذا حاله مع قاتل عمه العباس[٧٩].

وكانت تختلف أقوال قريش في محمد، وللناس الذين كانوا يأتون مكة يسألون عنه، فيقولون عنه (شاعر، أو كاهن، أو مجنون)، وفي الطائف حين قصدها الرسول ﷺ داعياً إلى الله واجه أذى كثيراً من ثقيف، حيث شدّوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأغروا به سفهاءهم ليؤذوه شر إيذاء، وقد استجار بالمطعم بن عدي بعد رجوعه من الطائف فتسلح المطعم وأهله وخرجوا حتى المسجد الحرام ليدخل الرسول مكة في أمانته بعد ذلك.

ومن بعض ما لقيه الرسول محمد ﷺ من الإيذاء وهو يواصل مهمته الدعوية أن القوم اجتمعوا عليه مرة ليقتلوه حيث أخذه عقبة بن أبي معيط بردائه وقام أبو بكر رضي الله عنه دونه يبكي وهو يقول: (ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟!) فانصرفوا عنه وفي كل ذلك كان محمد ﷺ يتلقى تبعات إبلاغه بالصبر الجميل تشد عزيمته نداءات ربه:

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً) (المزمل: ١٠).

وتدفعه إلى غايته ثقة بالنصر والوعد الحق:

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ) (الروم: ٦٠).

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (هود: ١٢).

ويطمئن الوحي الرسول بأن تكون له الأسوة الحسنة بصبر سابقيه أولى العزم من الرسل:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) (الأحقاف: ٣٥).

(وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ

وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ) (الأنعام: ٣٤).

وبقدر ما أصاب الرسول محمد ﷺ من الأذى فإن المؤمنين الأولين كانت لهم حصة وافرة من الأذى والملاحقة، وقد حفلت المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية بألوان من الاضطهاد والعنف الذي مارسته قوى الشرك المتنفذة في مكة وهي ترى في دعوة الإسلام خروجاً على قانون حياتها وانتهاكاً لحرمة ما ألفوه من معتقداتهم الوثنية، مقابل صور مجلاة من التضحيات التي قدمها المسلمون الأوائل وبشكل خاص المستضعفون منهم، والذين لم ينتموا إلى قبائل قوية وذات شأن تمنع عنهم، أو كانوا في الأصل أرقاء مستعبدين لبعض أسياد قريش، حيث كان هؤلاء عرضة لاضطهاد وتنكيل مباشر من أوليائهم لحملهم على نبذ عقيدة التوحيد، فكان نصيب بلال بن رباح، وصهيب بن سنان، ولبيبة جارية بني نوفل، وزنيرة.... وغيرهم من العذاب كثيراً ومؤثراً، حيث كانوا يلصقون بصدورهم وظهورهم على الرمضاء، ويلقون بالرضف- وهي الحجارة المحماة بالنار-عليهم ويلوون رؤوسهم، ويضربون بالسياط..الخ.

وكانت عائلة ياسر- الرجل المسن- تعذب كلها عذاباً مرّاً حتى أن ياسر قد مات في العذاب، وأغلظت زوجته سميّة القول لأبي جهل فطعنها بحربة في يده فماتت، وشدّدوا العذاب على ابنها ياسر بالجر تارة، وإلقاء الحجر على صدره، وبالتغريق تارة أخرى، وكانوا يقولون له: لا نتركك حتى تسب محمداً، وتقول باللات والعزى خيراً، ففعل مكرهاً فتركوه فأتى النبي وهو يبكي لما فعل، ولم تسلم النساء المؤمنات من ذلك العذاب الذي سيم به الرجال، فتلك لبيبة جارية بني نوفل، كان عمر يعذبها-قبل أن يسلم- حتى تفنن بها ثم يدعها، وكان يقول لها:" لا أدعك إلا سائمة" فتقول له: "كذلك الله يفعل بك إن لم تسلم"، كذلك كان حال زنيرة حتى عميت فقيل لها: "إن اللات

والعزى فعلا بك" فقالت: "وما يدري اللات والعزى من يعبدهما، ولكن هذا أمر من السماء وربي قادر على رد بصري"، وقد ردّ إليها بصرها، فقالت قريش: "هذا سحر من محمد" (٨٠).

وقد كانت الهجرتان الأولى والثانية إلى الحبشة من بين الإجراءات التي بادرت القيادة النبوية إليها لحماية رموز الإسلام من وطأة الشدة وبطش قريش الإذن بالهجرة إلى الحبشة في مجموعة بلغ عددها عشرة وقيل أحد عشر رجلاً وأربعة نسوة في السنة الخامسة من النبوة، وكان من بينهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت محمد ﷺ، وأبوه حذيفة بن عقبة وزوجته سهيلة بنت سهل والزبير بن العوام، وقد بقوا هناك زمناً ثم أقبلوا على مكة لما بلغهم ما أشيع عن إسلام أهل مكة حتى إذا دنوا من مكة وبلغهم إن ما كانوا تحدثوا به في ذلك باطلاً، لم يدخل أحد منهم إلا بجوار أو مستخفياً.

وضمت الهجرة الثانية إلى الحبشة أيضاً اثنين وثمانين رجلاً خرجوا في مجموعات صغيرة ومتفرقة، فخرج جعفر بن أبي طالب مع مجموعة وتتابع خروج الآخرين، فيما بقي رسول الله في مكة يدعو الناس للإسلام سراً وجهاراً مع طليعة من أشداء المسلمين، وقد أتاحت تلك المبادرة المجال للعناصر القوية من المسلمين في مكة لزيادة نشاطها بعد أن خفف عنها عبأ الدفاع عن مجموعة مستهدفة منها، وأنها قد أصبحت هدفاً مباشراً لمشركي قريش.

وهكذا كانت عذابات الأنبياء والرسل ومن آمن معهم امتحاناً لإرادة الإيمان فيهم، وفيها حصة مشتركة ما بين كل مرحلة وجيل من أجيال الإيمان وفيها وعد من الله بالنصر:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) (البقرة: ٢١٤).

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (آل عمران: ١٤٦-١٤٧).

وبقدر ما أصاب رسل الدعوات الدينية السماوية من العناء والمكابدة فإن قدراً من ذلك العناء قد شمل أصحاب الدعوات الدينية غير السماوية وبقدر متفاوت من الشدة والقسوة، وهو ما تمثله أجزاء من سيرتهم، وما عبروا عنه في جملة تقريراتهم وأحاديثهم، وتعتبر الزرادشية من بين الدعوات الدينية الموحدة غير السماوية التي عانى متبنيها ما لم يعان منه أصحاب الأديان الأخرى، أنها غالب بشخص داعيتها جوهر العقائد السائدة وقتها وهي الشرك والوثنية واستطاع لفترة أن يفرض بالجدل والمنطق الموضوعي سيادة هذا الفكر في بلده.

لقد رفع زرادتشت لواء الدعوة التوحيدية في وقت لم يكن أهل إيران كما ذكر مستعدين للإنصات له، إذ تعودا على آلهتهم وأصنامهم التي كانت بالنسبة لهم حقائق ملموسة، وقد تلقى ذلك الشاب الذي تطوع أبان غزو التورانيين لبلاده على مدى عشر سنوات في عمل من أعمال البر في علاج المرضى ومساعدتهم بعدها بدأ يطلب الحكمة في جبل سابلان وقد مرت عليه عشر سنوات رهيبة كما وصفت وهو يبحث عن مؤمنين به، لقي خلالها من العنت الشقاء والعذاب الكثير فقد تخلى عنه أهله وعشيرته منذ أن أعلن فيهم رسالته، وطردوه فترك مسقط رأسه وراح ينتقل من بلد إلى بلد تسبقه إليه شهرته في أنه رجل يسب الدين والكهنة فيخشاه الناس ويأبون استضافته، فلم يجد أمامه إلا أن يبيت لياليه الطويلة في حظائر الخيل والبغال والحمير، ثم وجد بعد عشر سنين من يدين به، ومضى بعدها إلى (بلخ) ليقدم نفسه للملك

كاشتاسب قائلاً له: (أنا زرادشت سبتاما نبي الإله الواحد الحكيم جئت إليك أيها الملك لأحول قلبك من الأصنام الشريرة التافهة إلى مجد إله حق خالد حكيم).

وقدم بين يدي الملك وكهنته عرضاً وجيزاً وبليغاً لفكرته عن الإله الواحد الحكيم (أهورامزدا) وصراع الخير والشر في الكون ومآله على نحو ما مر ذكره، ودخل في نقاش حاد ومتواصل مع الكهنة ورجال الملك استمر ثلاثة أيام وثلاث ليال أجاب خلالها على كل أسئلتهم، وكان من نتائج ذلك أن اعتنق الملك عقيدة زرادشت وأعلن اعترافه بزرادشت أنه النبي الحق لهذه العقيدة الجديدة، لكن زرادشت لم يسلم من كيد الكهنة الذين نصبوا له مكيدة رعناء، إذ أدخلوا في روع الملك أن زرادشت لم يكن سوى ساحر شرير، وانه إذا ما أمر بتفتيش غرفته فسيكتشف حقيقة أمره، ومن هناك عاد رسل الملك حاملين رؤوس قطط وكلاب ميته وعظاماً من كل نوع وأظافر وشعراً مما كان يتخذ وسيلة للسحر في تلك الأيام، وفوجئ الملك بما رأى فأصدر أمره للقبض على زرادشت وإيداعه السجن، فيما أمر الناس بالعودة إلى عقيدتهم الوثنية[٨١].

وبذلك فقد أسدل الستار على فصل فريد من فصول الدعوة التوحيدية في ذلك الزمان فيما ترك زرادشت وراءه تراثاً لا يستهان به من النصوص التي انتظمها كتاب (الافستا) وترك فئة من الناس لا تزال متصلة بعقيدته.

هذا فيما لم يلق (بوذا – غوتاما) مقاومة تذكر من بيئته حيث أنه دعا في البدء رفاقه الخمسة الذين زاملوه في فترة دعوته، ثم التف حوله مجموعة من الشباب بلغ تعدادهم الستين علمهم مبادئه، ووكل لكل منهم مهمة نشرها، ثم التف حوله عدد كبير من الرجال والنساء الذين كانوا يتخذون من بوذا مثالهم، وانتشرت دعوته المسماة بـــ(النظم) أو (عملية الشريعة) التي نشأت

في إطار الفكر الهندوسي في عامة مبادئها، ولم تلق أية مقاومة حتى أن قبيلة (سرور نابازارنتا) التي عرفت بالشراسة والخشونة كما ذكر قد قبلت دعوته، حيث استطاع مبعوث (بورونا) بأسلوبه المرن أن يجعلهم يؤمنون بالبوذية، ومثل ذلك فإن "الجينية" قد انتشرت على يد (مهاويرا) الذي ينحدر من أسرة الكاشتريا التي كانت تسيطر على أمور السياسة والحرب، وبدون أن تلقى مقاومة تذكر إذ سرعان ما استجابت له أسرته وعشيرته ثم أهل مدينته، وأخذت دعوته تنتشر بين الملوك والقوّاد الذين رأوا في دعوته -التي تقدم على قهر الشهوة والتغلب على الرغبات المادية -ما يعبر عن خواطرهم في الثورة على البراهمة (٨٢).

وهكذا نجد أن الإبلاغ الرسالي الديني قد قطع مشواراً طويلاً من العناء والمكابدة وهو يشق طريقه في الساحة الإنسانية في مراحل متعاقبة من الجهد الجهيد حتى استقر على هذه الأرضية الصلبة التي تقف عليها الأديان بمثل هذا التسامي والنفوذ في النفوس، وهي قد تسامت في البدء وفي النهاية بشخوص روادها ومريديها على العنت، وتطاولت على سفاسف الدنيا إلى سمو الروح ورفعتها، فكانت لها روابي العناء والعنت منصات للانطلاق صوب تحقيق مطامحها في تحقيق المجد الروحي للإنسان.

الفصل الخامس

نبوءات الأحداث

-دلالات للتوافق بين الأديان-

نبوءات الأحداث ...

دلالات للتوافق بين الأديان !

وأنت تقرأ هذه العبارة أو تلك، وهي تتردد على لسان هذا النبي أو ذاك، أو هذا الداعية إلى فكر ديني أو ذاك.

وأنت تطالع هذه الحادثة أو تلك من حوادث السيرة الرسالية أو الإبلاغية لأي دين أو مذهب، فإنك لتجد على بعد الزمن بينها تثبيتاً لحقائق التعاقب الدوري في التاريخ كما أسماها المؤرخ الإيطالي، (فيكو) وأجراها المؤرخ ابن خلدون قبله بمسميات أخرى.

سلسلة من الأحداث والرؤى تتجارى في روافد متصلة بقناة السماء يوم كانت السماء تغذي الأرض عن طريق رسلها بزاد الروح على دفعات تكاملت على إثرها الوظيفة الرسالية التي امتازت كما نرى بوحدة الموقف، ووحدة الكلمة في قضيتها مع السماء ويوم كان الإنسان ينظر إلى السماء فيتسامى فكره فوق أعراض الأرض ليرتقي بروحه حيث الملكوت الأعلى أملا بأن يحظى بالمنحة العلية من السماء.

ولم يكن التصديق بوحي الرسل وما يصدر عن ذلك الوحي بالأمر الهيّن اليسير، ولا كان الإيمان والتصديق بما أملى فلاسفة الدين وما دعوا إليه من الأفكار والمواعظ كذلك بالأمر الهيّن في ساحات انتصبت فيها أعمدة الرفض لدعواتهم كمثل ما مر ذكره، كما لم يكن ذلك التوافق ما بين رسالة وأخرى محض صدفة، أو توارد خواطر، أو قراءات في فكر بعضها البعض، بل كانت تجسيداً لحكمة البعث الرسالي، ووحدة مصدره... وأن تصديق الأحكام والحوادث كمثل تصديق الرسل كان من دلالات الوثوق التأريخي بالرسالات الدينية، وهو من فيض وثوق الخالق بمخلوقاته.

وأن رؤى الرسل في رحاب الملكوت السماوي حالة يتجسد منها بيان التكيف الإلهي في وثيقة يبلغها الرسول السماوي إلى الرسول البشري الذي يتم اختياره لمهمة الإبلاغ الرسالي من بين من تتوافر فيهم القدرة على أداء هذه الوظيفة الشاقة التي تتطلب المهارة الفائقة في تمكين الحكم الإلهي وقراره في أن يأخذ موقعه في نفوس البشر في دائرة الإبلاغ الرسالي.

وأنه بقدر ما يصعب التصديق بالرسل، فانه يصعب بالمقابل التصديق بنبوءاتهم وما يتحدثون به والتي تعد في أجزاء منها ضرباً من الخوارق والمعجزات، وأنه لكي تدرك الحقائق الرسالية فإنه لابد من إدراك شاهد الإعجاز الرسالي والذي يرتب اليقين بها يقيناً مقابلاً بكل ما تمثله من قيم واعتبارات روحية، كان من جملتها الإيمان بالغيب، والذي يعد جزءاً من مراتب اليقين بالدين، فلو لم يؤمن الإنسان بالدين كله ما كان له أن يؤمن بالغيب قطعاً، فالإيمان بالكل هكذا يرتب حالة الإيمان بالجزء.

وهناك من الرؤى والمشاهد في حياة الرسل والأنبياء ما يصعب إدراكها أو تصديقها في الحال، فقد تنبأ (أرميا) -أحد أنبياء اليهود الرئيسيين (٦٢٧-٥٨٠ ق.م) - بسقوط أورشليم، وتدمير هيكل سليمان فأرعب ذلك قومه وقتذاك فأخذ إلى مصر ورجم هناك رمياً بالحجارة لتنبؤاته الكئيبة والتي تحققت بالفعل، وتنبأ (أشعيا) بظهور يوحنا المعمدان وهو يبشر في برية اليهود:

(صوت صارخ من البرية،

هيئوا طريق الرب،

واجعلوا سبيله مستقيمة) (متى ٣:٣).

وتنبأ بولادة السيد المسيح:

(هاهي العذراء تحب وتلد ولداً)،

وقد كان يستشهد بالكثير من أقواله، في وقت يذكر الكتاب المقدس أن المجوس كانوا يبشرون بولادة السيد المسيح وما يكون من أمر دعوته، حيث أنه لما ولد في بيت لحم على عهد الملك هيرودس، جاء إلى أورشليم مجوس من المشرق فقالوا:

(أين المولود، ملك اليهود، رأينا نجمه في المشرق فجئنا لنسجد له)، وسمع الملك هيرودس فاضطرب هو وكل أورشليم، وجمع هيرودس رؤساء الكهنة ومعلمي الشعب، وسألهم: أين يولد المسيح؟ فأجابوا في بيت لحم، ثم دعا المجوس سراً وتحقق من منهم متى ظهر النجم، كما أرسلهم إلى بيت لحم وقال لهم:

"اذهبوا وابحثوا جيدا عن الطفل، وإذا وجدتموه فأخبروني حتى أذهب أنا وأسجد له!".

فلما سمعوا كلامه انصرفوا وبينما هم في الطريق إذا النجم الذي رأوه في الشرق يتقدمهم حتى بلغ المكان الذي فيه الطفل فوقف فوقه، فلما رأوا النجم فرحوا فرحاً عظيماً، ودخلوا البيت فوجدوا الطفل مع أمه مريم، فركعوا له وسجدوا، ثم فتحو أكياسهم وأهدوا إليه ذهباً وبخوراً، وأنذرهم الله في الحلم أن لا يرجعوا إلى هيرودس فأخذوا طريقا آخر إلى بلادهم (متى ٢:٢-١٢).

وقصة ولادة المسيح كما يبدو تماثل في ظروفها ولادة النبي موسى، فقد كان فرعون مصر يبحث عن كل وليد لبني إسرائيل إذ كان يدخل في روعه ما كان يدخل في روع هيرودس.

والطغاة هكذا كانوا يخشون من ولادة الأنبياء في أزمانهم، فيما يقضي الله أن يصونهم من الكيد كيما يتم لهم تبليغ رسالاته.

ويتوافق الكتاب المقدس مع القرآن الكريم في إيراد الحوادث الجارية

لموسى من ابتداء ولادته، واحتضان آل فرعون له من دون أن يدركوا ما يكون من شأنه معهم، ثم ما يكون من أمره مع شعيب، ثم مع فرعون في تلك الملحمة التي كان لها شأن كبير في التاريخ والتي يورد القرآن تفاصيلها في سورة القصص بشكل خاص على نحو ما يرد في إصحاحات سفر الخروج، كذلك فإن القرآن يورد تفصيلات وافية عن ظروف ولادة المسيح في سورة مريم خاصة، ونبذة من حياته مع قومه، ومعاجزه، وما كان من أمر قيامه في سور متفرقة وهي تتوافق ضمنياً مع ما يرد في العهد الجديد من الكتاب المقدس.

وكانت النبوءة اللاحقة بولادة خاتم الرسل محمد ﷺ إذ تنبأ (بحيرا الراهب) بما سيكون من شأن محمد ﷺ يوم وفد على بلاد الشام وهو غلام مع عمه أبى طالب في تجارة إلى خطورة شأنه وما يكون من أمره موصياً إياه بالمحافظة عليه، فيما يكون بحيرا بعدئذ من بين الثمانية من رهبان الشام الذين وفدوا على النبي ﷺ بعد رجوع المهاجرين من الحبشة ليستمعوا إليه ويعلنوا إسلامهم بين يديه، ويصدق (ورقة بن نوفل العزي) الرجل الذي تنصر،وكان يكتب الكتاب العبراني ويقرأ الإنجيل بالعبرانية ويفهم منه أمر النبوة، يستمع من محمد ﷺ قصة الوحي قائلاً:

(هذا الناموس الذي كان يتنزل على موسى، "يا ليتني كنت جذعاً، ياليتني كنت حياً إذ يخرجك قومك"، فقال رسول الله ﷺ:

(أو مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت أحد بمثل ما جئت إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً) ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة) (٨٣).

وهكذا فقد كانت النبوءات في الرسالات السماوية من أوثق الشهادات في مجرى الأحداث في التاريخ، فيما كان لبعض النبوءات أو الرؤى الخاصة

بمريدي أو منشئي البعض من الأديان غير السماوية حصة من ذلك وشأن يضارع في نتائجه عند بعض الشعوب والأمم ما كان في الأمم التي انبعثت فيها الأديان السماوية.

فالهندوسية والسيخية قد أخذت حصة وافرة من معتقدات الشعب الهندي وتوجهاته الروحية ما يضارع حصة التأثير للإسلام في الجزء الذي بلغته عقيدته من القارة الهندية، وقد نشأت السيخية ما بين الديانتين الهندوسية والإسلامية لتشق طريقها وسطا بين الحالتين عندما أعلن (ناناك Nanak) أنه لبى نداء إلهياً علوياً ليكون المبعوث للمسلمين والهندوس ولكل الطبقات الاجتماعية وكانت عقيدته توفيقية ما بين الإسلام والهندوسية كما مر ذكره، وانه بين الازدواجية بنيت ديانة السيخ مع الغورو أو المعلم ناناك في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد(٨٤).

وهكذا فإن هذه الديانة التي ولدتها نبوءة قد شقت طريقها لتستقطب الملايين من شعب رسخت فيه عقائد سابقة لهذه العقيدة المنشقة.

وكان من شأن نبوءة زرادشت بأن (اهورامزدا) الإله الحكيم قد كلفه بالدعوة له في الأرض أن تنشأ عقيدة موحدة في ساحة الشرك من بلاد فارس آنذاك، ما كان مقدراً لها أن تمتد على طول تلك الساحة حتى بعد أن جاوزت محنتها مع كهان الملك كاستاسب حيث انتصب أمامها المد التوحيدي الجارف للإسلام والذي حجم دورها لتنغلق على نفسها في بيئتها، ولتقفل باب الانتماء لديانتها، وهو ما صرح به زعيمها الروحي الإيراني (رستم شهزادي) بقوله: (إننا لسنا كالأديان الأخرى نقبل انتماء الآخرين إلى ديانتنا فالديانة الزرادشتية لا تقبل بانضمام أي فرد آخر إليها ما لم يكن من أبوين مجوسيين، وهذه القاعدة نعمل بها وعمل بها زعماؤنا الدينيون منذ الفتح الإسلامي لإيران قبل أكثر من ألف وثلاثمائة عام) (٨٥).

ومن بعض النبوءات ما كانت مستعصية على الإدراك والتصديق في وقتها، كمثل ما حصل من النبوءات لبعض أنبياء بني إسرائيل كما سبق ذكره، وما كان من نبوءة الإسراء والمعراج في الإسلام، وفيها جميعاً ما يؤشر حالة مشتركة من خاصة الإعجاز واختراق الغيب ما تنفرد به الديانات السماوية خاصة والتي ترقى النبوءات في بعضها إلى مستوى الحضور في عالم الغيب بكامل الهيئة، كما في الإسراء النبوي، والتي ما كانت لها خصوصية إعجاز مقصودة في سياق السيرة الرسالية للإسلام والتي امتازت بقدر من الواقعية،حيث أنه في خضم مسيرة الدعوة الإسلامية وزهو أيامها لم يسمح النبي محمد ﷺ بأن تكون له هالة قدسية وان يتمثله قومه بصورة من يأتي بالمعجزات أو يستجيب لدعوة من هذا القبيل، بل ليفهمه قومه كبشر سوي اختصه الله واصطفاه ليبلغ رسالته في الوحدانية:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) (الكهف: ١١٠).

ويرد في سياق الذكر الحكيم ما يعزز هذه القناعة لدى العرب عن نبيهم:

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ) (يونس: ٢).

(وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ) (هود: ٣١).

وسنورد شواهد التمثل الواقعي للفكر الرسالي في الإسلام في الباب الخاص بذلك ضمن بحثنا اللاحق عن خطاب التوحيد الرسالي في الإسلام.

وتفاصيل المعراج النبوي وبضمنها تحديداً لقاء الرسول ﷺ بكثير من الأنبياء وعلى وجه الخصوص منهم -موسى وعيسى -عليهم السلام، وما

جرى بينهم وما استتبع ذلك من وصف الرسول محمد ﷺ لهيئة الرسولين الكريمين تعد دالة أخرى من دلالات التواصل الرسالي بين الأديان السماوية، وقد أثيرت المشابهات الوثيقة ما بين ما ورد في الكوميديا الإلهية لدانتي وما ورد في الكتب الإسلامية عن المعراج ومنها ما في "رسالة الغفران" للمعري وبعض كتب محيي الدين ابن عربي،- وسنعرض تفصيلات الموضوع في مبحث خاص في جزء آخر- وما يعنينا هنا ملتقى الأنبياء في المحفل السماوي.

ففي شاهد من شواهد الاتفاق في المقاصد الرسالية وأن ما نقل عنها من أحاديث الرسول محمد ﷺ يدخل في سياق الوثائق التي تعين في استلهام آفاق ومعالم التوحيد الديني، وفي وصف الرسول عليه الصلاة والسلام لأشكال وهيئات من التقى بهم من الأنبياء لهو من دلائل الحوادث التي تقيم الدليل بأن ثمة علة مشتركة لبعث الأنبياء والرسل "فالأنبياء إخوان علات" كما وصف سيدنا محمد ﷺ ينتظمون في مسلك رسالي ابتدأت حلقاته من أول شوط في أشواط البعث الرسالي، وانتهت إلى هذه الصورة في وحدة المسار.

وأن الذين التقى بهم الرسول محمد ﷺ يجسدون الواقع الديني الأكثر تمثيلاً للحقيقة الدينية في هذا العالم، بل هم الذين يمثلون مصادر الانتماء الإنساني والروحي لحياة الإنسان الراهنة، وقد رتب الملكوت الإلهي لقاءات الإسراء على وفق جدول زمني انتقل فيه الرسول محمد ﷺ من أسفل الهرم السماوي إلى أعلاه ليلتقي في السماء الأولى- سماء الأرض-أبو البشر (آدم) عليه السلام حيث قدمه إليه المبعوث الإلهي للأنبياء (جبرائيل) ليستهل منهاج الرحلة السماوية بترحيب من آدم والدعاء له بالخير، ثم ليرتقي به صعوداً إلى السماوات اللاحقة ليلتقي في كل منها بنبي من الأنبياء، وكانت مراسيم اللقاء التالية:

- في السماء الثانية: كان اللقاء مشتركا مع ابن خاله عيسى ابن مريم ومعاصره يحيى بن زكريا.
- وفي السماء الثالثة: كان اللقاء بالنبي يوسف بن يعقوب.
- وفي السماء الرابعة:كان اللقاء بالنبي إدريس.
- وفي السماء الخامسة: تم اللقاء بهارون بن عمران.
- وفي السماء السادسة :كان اللقاء بالنبي موسى بن عمران
- وفي السماء السابعة كان اللقاء بأبي الأنبياء الموحدين إبراهيم الذي احتل موقعه في القمة وقد كان مسنداً ظهره إلى البيت المعمور[٨٦].

ومن بين كل الأنبياء كان للنبي محمد ﷺ حديث خاص مع النبي موسى حول ما فرض الله على أمته من الصلاة، أفاد فيها موسى محمداً صلوات الله عليهم بما بُلي به من بني إسرائيل وخبرته فيهم من ذلك حيث أشار عليه بأن يسأل الله بان يخفف من مقدار ما فرض من الصلوات الخمسين على أمته على قدر ما يطيقون وكان له ﷺ صعود ونزول في أمر ذلك ما بين موسى والموقع الإلهي حتى استجاب الله لطلب التخفيف لتكون عدة الصلوات على ما هي عليه الآن.

وأعظم ما يكون من ثمار الإسراء النبوي ما كان من وصف الأنبياء في هيآتهم وصفاً جديراً بأهليتهم لذلك الدور السامي الذي مثلوا أدواره في ما يروى من قصصهم أدق الأحداث وأبلغها دلالة فقد ذكر عن آدم: أن الله خلقه وطوله ستون ذراعاً ثم قال اذهب وسلّم على أولئك الملائكة فاستمع ما يحيونك، تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم ورحمة الله فزادوا "ورحمة الله" وفي ذلك جانب مما تعلم آدم من الملائكة لقاء تعليمهم بأمر الله بأسماء ما لم يعلموا، ليكون في ذلك الدلالة في أن المعرفة تقوم على التعلم والتعليم.

وعن صفة سيدنا إبراهيم ذكر أنه: "رجل طويل لا أكاد أرى رأسه وقد شبهه بنفسه، ومما ذكر من سيرته:

(أن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات، اثنتين في ذات الله تعالى: (إني سقيم)، والثانية قوله" (بل فعله كبيرهم هذا) ،وواحدة في شأن سارة: فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت من أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم انك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه انك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك".

وقد نوّه الكتاب المقدس بهذه الواقعة في سفر الخروج، وأن التاريخ الرسالي قد شهد مثل هذه الحالات من الإنكار المبرر، حيث للضرورة أحكامها، فإن بطرس الرسول قد فعل ذلك، فيوم قبضوا على السيد المسيح ودخلوا به إلى دار رئيس الكهنة وكان بطرس يتبعه عن بعد، أنكر انه يعرفه، إذ رأته خادمة عند النار التي أوقدها الحرس في ساحة الدار فتفرست فيه وقالت: (وهذا الرجل كان مع يسوع)، فأنكر وقال:

(أنا لا أعرفه يا امرأة، وبعد قليل رآه رجل فقال: وأنت منهم فأجابه بطرس كلا يا رجل ومضى نحو ساعة، فقال أحدهم: وهذا ما كان معه، لأنه من الجليل، فأجابه بطرس يا رجل لا أفهم ما تقول)، وبينما هو يتكلم صاح الديك فانتبه بطرس: وتذكر قول السيد المسيح: (قبل أن يصيح الديك اليوم، تذكرني ثلاث مرات) فخرج وبكى بكاء مراً (لوقا ٢٢:٥٤-٦٢).

وكان مثل هذا الأمر مع عمار بن ياسر في الإسلام فقد عذب عذاباً مراً وقيل له: (لا نتركك حتى تسب محمداً وتقول باللات والعزى خيراً)، ففعل مضطراً فتركوه فأتى النبي وهو يبكي لما فعل فنزلت فيه وفي من فتنهم قريش فثبتوا على الإيمان:

(إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ)(النحل: ١٠٦)[٨٧].

وكان من ضمن من ذكر الرسول محمد ﷺ النبي يونس بن متى في قوله:

(لا ينبغي لعبد أن يقول أني خير من يونس بن متى، ونسبه إلى أبيه، وأنبأ عن مشاهدته إياه).

(كأني أنظر إلى يونس على ناقة حمراء عليه جبة صوف خطام ناقته ليف خلته ماراً بهذا الوادي ملبياً).

وذكر عن داود عليه السلام مأثرته في القرآن والعمل: (خُفف على داود عليه السلام القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يده).

أما رفيقا دربه في المسيرة الرسالية (موسى وعيسى) فقد خصهما بوافر من الذكر، مستحضراً فيها مشاهد وافرة، إذ كان لموسى معه في لقاء الإسراء حديث طويل -كما مر- وقد وصف هيئته بقوله:

(كان أجعد أدم على جمل أحمر محطوم بخلبة كأني أنظر إليه انحدر إلى الوادي، وأنه كان طوال كأنه من رجال شنوءة، وأنه كان رجلاً حيياً، فكان لا يرى متجرداً.

وذكر من أمر مشاهدته في الوادي الأزرق أثناء الإسراء: (كأني أنظر إلى موسى عليه السلام فذكرني في لونه وشعره شيئا من يحفظه داوود واضعاً إصبعه في أذنه له جؤار إلى الله بالتلبية ماراً بهذا الوادي قال ثم سرنا حتى أتينا على ثنية، فقال: أي ثنية هذه قالوا أهرمش أو لفت).

وذكر ﷺ من قصة موسى مع الخضر عليهما السلام: أن موسى قام في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم قال: فغضب الله عليه ولم يرد العلم إليه فأوحى إليه أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك، فقال موسى: أي رب كيف لي به، فقيل له: احمل حوتاً في مكتل (قفة)

فحيث تفقد الحوت فهو، ثم فانطلق وانطلق معه فتاه، وهو يوشع بن نون يمشيان حتى أتيا الصخرة، فرقد موسى وفتاه فاضطرب الحوت في المكتل حتى خرج من المكتل فسقط في البحر، فقال: فأمسك الله عنه جرية الماء، حتى كان مثل الطاق فكان للحوت سرداً، وكان لموسى ولفتاه عجباً، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ونسي موسى أن يخبره.

فلما أصبح موسى عليه السلام قال لفتاه: (آتنا غداءنا قد لقينا من سفرنا هذا نصبا) قال: ولم ينصب حتى جاوز المكان الذي أمر به. ليأتيا الصخرة فرأى رجلاً نائماً مسجى عليه ثوب، فسلّم عليه موسى، فقال له الخضر: إني بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى، قال: موسى نبي إسرائيل؟ قال:نعم، قال إنك على علم من علم الله علمه الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه، فقال له موسى عليه السلام: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً، قال: إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً إلى آخر قصة الخضر كما أوردتها الآيات القرآنية. ....

وأنبأ الرسول ﷺ بعدئذ عما كان من قصة موسى مع الموت وعن قبره عليه السلام:

(والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر).

ونوّه ﷺ بخصوصية الدور السياسي لأنبياء بني إسرائيل بقوله: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي)[٨٨].

وينقل لنا (البيهقي) في (دلائل النبوة) نبذاً من النصوص العبرية من الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية وهي تبلغ كما يذكر عن نبوة الرسول محمد ﷺ: (ويومر يهووه مسينائي به وزارع مسعير لاموهنفع مهرباران وأتامر يوث قواش داث لامو).

وترجمتها: (أن الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم وسطح في جبل فاران وجاء مع عشرة آلاف قديس وخرج من يمينه نار شريفة لهم).

وقول موسى الكليم: (إن نبياً مثلي سيقيم لكم الرب ألهكم من أخوتكم أبناء إبراهيم) [٨٩].

ومن الحق أن يكون ذلك فإنه كما أنبأ الرسول محمد ﷺ عن النبي موسى فإنه كذلك ينبئ موسى عن لاحقه وكمثل ما أنبأ الكثير من أنبياء بني إسرائيل عن ما يكون من أمر يوحنا والسيد المسيح، ولكنه إلى جانب ذلك فإن من مواقف بني إسرائيل بعدئذ ما لا يتوافق مع هذا المنهج الرسالي، وهو ما يبدو من مواقفهم مع الرسول محمد ﷺ ما ينبئ عن عدم الرغبة في التعايش أو الانصياع لحقيقة الوفاق الديني بين الرسالات السماوية.

ولم يعرف التاريخ الرسالي كمثل صراع اليهود مع الأنبياء منهم ومن غيرهم، ولم تكن منهم إلا القلة التي تداعت إلى مواطن التوافق مدركة لما في نصوص الشريعة من ذلك الإيماء كمثل ما أدركه "كعب الأحبار" و"عبد الله بن سلام"، والقليل من بعدهم على خلاف المسيحيين الذين توافقوا مع بلاغات التوفيق الرسالي على تفاوت المواقف التي تراوحت بين إعلان الانضواء تحت لواء الرسالة التوحيدية الجديدة، أو مساندتها، أو الوقوف على الحياد منها دون أن يستبين منهم في الصف العربي غير تلك المشاعر التي تنسجم مع جذور الحب والوئام في عقيدتهم وقد فرق القرآن ما بين موقفي الطائفتين:

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) (المائدة: ٨٢).

وفي تعقيب الشيخ محمد الظاهر بن عاشور على الآية السابقة الذكر يقول:

(إن ما جاء في الآية والآيات الأخرى مثلها، قد جاء حاصلاً لما تكنه ضمائر الفريقين نحو المسلمين، ولذلك فصلت ولم تعطف، وأن وجود القسيسين والرهبان بين صفوف النصارى قد كان سبباً في اقتراب مودتهم من المسلمين لما هو معروف بين العرب من حسن أخلاق القسيسين والرهبان وتواضعهم وتسامحهم، وكانوا منتشرين في جهات كثيرة من بلاد العرب يعمرون الأديرة والصوامع والبيع، وكما عرف عرب الشام من النصارى بالزهد ومسالمة الناس وكثر ذلك في كلام شعرائهم، وإن من أسباب نزول الآية كذلك ما يذكره الطبري والواحدي وكثير من المفسرين عن ابن عباس ومجاهد وغيرهم: أن ثمانية من نصارى الشام كانوا في بلاد الحبشة وأتوا المدينة مع اثنين وستين راهباً من الحبشة مصاحبين للمسلمين الذين رجعوا من هجرتهم للحبشة، وسمعوا القرآن وأسلموا وهم: بحيرا الراهب وإدريس واشرف وإبرهة وثمامة وقيثم ودريد وأيمن وكانوا يحسنون العربية) (٩٠).

وكان للسيد المسيح من مشهد الذكرى ما يوحي بذلك القدر من وفاق السيرة الرسالية في عالم يقوم على ذلك المدى، و عالم سيقوم على المدى الآخر من نهاية هذا الزمان، وحيث يتعانق لواء الرسولين الكريمين عند قيام الساعة التي ما فتئا ينبئان عنها على قدر من التوافق، وعلى ذلك فقد كانت صورة الرسول عيسى بن مريم حاضرة عند الرسول محمد ﷺ في مشهد الإسراء وفي غير هذا المشهد كأبهى ما تكون الصورة فها هو ذا يجسد رؤيته له:

(أراني الليلة عند الكعبة في المنام فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من أدم الرجال تضرب لمة بين منكبيه، رجل الشعر يقطر رأسه واضعا يديه على منكبي رجليه، وهو يطوف بالبيت، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا المسيح ابن مريم).

وذكر عن هيئته ما قرب الشبه بـــ(عمرو بن مسعود الثقفي) وهو صحابي مشهور كان كبيراً في قومه في الطائف، وقيل أنه المراد بقوله تعالى: (عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)(الزخرف: ٣١)[٩١].

وعبّر الرسول ﷺ عن خصوصيات الولادة الروحية للسيد المسيح ما ذكر وما لم يذكر في الكتاب المقدس:

(ما من مولود يولد إلا نجّسه الشيطان، فيستهل صارخاً من نجسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه اقرؤوا ما شئتم."واني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم") (عن أبى هريرة).

وأنه عليه السلام من بين أشهر ثلاثة ممن تكلموا في المهد بحسب رواية الحديث الشريف:

(لم يتلكم في المهد إلا ثلاثة عيسى وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلي جاءته أمه فدعته فقال: أجيبها أو أصلي، وقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات وكان جريج في صومعته فتعرضت له امرأة فكلمته فأبى فأتى راعياً فأملكته من نفسها فولدت غلاماً، فقالت: من جريج فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه فتوضأ وصلى، ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ فقال: الراعي، قالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال:لا من طين. وكانت امرأة ترضع ابناً لها من بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل إبني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه، قال أبو هريرة: كأني أنظر النبي يمص إصبعه.

ثم مر بأمه فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذا، فترك ثديها، فقال اللهم اجعلني مثلها، فقالت: لم ذلك؟ فقال الراكب جبار من الجبابرة وهذه الأمة يقولون: سرقت، زنيت، ولم تفعل؟).

وبمثل ما أنزل القرآن الكريم السيدة العذراء مريم تلك المنزلة السامية بين النساء، كذلك مجدها الرسول محمد ﷺ بقوله:

(كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران).

وإقرار بقيمة الدور الرسالي الذي أداه الأنبياء جميعاً فإن النبي محمد ﷺ قد أفاد بأخوة الأنبياء، ونوه من ضمن ذلك بما يربطه بالحلقة الأقرب من السلسلة الرسالية من وثوق الصلة خبراً يصدق فيه وحدة الإيمان في منطلقاته الأساسية كعامل جوهري من عوامل الشد الرسالي إلى الغاية الكبرى التي تنشدها الأديان جميعاً، حتى لكأنك ترى صورة موسى في عيسى ويحيى، وصورة عيسى في محمد، وصورتهم ونظائرهم في يعقوب وإسحاق وإسماعيل في صورة إبراهيم وصورة محمد فيهم جميعاً.

ومن يقرأ القرآن بالجملة يجد وضوح ذلك وضوح الشمس في رابعة النهار، ومن يقرأ الحديث النبوي لا يجد إلا ذلك التأكيد على وحدة المسار الرسالي للأديان، وقد بلغ الأمر بالرسول محمد ﷺ في ذلك إلى أن يضع الدور الأخوي للرسل فقط صفتهم كأنبياء، بل ليساوي إقرار الشهادة بالإسلام- وهي أعلى وأهم إقرار عقائدي- ليكون إقراراً مشتركاً بالشهادة لله والرسول محمد وللرسول عيسى على حد سواء، كما في الحديث الشريف:

(من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإن محمداً عبده ورسوله، وان عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)(عن عبادة عن النبي)[٩٢] .

ولا غرو في ذلك فإن الكثير مما تنطق به نصوص القرآن الكريم -عدا ما يتفصل به الحديث النبوي الشريف- يفضي إلى هذه النتيجة من

الأحكام إلى شريعة الله الواحدة التي لا تتجزأ قدر تجزؤ الدور الرسالي لكل نبي، وإذا لم يكن الكتاب المقدس قد أشار صراحة إلى ذلك الدور المشترك للرسالة الدينية، فإن القرآن الكريم عوض الحديث الشريف. قد أشار بكل الصراحة والوضوح إلى حضور الرسالة الإسلامية في كل الرسالات الدينية الأساسية:

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(الأعراف:١٥٧).

وفي ما يؤول الأمر إلى اتخاذ الموقف الرسالي في النقطة التي تستكمل فيها المسيرة الرسالية دورتها،وهو ما تؤكد شريعة الرسالتين المسيحية والإسلامية على وجه الخصوص ضرورته الحتمية مشيرة بذلك إلى جملة من العلامات الدالة لتحققه، وقد أشار الحديث النبوي إلى ذلك تحديداً فإن يكون للسيد المسيح حضوره في الدائرة الإسلامية من ذلك الموقف، ودعونا نقرأ من علامات تلك الأيام في الكتاب المقدس.

وفي الحديث الشريف، فالسيد المسيح قد حذر مراراً من فتنة المسيح الدجال الذي ينتحل اسمه وصفته ويتولى فتنة الناس بما يعرض لهم من المعجزات، والتي يقدم الحديث النبوي وصفاً مفصلاً لها ومما قاله السيد المسيح بشأن ذلك:

(سيجيء كثير من الناس منتحلين اسمي، فيقولون أنا هو المسيح، ويخدعون كثيراً من الناس، وستسمعون بالحروب وبأخبار الحروب، فإياكم أن تفزعوا فهذا لا بد منه، ويظهر أنبياء كثيرون ويضللون كثيراً من الناس،

ويعم الفساد، فتبرد المحبة كثيرا بين الناس، ومن يثبت إلى النهاية يخلص وتجيء النهاية بعد ما تعلن بشارة ملكوت الله هذه إلى العالم كله، شهادة لي عند الأمم كلها).

(ولولا أن الله جعل تلك الأيام قصيرة لما نجا أحد من البشر، ولكن من أجل الذين اختارهم جعل تلك الأيام قصيرة، فإذا قال أحدكم هذا هو المسيح هنا، أو هاهنا فلا تصدقوه، فسيظهر مسحاء دجالون، وأنبياء كذابون يضيفون الآيات والعجائب العظيمة ليضلوا إن أمكن حتى الذين اختارهم الله، ها أنا أنذركم فإن قالوا لكم: هاهو في البرية، فلا تخرجوا إلى هناك، أو هاهو في داخل البيوت فلا تصدقوا، لأن مجيء ابن الإنسان يكون مثل البرق الذي يلمع من المشرق ويضيء.).

(وفي الحال بعد مصائب تلك الأيام، تظلم الشمس ولا يضيء القمر وتتساقط النجوم من السماء، وتزعزع قوات السماء، وتظهر في ذلك الحين علامة ابن الإنسان في السماء، ويرى الناس ابن الإنسان آتيا على سحاب السماء، في كل عزة وجلال فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت إلى جهات الريح الأربع ليجمعوا مختاريه من أقصى السموات إلى أقصاها) (متى ٢٤:٣ -١٤، ٢٢:٣٣).

ويكمل الرسول محمد ﷺ مشوار قصة المسيح الدجال فيحدث صحابته عن جملة صفاته وما يكون من أمره، وما يظهره من المعاجز ما يغري الناس باتباعه، وما يكون من أمر النخبة الصالحة من المسلمين في بيت المقدس يوم ذاك، وهي تلتحق بركب المنقذ السيد المسيح فتكون الصلاة هناك في البلدة المقدسة، فيما ينبري السيد المسيح للدجال حيث يظهره الله عليه.

ومن ضمن شهادته ﷺ في ذلك:

(...أنه لم تكن فتنة أعظم في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من

فتنة الدجال، وأن الله لم يبعث نبياً إلا حذر من الدجال وأنا آخر الأنبياء، وهاهو خارج فيكم لا محالة، وإن يخرج وأناس ظهرانيكم فأنا حجيج كل مسلم، وإن يخرج من بعدي، فكل امرئ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم).

(يأتي الدجال القوم فيدعوهم فيستجيبون له ويؤمنون به، فيأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين، ما بأيديهم شيء، ثم يمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنزك فينطلق فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف ضربة فيقطعه جزأين رمية لغرض، ثم يدعوه فيقبل يتهلل وجهه يضحك، ثم ينثني الدجال فيقول:

("أنا ربكم ولا ترون ربكم حتى تموتوا".. فبينما هو كذلك، يبعث الله عيسى ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضع كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه ينحدر منه جمان كاللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فينطلق حتى يدركه عند باب لد فيقتله، ثم يأتي نبي الله عيسى قوما قد عصمهم الله فيمسح وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة...)

(وإذ المسلمون في بيت المقدس وهم قليل، وإمامهم رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي فيهم الصبح إذ أنزل عليهم عيسى بن مريم الصبح فيرجع ذلك الإمام منكصاً، يمشى القهقرى، ليتقدم عيسى يصلي بالناس، فيضع يده بين كتفيه ثم يقول له: تقدم فصل فإنها لك أقيمت، فيصلي بهم إمامهم، فإذا انصرف قال عيسى عليه السلام: افتحوا الباب فينفتح وراءه الدجال ومعه

سبعون ألف يهودي كلهم سيوف مجلى وساج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، وينطلق هاربا، ويقول عيسى عليه السلام إن لي فيك ضربة لن تستبقني بها، فيدركه عند باب اللد فيقتله). (٩٣).

وهكذا نقف في شهادة الرسول محمد ﷺ عن المسيح الدجال عند حقيقة أخرى من حقائق التكامل في الإبلاغ والموقف الرسالي، إذ يتوحد فصيلا الإيمان السابق واللاحق في هذه الواقعة الحاسمة والتي يكون فيها الدور الحاسم للسيد المسيح في القضاء على فتنة الدجال ليسدل الستار عليها، وليكون ذلك مدخلا إلى القيامة الكونية في يوم الدينونة ومشهدها عظيم فيه من توافق الشواهد في نصوص الشرائع ما بينها من جملة التوافق في منهجها ومسارها الرسالي ما يجعل منها أمة في الإيمان تتتابع فيها بلاغات الأنبياء والرسل، تتفق فصائلها في أحيان أو تختلف في أحيان أخرى على قدر ما يتراءى لها من بينات التوافق أولا يتراءى لها ذلك:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (البقرة: ٢١٣).

وعند الفيلسوف (روجيه غارودي) فإن الآية السابقة الذكر تفيد المعنى في: أن غاية الوصول إلى الحقيقة في أن أي عضو من أعضاء المجتمع الدولي هو عضو مسؤول بشكل لا إرادي عن جميع أعضاء المجتمع، وأن فكرة التوحيد لا تعني إثبات وحدانية الله المطلقة أو إيجاد العالم الذي أنشأه فحسب، بل إن كل فرد من الأفراد ومجتمع من المجتمعات ليس عليه إلا واجب الخضوع لله بالطريقة التي يؤدي فيها خدمته للمجتمع العالمي للإنسان،

خلافاً للفردانية التي تسعى لجعل الفرد مركزاً أو مقاساً لجميع القضايا، وخلافاً لتحويل نمط المعيشة إلى غاية تخضع لحسابات الربح والخسارة كمجال يتنفس فيه الفرد مع الآخرين [٩٤].

الفصل السادس
مصداقية الدور الرسالي وانتقالته للإنسانية

مصداقية الدور الرسالي وانتقالته الإنسانية

من الممكن اعتبار درجة المصداقية أو الوثوق من المعايير والمؤشرات الحيوية لقياس كفاءة الأداء للإبلاغ الرسالي، وعملياً فإن هذا المعيار قد سجل حضوره المميز في انتقالة دائرة الإبلاغ الرسالي من أفقها المحدود ضمن النطاق الإقليمي إلى الدائرة الأوسع من المحيط الإنساني، اتفاقاً مع تيقن روادها والمؤمنون بها بذلك الدور الذي جسده أساساً عمق الإيمان الناتج من عمق التصديق والوثوق والذي يشكل العامل الأساس لخلق الدوافع في مداها الأرحب والأعمق أثراً وتأثيراً...

فالمسيحية كادت أن تنحسر أو تتلاشى على إثر البطشة الهيرودسية بالسيد المسيح، والتضييق الشديد على تلامذته في محيط الدائرة الإسرائيلية، لولا انبعاث وتجدد درجة الوثوق والتصديق في نفوس النخبة من تلامذة السيد المسيح الذين وعوّا تماماً وصايا وتعاليم سيدهم المعلم، وبخاصة ما أملاه عليهم في آخر لقاء معهم، وقبل أن تلتف عليه حبال الكيد، ففي أول يوم من عيد الفطير-كما يذكر الكتاب المقدس - :جاء التلاميذ إلى يسوع وقالوا له: "أين تريد أن نهيئ لك عشاء الفصح"، فأجابهم: "إذهبوا إلى فلان في المدينة وقولوا له يقول المعلم جاءت ساعتي وسأتناول عشاء الفصح في بيتك مع تلاميذي"، فعمل التلاميذ ما أمرهم به يسوع وهيأوا عشاء الفصح وفي المساء جلس يسوع للطعام مع تلاميذه الإثني عشر، وبينما هم يأكلون قال يسوع:الحق أقول لكم واحد منكم سيسلمني فحزن التلاميذ كثيراً وأخذوا يسألونه واحداً واحد: (هل أنا هو، يا سيد؟ فأجابهم (من يغمس خبزته في الصحن معي هو الذي سيسلمني،فابن الإنسان سيموت كما جاء في

الكتاب،ولكن الويل لمن يسلم ابن الإنسان، كان خيراً له أن لا يولد) فسأله يهوذا الذي سيسلمه هل أنا هو يا معلم؟ فأجابه يسوع أنت قلت؟.

وبينما هم يأكلون أخذ يسوع خبزاً وباركه وكسره، وناول تلاميذه، وقال:(خذوا كلوا،هذا هو جسدي وأخذ كأسا وشكر وناولهم وقال:"هذا هو دمي"، دم العهد الذي يسفك من أجل أناس كثيرين لغفران الخطايا، أقول لكم لا أشرب بعد اليوم من عصير الكرمة هذا، حتى يجيء يوم أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي ثم سبحوا وخرجوا إلى جبل الزيتون)(متى ٢٥:١٧-٣٠).

وتتابع المشهد المثير بعدئذ حين قدم السيد المسيح صورة المشهد للرحلة الشاقة التي سيمضي بها تلاميذه في مسيرة الإبلاغ الرسالي بعد أن قدم التلاميذ لمعلمهم شهادة الولاء حين روى لهم نبوءة الكتاب في انتهاء إقامته الجسدية بينهم لتتمثل بعدئذ إقامته الروحية فيهم: (في هذه الليلة ستتركوني كلكم، فالكتاب يقول: "سأضرب الراعي، فتتبدد خراف القطيع، ولكن بعد قيامتي من بين الأموات، أسبقكم إلى الجليل، فقال بطرس: لو تركوك كلهم فأنا لن أتركك"، فقال له يسوع :"الحق أقول لك في هذه الليلة قبل أن يصيح الديك، تنكرني ثلاث مرات"، فأجابه بطرس: "لا أنكرك وان كان علي أن أموت معك، وهكذا قال التلاميذ كلهم" (متى ٢:٣١-٣٢،مرقس ١٤:٢٧-٣١).

.... وكان الذي كان مما حدّث به السيد المسيح صدقاً، فقد أنكر بطرس ثلاثاً أنه كان مع السيد المسيح تقية، وتذكر بعدئذ قول السيد المسيح وبكى بكاءً مراً، وندم يهوذا لما بدر منه من التآمر على سيده لقاء الثلاثين من الفضة ليرميها في الهيكل وينصرف ليشنق نفسه بعد ذلك، فيما ظل البقية من التلاميذ المخلصين يترقبون الساعة التي يبدأون فيها مشوار تلك الرحلة الشاقة التي ابتدأت ولم تنتهي.

وكثيراً ما كان الناس في مثل تلك المشاهد المثيرة التي يتعالى فيها

سيف الجلاد وسطوته، ويرتفع فيها ضجيج الغوغاء الذين ينحدرون مع انحدار طوفان الشر وهم لا يدركون إلا الشاخص من مشاهد يومهم فحسب، في مثل تلك الساعة الرهيبة التي أخذ فيها السيد المسيح ليصلب أيقن العامة أنه قد صلب فعلاً، وانتهى كل شيء فيما أدرك الخاصة من حواريه أن معلمهم لم يبلغ ذلك العود المنصوب صليباً، بل ارتقى عليه إلى حيث لم تشاهد الأبصار ارتقاء إلى ملكوت السماء، وسوى السيد المسيح فإنه قد صلب ذلك الرجل الذي صادفه جنود الحاكم وهم يخرجون من المدينة بعد أن أدّوا أدوارهم في مسرحية الصلب، والذين سخروه ليحمل صليب يسوع، فأعطوه خمراً ممزوجاً بالمر، وقد رفض أن يشربها لما ذاقها، فصلبوه واقترعوا على ثيابه واقتسموها وجلسوا هناك يحرسونه، وقد وضعوا فوق رأسه لافتة مكتوب فيها سبب الحكم عليه: "هنا يسوع ملك اليهود، وصلبوا معه لصين واحد عن يمينه وواحد عن شماله فيما كان المارة -من ضمن جمهور الغوغاء- يشتمونه ويهزؤون منه أنه هادم الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام، وغير ذلك من هزؤ رؤساء الكهنة، ومعلمو الشريعة والشيوخ ... كتله هائلة من الحقد انهالت على السيد المسيح، كمثل ما انهالت عليه من قبل كتل الناس تباركه وتمجده يوم كانت تتراءى لهم معجزاته فكان الجميع يطلبه لغاية عارضة من غايات الدنيا، فيما كان الخاصة ممن أدركوا الحقيقة يطلبونه لغاية الإيمان الذي استقر في نفوسهم، فكانت قيامته فيهم بعد ذلك، القيامة التي استحضرها جيلهم، واستحضرتها الأجيال من بعدهم، كما استحضرها الرسول الذي وعد أيضاً بقيامة المسيح في قوم غير قومه يستكمل دوره كاملاً في مسيرة الإبلاغ وتثبيت المبادئ التي نادى بها وعمل جاهداً على تحقيقها وتلك الدائرة المغلقة التي استعصت على الرسول موسى طويلاً ولم يتمكن من اقتيادها إلى الغاية الكبرى التي تحررت من أجلها من أبشع لون من ألوان العبودية والاضطهاد

وليس إلا بالآيات الإعجازية المحكمة التي أرهبت الطاغية فرعون وملأه حتى أذعن للأمر الواقع ليطلق بني إسرائيل من عبوديته، ثم ليعدل عن قراره ليلاحق بني إسرائيل بخيوله ومركباته ليسد عليهم البر والبحر فينقلبوا على موسى المرة تلو المرة متمردين في صحراء سيناء، وما بعدها.

ويجوع الناس في ذلك الركب الراحل فتطعمهم السماء بالمن والسلوى زمنا غير قليل، ويظمأون فتتفجر لهم الأرض ينابيع يعرف كل سبط من أسباطهم فيها مشربه، ولم تكد المسيرة تبلغ غايتها من أرض كنعان حتى يبلغ الجهد مبلغه فيهم وبرسولهم الذي كان من بين أكثر الرسل صبراً واحتمالاً لأذى قومه الذين لم تحتمل رسالته فيهم ما احتملت رسالات الله لسواهم من الناس إلا أن تكون على الخاصة من أمرهم دون العامة من أمر الناس سواهم حتى تكون اليهودية دون المسيحية ودون الإسلام ديناً قومياً يختص ببني إسرائيل.

ويواجه السيد المسيح بعد ذلك، وهو ينطلق بدعوته ضمن ذلك الرحاب مثل تلك المحنة التي واجهها موسى بالانشغال بخواص المواقف وفي حالات ذات طبيعة تختلف عن تلك الحالة التي استلزمتها مسيرة الإبلاغ الرسالي لسلفه موسى عليهما السلام، فأولئك القوم الذين غالب النبي موسى قدره فيهم مغالبة مريرة حتى وطد فيهم الإذعان للرب الواحد بعد أن قدم لهم من الشواهد والدلالات الربانية ما لم تقدمه رسالة دينية أخرى، وفي ما لم يكن الرسول عيسى ليحتاج إلى المرور في ذلك النفق الطويل من المجابهة مع قوى الشرك، فإنه قد احتاج إلى اجتياز نفق السلطة الغاشمة المتمكنة في المجتمع الإسرائيلي متخالفة مع رؤساء الكهنة وشيوخ المدينة والذين كان أخطر ما في موقفهم تمسكهم بقيم منحرفة عن أصول الشريعة الموسوية، فكانوا يشكلون مع السلطة الزمنية أداة تحكم ونفوذ طاغٍ في مجتمعهم، فكانوا

تماماً كمثل ما كانت قريش بالنسبة لمحمد ﷺ أرستقراطية قبلية متنفذة يدين لها الناس بالولاء في السياسة والدين.

... والذي يقرأ بالتتابع فصول الكتاب المقدس (العهد الجديد) يجد أن الجزء الأعظم من جهاد ومعاناة السيد المسيح كانت مع تلك الفئة الثيولوجية المتنفذة والممثلة بالفريسيين ورؤساء الكهنة وشيوخ المدينة، وأن الجدل الدائر معهم يشبه ذلك الجدل الذي أقامه القرآن على نحو أكثر عمقاً مع أساطين الشرك في مكة، وأنه بقدر ما كانت سيرة السيد المسيح مع العامة تمتاز بالسماحة واللطف فإن موقفه مع الفريسيين ومعلمي الشريعة كان يتسم بالحدة والشدة، إذ كان يقاوم فيهم طغيان السلطة الدينية المنحرفة كما كان يقاوم فيهم ما يزرعونه من أفكار وقيم منحرفة عن الأصول الصحيحة للشريعة.

وقد كان أمر الناس في عامتهم أهون عليه في استجابتهم لنداء الشريعة وامتثالهم للنصح وانقيادهم للإيمان من الأمر المستعصي لهؤلاء المردة الذين أفسدوا على الناس فكرهم ودينهم، وقد عرض السيد المسيح في تقريعه لهم والتنبيه لشرورهم لمشاهد كثيرة من سلوكهم الشأن المرائي:(معلمو الشريعة والفريسيون على كرسي موسى جالسون، فافعلوا ما يقولونه لكم، واعملوا به، ولكن لا تعملوا مثل أعمالهم، لأنهم يقولون ولا يفعلون، يحزمون أحمالاً ثقيلة شاقة الحمل، ويلقونها على أكتاف الناس، ولكنهم لا يحركون إصبعاً تعينهم على حملها، وهم لا يعملون عملاً إلا ليساعدهم الناس، يجعلون عصائبهم عريضة على جباههم وسواعدهم، ويطوقون أطراف ثيابهم، ويحبون مقاعد الشرف من الولائم ومكان الصدارة في المجامع والتحيات من الأسواق).

(الويل لكم يا معلمي الشريعة والفريسيين المرائين، تغلقون ملكوت السموات في وجوه الناس فلا أنتم تدخلون، ولا تتركون الداخلين يدخلون).

(الويل لكم يا معلمي الشريعة والفريسيين المرائين، تأكلون بيوت الأرامل، وأنتم تظهرون أنكم تطيلون الصلاة، سينالكم أشد العقاب..).

(الويل لكم يا معلمي الشريعة والفريسيين المرائين تقطعون البحر والبر لتكسبوا واحداً إلى ديانتكم، فإذا نجحتم جعلتموه يستحق جهنم ضعف ما أنتم تستحقون).

(الويل لكم أيها القادة العميان، تقولون: من حلف بالهيكل لا يلتزم بيمينه، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم بيمينه، فأيما أعظم، أيها الجهال العميان؟ الذهب أم الهيكل الذي قدس الذهب).

(الويل لكم.. تعطون العشر من النعنع والكمون، ولكنكم تهملون أهم ما في الشريعة، العدل والرحمة والصدق، وهذا ما كان يجب عليكم أن تعلمون).

(والويل لكم.. والويل لكم...) (متى ٢٣:٢-٢٧).

وبمثل ذلك الأسلوب النقدي اللاذع والهادف في نفس الوقت لتلك الفئة الدينية الرجعية كان السيد المسيح يحذر الشعب منها، بل إنه يدخل الهيكل لتنبيه الناس إلى ما يتوجب عليهم فيها مما يخرج عن صلب المهام لمثل هذه المرافق والتي تدنس بأعمال تافهة، ففي موقف دخل الهيكل وطرد جميع الذين يبيعون ويشترون فيه، فقلب مناضد الصيارفة ومقاعد باعة الحمام وقال لهم: (جاء في الكتاب، بيتي بيت الصلاة، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص...) (متى ١٣:٢١).

ويشاطر القرآن الكريم السيد المسيح في ذلك التقريع الذي كان لتلك الفئة المرائية من الأحبار والرهبان وفرق بينهم ومبين الأخيار فيهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: ٣٤).

(وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْأِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (المائدة: ٦٢).
(لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (المائدة:٦٣).
(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ)(المائدة: ١٣).

وفي غير ذلك من مشاهد الإبلاغ العام التوجيهي كان السيد المسيح يقدم أمثلته الوافرة ونصائحه لتلاميذه ولعوام الناس ليقدم لهم مبادئ الشريعة بأسلوب الحكمة، وبالدلائل المعتبرة، ونراه في ذلك بارع براعة لقمان الحكيم، وسليمان النبي قبله، وبراعة الرسول محمد ﷺ، من بعده فهناك كانت أمثلته المعتبرة عن (الخروف الضال، العبد الذي لا يغفر، الشاب الغني، العمال في الكرم، الكرامين، وليمة الملك...الخ)، وفي كلها كان يبسط الشريعة لعوام الناس، ثم ليكون له مع خاصة تلاميذه شأن آخر من الوصايا، وتجلية المواقف فيما سيعرض لهم من المواقف والأمور في رحلتهم الشاقة في الإبلاغ الرسالي، وحيث تكاليف ذلك الإبلاغ في مثل تلك الظروف القاسية عهد السيد المسيح وما بعده قد فرضت على رسل السيد المسيح كما فرضت على رفاق الأنبياء وصحابتهم ضرائب باهظة من التضحيات والبذل.

وبالمقابل كان الرسول محمد ﷺ يحذر من الأئمة (الضالين المضلين)، وينبه من كل ذي مكر، ودجل ورياء، وقد لاقى العنت في ذلك من أساطين الشرك وشيوخ قريش لتكون مع كل الأنبياء العزم حصة مشتركة تتفاوت فيها المقادير حسب الأقدار لكل دورة من دورات الإبلاغ الرسالي وما يتهيأ لكل رسول وداعية من عوامل القدرة وإمكانات التصدي لأعباء التكليف الرسالي، وأنه بمثل ما اقتحم الأنبياء والرسل الساحة الاجتماعية في محيطها المحدود أو المتسع طبقا لمنطلقات رسالاتهم فإن صحابتهم والمؤمنين بهم قد ارتهنوا

بعدهم للسياق المبدئي الذي يحكم ذلك التوجه أن يكون له مداه القومي، أو الإنساني فعلى عهد النبي موسى فإن دائرة الإبلاغ قد انحصرت ضمن المحيط الإسرائيلي منحكمة لاعتباراته القومية وقد برزت طبيعته في مجمل الخطاب الديني وتوجهات ذلك الخطاب لتظل دائرة الدين اليهودي إلى اليوم تدور ضمن الفلك الإسرائيلي.

والواضح أن هناك علاقة جدلية قائمة بين المنطلق الرسالي والتوجه الرسالي، فالذي يقرأ لغة الخطاب في العهد القديم من الكتاب المقدس يجد أن جملة الطرح فيه لا يتعدى الحالة الإسرائيلية، وأن جملة النشاط الرسالي للنبي موسى قد انحصر في موضوع تخليص بني إسرائيل من نير الاستعباد الفرعوني وتمكينهم من أن يؤسسوا كيانهم المستقل على هدى المبادئ الدينية والتي تتواصل مع المنطلق الإبراهيمي في الجذر التوحيدي فحسب.

وإذا ما كانت اليهودية تلتقي مع جملة الأديان السماوية في طبيعة الأحكام الدينية وفي نمط السيرة الدينية، فإنها تختلف عن بعضها -كالمسيحية والإسلام على وجه الخصوص- في التوجهات الإنسانية الشمولية، فالمسيحيون الأولون الذين كانوا جزءاً من المجتمع اليهودي قد وجدوا أنفسهم بعد عهد السيد المسيح مضطرين لأن يخرجوا بدعوتهم من شباك الدائرة الإسرائيلية لاعتبارين أساسيين:

الأول: تمكين الفكر المسيحي من أن يجد له متنفساً يبلغ فيه القدرة الأكبر على الحركة، حيث كانت الساحة الإسرائيلية تضيق الخناق على هذا الفكر الذي كان يعتبره المتزمتون من الفريسيين والكهان تدعمهم السلطة الزمنية مخالفاً لتقاليدهم وقيمهم السارية، وأن السيد المسيح إنما اتبع سياسة المسامحة مراعاة للضرورات الموضوعية في زمنه وعلى ذلك النحو الذي لم يسمح به اللجوء للمواجهة في ظرف غير متكافئ تماماً كمثل تكافؤ القدرة الإسلامية يوم أذن

الرسول محمد ﷺ بالمواجهة وفيما تهيأت مستلزمات إقامة القاعدة الرسالية وامتد شوط وزخم الإبلاغ الرسالي بعد حياة الرسول محمد ﷺ مجسداً في حركة الفتح الإسلامي فيما لم يكن متاحاً للرسول عيسى، فالتلاميذ الإثنا عشر كانوا كل عدة الرسالة يوم ألقي القبض عليه بتآمر رؤساء الكهان وشيوخ المدينة، فيما هم قد أغروا واحداً من تلاميذه ليكون عونا لهم في ذلك، ولو لم يحتاط البعض من تلاميذه أو يكفوا عن المقاومة امتثالاً لأمر سيدهم الذي كان يمتلك الحس الواقعي لتلك الضرورة لانتهى أمر تلك الدعوة الناشئة التي ولدت ولادة عسيرة في بيئة تتزلزل عليها أقدامها.

الثاني: إن المنطوق الرسالي للرسالة المسيحية يفرض حالة التوجه للساحة الإنسانية ومخاطبة العقل الإنساني سيما وأن العقل الإسرائيلي لم يستجب الاستجابة المطلوبة لنداءاتها، لتظل الدعوة المسيحية زمناً ضمن الدائرة المحدودة النطاق للكيان الإسرائيلي، وقد أسهم رسل السيد المسيح في جهدٍ مضنٍ ومثابر لينتقلوا بالرسالة المسيحية انتقالة نوعية بارزة كانت كلفتها عالية بالجهد وبثمن باهظ من التضحيات، في ما كانت نتائجها مجزية للغاية.

وقد بذل الرسول بولس وبرنابا اللذين اضطهدهما اليهود وطردوهما من ديارهم جهوداً مضنية في ذلك السبيل، حيث نقلا الدعوة المسيحية إلى غير اليهود، وأقاموا الأساس لبناء الكنائس في أنحاء شتى من بلاد الرومان وغيرها، وقد كانت أفكار القديس الرسول بولس والتي تضمنتها رسائله وخطبه- قد مثلت الغاية في إدراك المضمون الإنساني للمسيحية- إذ مكن جهده ونظرته الشمولية المسيحية من أن تبلغ غايتها في ذلك، وفي رسالته إلى كنيسة روما أعلن:

(أن الله إله سائر الأمم، لأن الله يبرر اليهود بالإيمان، كما يبرر غير اليهود بالإيمان، معرباً أن: "مجازاة الله للناس هي بالأعمال مما لا يفرق بين

جنس وآخر، فالويل لكل إنسان يعمل الشر من اليهود.. ثم من اليونانيين، لأن الله لا يحابي أحداً، فالذين خطئوا بغير شريعة موسى يهلكون فبغير شريعة موسى يهلكون، والذين خطئوا ولهم شريعة موسى فبشريعة موسى يدانون، وأما الذين يسمعون كلام الشريعة هم الأبرار عند الله بل الذين يعملون بأحكام الشريعة هم الذين يتبررون، فغير اليهود من الأمم الذين بلا شريعة إذا عملوا بالفطرة ما تأمر به الشريعة، كانوا شريعة لأنفسهم، مع أنهم بلا شريعة، فيثبتون أن ما تأمر به الشريعة مكتوب في قلوبهم، وتشهد لهم ضمائرهم وأفكارهم فهي مرة تتهمهم ومرة تدافع عنهم" (روقه ٢٣:١٠-١١).

وجاء في عظة من عظات بطرس: (أرى أن الله في الحقيقة لا يفضل أحداً على أحد، فمن خافه من أية أمة كانت وعمل الخير كان مقبولاً عنده) (أعمال ١٠:٣٤-٣٦).

وبمثل هذه الروحية تجاوزت المسيحية في أعمال رسل السيد المسيح نطاق نشأتها لتبلغ النطاق الإنساني وتجد موقعها الرحب فيه.

وفي الإسلام نجد أن بلاغات الرسالة قد تدرجت ضمنياً من نطاق العشيرة، فالمدينة، فالبلد إلى الدائرة الإنسانية انسجاماً مع المنطلقات العامة للإسلام:

(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (الشعراء: ٢١٤).

(لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا) (الشورى: ٧).

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (سبأ: ٢٨).

وبمقتضى تلك الحقيقة الإنسانية لرسالة الإسلام فقد انتظم في صفوفها الكثير من غير العرب، فكان من السابقين للإسلام بلال الحبشي، وصهيب بن سنان الرومي، وسلمان الفارسي، والذين كانوا جزءاً من الأمة التي حملت

لواء الإسلام ونشرته هدى وسلاماً للناس أجمعين.

والواضح أن الرسالة المسيحية قد بلغت الرحاب الإنساني من ذات المنطلق الرسالي العام فتجاوزت الدائرة الإسرائيلية لتستظل في عقيدتها السمحة مختلف الأجناس كمثل الإسلام، ولتمضي مع ركبه في قافلتين تسيران في خطين متوازيين في أفرع شتى من فروع الأرض الواحدة، وهما يتباريان ويتناوبان فيها على حصة واحدة مشتركة من الإيمان.

وإذا كنا نجد في هذا المسار الديني- للمسيحية والإسلام- صفة الوئام القومي والإنساني، فإننا نجد في اليهودية إلا صفة الوئام القومي تأخذنا إلى ذلك عنوة نصوص العهد القديم من الكتاب المقدس وهي تعرب عن ذلك فيما تعرب عنه جملة النصوص للعهد الجديد وجملة النصوص والحوادث الإسلامية.

وأن هؤلاء الذين حملوا الحروب الصليبية وباء العنصرية إلى النصرانية قد اجترؤوا وتجرؤوا على المسيح والمسيحية، ولم يكن لهم من مقام التبشير الصحيح ما كان لرسله الأولين الذين تحملوا الإيذاء والاضطهاد ولم يؤذوا ويضطهدوا من تبعهم منهم ذلك أو فكروا في المقابلة السيئة، وقد تمثلوا في ذلك سيرة سيدهم ومعلمهم يسوع المسيح الذي ما تجرأ في حياته على أحد، واحتمل الجور صابراً محتسباً، حتى أنه لم يسمح لأحد من تلامذته وهو في الموقف الصعب من المواجهة ما مر ذكره عند تعرضه لحادثة القبض عليه، بل أنه كما ذكر كان موقف في غاية السماحة مع من قطع تلميذه أذنه من خدم رئيس الكهنة إذ لمس أذن ذلك الرجل فشفاها (لوقا ٢٢:٥١).

وقد دعى رسل السيد المسيح دعوة معلمهم إلى المسامحة وعلى ذلك الـنحو المتميز والفريد ليترجموها في تعاملهم بعد ذلك فقد ورد عن الرسول بولس في رسالته إلى كنيسة روقه:

(لا تجاوزا أحداً شراً بشر، واجتهدوا أن تعملوا الخير أمام كل الناس، سالموا جميع الناس إن أمكن على قدر طاقتكم لا تنظموا لأنفسكم أيها الأحباء بل دعوا هذا الغضب لله، والكتاب يقول: لي الانتقام، يقول الرب وأنا الذي يجازي) (روقه ١٢:١٧-٢٠).

وقد مر بنا ما كان قد تعرض له الرسول بولس من الاضطهاد والعنت وفي البلاغ القرآني، وسيرة الرسول محمد ﷺ وصحابته والتجسيد العملي للأخلاق الرسالية، والتي انتظمتها الشريعة نصوصا مشرقة في أدب التعامل الرسالي:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)(فصلت: ٣٤).

(وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(التغابن: ١٤).

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) (الزخرف:٨٩).

(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)(الحجر: ٨٥).

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران:١٥٩).

وفي البعد الشمولي للإسلام تجلت في حركة الفتح الإسلامي سماحة الفاتحين مع أهل البلاد المفتوحة ويقول المؤرخ(ول. ديورانت) شهادته في ذلك:

(أن العرب المسلمين لم يكونوا في حروبهم همجاً متوحشين منوهاً إلى: أن جيوش العرب كانت خيراً من جيوش الفرس والروم نظاماً وأحسن قيادة، يألفون المشاق وينالون جزاءهم من الفيء، وقد كان بوسعهم أن يحاربوا وبطونهم خاوية، ويعتمدوا على النصر في الحصول على طعامهم). مستذكراً

ما أوصاهم به أبو بكر الصديق رضي الله عنه من شمائل الخلق الجهادي، والتي سنذكرها في موردها المناسب[٩٥].

ويلاحظ أن الإسلام كالمسيحية لا يقف بوجه زواج أبنائهم من بعضهم البعض، كما عهد انتقال جمع من أهل الكتاب من هذا الدين أو ذاك إلى الإسلام، ولم يقف أهل بعض الأديان حائلاً دون ذلك، والواضح أن طبيعة الانتقال من دين إلى آخر إنما تحصل على نحو الانسياب أو التدرج في انحدار المسار الرسالي، أو تتابع أجزائه إلى المسافة الأقرب في الزمن إلى الله ويعد سلمان الفارسي في الإسلام مثالاً لذلك فقد تدرج بالانتقال من المجوسية فالنصرانية إلى الإسلام ليستقر على آخر سفح من سفوح الإبلاغ الرسالي، كذلك شأن كعب الأحبار وابن سلام من خاصة اليهود، فإنهم انتقلوا إلى الإسلام على نحو ما سيرد بيانه، وكمثل هؤلاء فإن القديس الرسول بولس قد تحول من كونه الرجل اليهودي المتزمت الذي أسهم في اضطهاد المسيحين بشدة إلى أنشط الدعاة المسيحيين وأشهدهم إخلاصاً للمسيحية، وقد جاء من ضمن اعترافه في ذلك بعد اعتقاله في الهيكل:

(أنا رجل يهودي ولدت في طرطوس من كليكية وتعلمت عند قومي غمالائيل شريعة آبائنا تعليماً صحيحاً، وكنت غيوراً على خدمة الله مثلهم... واضطهدت مذهب يسوع حتى الموت، فاعتقلت الرجال والنساء وألقيتهم في السجون، وبهذا يشهد لي رئيس الكهنة وشيوخ الشعب كلهم، فمنهم أخذت رسائل إلى إخوتنا اليهود في دمشق فذهبت إليها لاعتقال من كان مؤمناً بهذا المذهب فأسوقه إلى أورشليم لمعاقبته) (أعمال ٢٢:٣-٥).

وأنه قد استجاب بعد ذلك لنداء التقي حنانيا في دمشق بأن يتعمد، ويتطهر من خطاياه، ويدعو باسمه، وان الرب قد قال له أثناء غيبوبته في الهيكل في أورشليم: (هيا سأرسلك إلى مكان بعيد إلى غير اليهود من

الشعوب)، (أعمال ٢٢:١٥، ٢١).

ليقول بولس بعدئذ أمام الحاكم بكل جرأة: (إني اعبد إله آبائنا على المذهب الذي يدعون أنه بدعة، وإني أؤمن بكل ما جاء في الشريعة، وكتب الأنبياء، راجياً من الله ما يرجون هم، أي قيامة الأبرار والأشرار، فأنا مثلهم أبداً سليم النية عند الله والناس) (أعمال ٢٤:١٤-١٧).

... وبذلك فقد دخل بولس الرسول، كما دخل سلمان الفارسي، وكعب الأحبار، وابن سلام وغيرهم ممن طاعوا أنفسهم للحقيقة النهائية في تحولهم إلى المنحى الشمولي في الإيمان في وصل السابق باللاحق من عقائدهم.

وعلى خلاف تلك الصورة من سماحة الفكر وعفويته العقلية نجد في الفكر والسلوك اليهودي ما يؤلب على الأقوام والأديان الأخرى، وما يجسد نظرة الاستعلاء عليهم فيما نجد في بعض نصوص العهد القديم ما يدعوهم إلى ممارسة وسائل التنكيل والبطش عند غلبتهم للأمم الأخرى، بل الإبادة والاستئصال:

(وإذا أدخلك الرب إلهك الأرض التي أنت صائر إليها لترثها واستأصل أمماً كثيرة من أمام وجهك -الحثيين والجرجاشيين والكنعانيين والفرزيين والحوبيين والبوسيين- سبع أمم أعظم وأكثر منك، وأسلمهم الرب إلهك بين يديك وضربتهم فأبسلهم إبسالاً... لا تقطع معهم عهداً، ولا تأخذك بهم رأفة ولا تصاهرهم ابنتك لا تعطها لابنه وابنته لا تأخذها لابنك لأنه يغوي ابنك على اتباعي فيعبد آلهة أخرى) (الاشتراع ٩:١-٣).

(والرب إلهك يستأصل أولئك الأمم من بين يديك قليلاً قليلا، لأنك لا تقدر على أن تفنيهم سريعاً لئلا يكثر عليك وحش الصحراء ويسلمهم الرب إلهك بين يديك ويوقع عليهم اضطراباً شديداً حتى يفنوا ويدفع ملوكهم إلى يدك

فتمحوا أسماءهم من تحت السماء فلا يقف أحد بين يديك حتى تفنيهم) (الاشتراع ٩:٢٤-٢٦).

(وأما مدن أولئك الأمم التي تعطيها لك الرب ميراثا فلا تستبق منهم نسمة، بل أبسلهم إبسالاً الحثيثين والأموريين والحوبيين والبوسيين كما أمرك الرب إلهك) (الاشتراع ٢٠:١٧).

... ومثل ذلك الكثير الذي يرد في نصوص شتى ولا ندري كيف يخبر الله الغفور ذو الرحمة لأبناء هذا الدين من مثل ذلك مالا يخبره لأبناء الأديان الأخرى، فالإسلام الذي مارس عملية الفتح كما لم يمارسها دين آخر لم تبح شريعته في كل مواجهاته مع المشركين والكفار أي شكل من أشكال العنت والاضطهاد والقسر بلا مبرر، بل أن القرآن قد أفاد بإجارة المشركين وإبلاغهم مأمنهم:

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) .... فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (التوبة: ٧).

كما أنه نهى عن سب الكفرة حتى لا يجرؤوا على سب الله بالمقابل:

(وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) (الأنعام: ١٠٨).

وفي مقابل ذلك فإنه لا أحد ينكر سماحة الأديان غير السماوية مجسدة في سلوك التقوى والزهد، المسالمة، كما في الهندوسية والبوذية والزرادشتية، حداً يبلغ فيه الإفراط في بعضها، وأنها قد واجهت قدرها وحصتها من العنت والمكابدة كمثل ما واجهت الأديان السماوية بإيمان معتقدي راسخ ما مكنها من أن تقيم فكرها في بلدان شتى، وقد أسلفنا ذكر بعض من شواهد ذلك.. وأنهم هؤلاء كلهم كان لهم في سلوكهم الإبلاغي مصداقية هذا الدور، وسواء لمن آمن أو لم يؤمن بمعتقداتهم فإنهم جميعاً يلتقون في ساحة الموقف المبدئي في

خط متواز انهم كلهم قد واجهوا أقدارهم بثبات حتى تحقق ما تحقق من رسالاتهم وعلى تفاوت ما قدر لكل منها من ذلك.

الفصل السابع

الإسلام والمسيحية

(وفاق الأحداث وحجية الرسالة على أهل الرسالة)

الإسلام والمسيحية

وفاق الأحداث وحجية الرسالة على أهل الرسالة

يقف بنا الدور أو الوظيفة التكاملية للرسالات الدينية، بمثل ما تقف بنا مجمل سيرة الرسل على حقيقتين هامتين:

الأولى: التعاقب الدوري للقيم والمبادئ الأساسية وانتظامها في سلك واحد يبرز حقيقة منطلقها وجوهرها الأيديولوجي الواحد، وحيث تؤدي الوظيفة الرسالية غايتها في تناسق وانسجام مع منطلقها التشريعي.

الثانية: التفرد بالخصائص الذاتية لكل رسالة ضمن الدائرة العامة للإبلاغ الرسالي، والتحاق وانتظام الدوائر الرسالية لبعضها في الدائرة الأكبر لمجمل المسيرة الرسالية، وهذا ما نجد وضوحه تماما في المسلك الرسالي في الإسلام.

وضمن الحقيقة الأولى تبرز معلومات أو حقائق فرعية على درجة كبيرة من الأهمية في مسلكيته الرسالية المسيحية ضمن الدائرة الإسرائيلية، فمن الملاحظ أن هناك سلسلة متتابعة من الأنبياء الذين انتظمهم الكيان الديني الإسرائيلي، وأن هذا التعاقب الرسالي على تفاوت دوره وتأثيره في الساحة الإسرائيلية قد أصطف في آخر المطاف والتحق بالرسالة الموسوية التي استطاعت أن تبرز وتوحد الكيان الإسرائيلي الذي كاد أن يسحق تحت مظلة الطغيان والاستعباد الفرعوني، وأن العهد القديم من الكتاب المقدس لم يعدو أن يكون غير سجل تاريخي للأحداث التي رافقت سيرة أنبياء بني إسرائيل، وأنها قد توقفت طويلا عند المسيرة الموسوية التي تمثل الجزء الأهم والأعظم من مجمل التاريخ الإسرائيلي، لأنها النقطة التي تحرر فيها الوجود الإسرائيلي من العبودية ومضى إلى تحقيق كيانه الذاتي المستقل، وإذ تغير موقف السلطة

الفرعونية بعدئذ تجاه بني إسرائيل، في ما كان الزحف البابلي قد انقض على المآثر والتراث المجيد للملكين النبيين داود وسليمان فكان العهد الموسوي قد نحت على صخرة الكيان الإسرائيلي آثار لا تمحى، بل إن شريعته رغم ما أصابها من التحريف قد ظلت عميقة الجذور في النفس الإسرائيلية وإنها كانت تقاوم في شخوصها أي بعث رسالي جديد ولتكون في نهاية المطاف عقيدة قومية.

ولم يكن لأية رسالة تالية لرسالة موسى أن تخاطب العقل الإسرائيلي إلا من خلال موسى، وهذا ما كان بالفعل بالنسبة للرسالة المسيحية فالشريعة الموسوية كانت محور الخطاب الذي توجهت به اليهود، وهو ما كانت كذلك بالنسبة للخطاب الإسلامي لهم.

وقد كانت مشكلة السيد المسيح مع الوسط الإسرائيلي انه جابه التكتل الاجتماعي – الديني الذي ترسخت فيه مبادئ الشريعة الموسوية مع كل ما رافق ذلك من تقاليد وأعراف سارية، وكان عليه أن ينحت في الصخرة الإسرائيلية ما يرضي العقل الإسرائيلي فيما لا يجده خروجاً عن موروثة الرسالي وما أحاط به من تقاليد وأعراف والتي طالما أشار السيد المسيح إلى أنها كانت تعلو على ما في شريعة موسى موضحاً ذلك في أمثلة شتى من سلوك الفريسيين ومعلمي الشريعة إذ قال لهم:

(ما أبرعكم في نقض شريعة الله لتحافظوا على تقاليدكم، قال موسى: أكرم أباك وأمك، ومن لعن أباه وأمه ثم قال لهما: هذا قربان، أي تقدمه لله، يعفى من مساعدة أبيه وأمه، فتبطلون كلام الله بتقاليد من عندكم تتوارثونها وهناك أمور كثيرة مثل هذه تعلمونها) (مرقس ٧:٩-١٣).

(أنتم تهملون وصية الله وتتمسكون بتقاليد البشر) (مرقس ٧:٨).

أمام ذلك الغلو في التمسك بتقاليد وقيم صاغها الفريسيون ومعلمو الشريعة ورؤساء الكهان منهجا لسلوكية كانت ذات أثر وتأثير بالغ في ذلك الوسط الاجتماعي كانت صيحات السيد المسيح تذهب سدى مع أولئك الذين وصفهم بأنهم:

(كالقبور المبيضة، ظاهرها جميل وباطنها ممتلئ بعظام الموتى وبكل فساد) و (الحيات أولاد الأفاعي) (بتي ٢٨:٢٣، ٣٣).

وقد ظلت تلك الفئة المتنفذة الطاغية تقاوم مسيرة الرسالة المسيحية وكانت وراء اقتياد السيد المسيح إلى النهاية المفجعة وقد حملها وزر كل ما كانت من المآسي التي أصابت أنبياء بني إسرائيل من قبل والتي توافق الكتاب المقدس والقرآن الكريم في ذكرها:

(لذلك سأرسل لكم أنبياء وحكماء ومعلمين فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم من تجدلون في مجامعكم وتطاردون من مدينة إلى أخرى)(متى ٢٤:٢٣).

(أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ)(البقرة: ٨٧).

وكان السيد المسيح قد تعرض إلى جملة من الأمور والمسائل ما يوافق فيها ما ورد في منهج الشريعة الموسوية، مع قدر ما يتطلبه الاجتهاد بحكم الضرورة الموضوعية ومن ذلك أن بعض الصديقين وهم ينكرون القيامة سألوه: "يا معلم، كتب لنا موسى: إذا مات لرجل أخ وترك امرأته وما خلف ولداً، فعلى أخيه أن يتزوجها ويقيم نسلاً لأخيه، وكان هناك سبعة أخوة، فتزوج الأول امرأة ومات وما خلف نسلاً، فتزوجها الثاني، ومات وما خلف نسلاً كذلك الثالث والآخرون ... ثم ماتت المرأة من بعدهم جميعاً، فلأي واحد منهم تكون زوجة في القيامة حين يقومون؟ فأجابهم يسوع (أنتم في ضلال، لأنكم تجهلون الكتب المقدسة، وقدرة الله، ففي القيامة لا يتزاوجون، بل

يكونون كالملائكة في السموات، وإما أن الأموات يقومون، أفما قرأتم في كتاب موسى خبر العليقة، كيف كلمه الله فقال: أنا إله إبراهيم وإله أسحق، وإله يعقوب؟ وما كان الله إله أموات، بل هو إله أحياء، فما أعظم ضلالكم) (متى ١٢:١٨-٢٨).

وكان هناك أحد معلمي الشريعة فسمعهم يتجادلون، ورأى أن يسوع أحسن الرد على الصدوقين، فدنا منه وسأله: "وما هي أولى الوصايا كلها"؟

وكان في جواب السيد المسيح ما يتوافق مع ما سبق وأوردته الشريعة الموسوية:"الوصية الأولى هي: إسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا هو الرب الأحد، وأحب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك، وكل فكرك وكل قدرتك. والوصية الثانية هي: أحب قريبيك مثلما تحب نفسك، وما من وصية أعظم من هاتين الوصيتين، فقال له معلم الشريعة: أحسنت يا معلم فأنت على حق في قولك أن الله واحد ولا إله سواه، وأن يحبه الإنسان بكل قلبه وكل فكره وكل قدرته، وأن الله يحب قربيه مثلما يحب نفسه، أفضل من كل الذبائح والقرابين. (مرقس ٢٨:١٢-٣٤).

وفي ما كان القرآن الكريم يعلن بصريح النصوص توافق منهج الرسالات وتكامل وظيفتها:

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) (البقرة:٢٨٥).

ويوافق ذلك ما ذكره (د. صفوان السيد) من أن رسل الله لم يكونوا على أديان مختلفة ولم يكن كل رسول منهم يأمر قومه بترك دين الرسول الذي كان قبله، لأن دينهم كان واحدا، وأن علة أن يكون كل رسول يدعو إلى شريعة نفسه وينهى عن شريعة الرسول الذي قبله لأن شرائعهم كثيرة، ولذلك قال الله تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)(المائدة: ٤٨).

أي في الشريعة وأوصاكم جميعا بإقامة الدين، وهو التوحيد، وان لا يتفرقوا فيه:

(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)(الشورى: ١٣).

وعلى ذلك فقد ذهب اتباع الإمام حنيفة سيراً مع فلسفة إمامهم حول معنى الإسلام فقالوا: إن أهل الكتاب الذين تحدث عنهم القرآن ليسوا النصارى واليهود فقط بل كل من اعتقد ديناً سماوياً وله كتاب منزل مثل التوارة- والإنجيل - وصحف إبراهيم وشيث وزبور داود[٩٦] وهذا ما يتجارى مع مضمون سائر الآيات القرآنية التي أوردت الإيمان بكل رسل الله وكتبهم.

وبمثل ما جابه السيد المسيح محنة الرفض لدعوته والتي ما كان يفهم غايتها على نحو مؤكد إلا النفر القليل من النخبة من تلاميذه (الحواريون) وكان بعضهم من ينتمي لأعرق الأسباط اليهودية كبطرس فإن الرسالة الإسلامية قد جابهت مشكلات الرفض من جماعة المشركين في مكة، ولم تتلق في البدء إلا صدى محدوداً من مؤمني الرسالات السماوية الذين كانوا يتوزعون على أجزاء من الجزيرة العربية وما حولها، في وقت وفق فيه الرسول محمد ﷺ في كسب التأييد من منظومات هامة من أهل الكتاب سارعت في وقت مبكر لدعم المسيرة الإسلامية مدركة حقيقة التوافق ما بنيها وبين أصول شرائعها كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، في ما كان القرآن يوجه اللوم لتلك الفئة من أهل الكتاب الذين لم يدركوا حقيقة الرسالة الإسلامية التي جاءت تذكيراً وبياناً لما في كتبهم المقدسة وعلى فترة من انقطاع دورة الإبلاغ الرسالي:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (المائدة:١٦).

والواضح تماماً أن مجريات الأحداث على عهد الرسالة الإسلامية أن المجموعة التي انبرت إلى مقاومتها، هي في الطبيعة والتوجهات، نفسها التي وقفت ذلك الموقف السلبي والعنيد من دعوة السيد المسيح، فيما كان المسيحيون أقرب صلة وأدعى إلى التوافق مع الرسالة الإسلامية من سواهم من أهل الكتاب، كما أنهم كانوا بعدئذ أطوع لهذه الرسالة من سلطة الحكم المسيحي الجائر آنذاك، وسنرى لاحقا كيف أن فئات واسعة من المسيحيين قد انتظمت تحت لواء الحكم الإسلامي وأخلصت في ولاء الانتظام الطوعي على عكس الفئة الأخرى، وقد سجل القرآن للطائفتين – المسيحية واليهودية موقفها في نص لا تزال مضامينه سارية المفعول على تفاوت الزمن وبعده عن مشهد تلك الأحداث التي سبقت والأحداث التي لحقت، وكأن التاريخ لا ينفك يقدم النماذج المتكررة لصحة المنطوق الرسالي:

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ) (المائدة: ٨٤).

ويذكر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بصدد الآيات السابقة فيما يخص النصارى أنه: رغم أن القرآن قد ذكر أحوال النصارى ما نقد فيه

اعتقادهم حول المسيح - خاصة- ولكنه لم يحك عنهم ما فيه عدواتهم للمسلمين، وكان ما جاء في الآيات السابقة حاصلاً لما تكنه ضمائر الفريقين نحو المسلمين، ولذلك فصلت ولم تعطف، وأن وجود القسيسين والرهبان بين صفوف النصارى قد كان سببا في اقتراب مودتهم من المسلمين لما هو معروف بين العرب من حسن إخلاص القسيسين والرهبان وتواضعهم وتسامحهم وكانوا منتشرين في جهات كثيرة من بلاد العرب يعمرون الأديرة والصوامع للبيع، كما اتصف عرب الشام من النصارى بالزهد ومسالمة الناس وكثر ذلك في كلام شعرائهم (٩٧).

(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ)(الرعد: ٣٠).

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)(الروم: ٤٧).

(لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ)(الحج: ٦٧).

وعلى وفق ذلك فإن كل أمة تختص برسلها الذين يبعثون من بين أبنائها وبلغتهم:

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ) (النحل: ٨٩).

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)(إبراهيم: ٤) .

(كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(الجاثية: ٢٨).

ووفقاً لذلك فإن الأحكام الإلهية تسري على معتنقي الأديان بمقتضى ما يرد بكتبهم:

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) (يونس:٤٧).

(وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) (المائدة: ٤٣).

(وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْأِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (المائدة:٤٨).

ومن الناحية العملية فإن الرسول في بعض قضائه بين أهل الكتاب يكون من سلوكهم وهم في ذمة الإسلام، كان يستن بسنة الرسل ليقضي بينهم في الجاري في شريعتهم، ومن ذلك ما ذكره عبد الله بن عمر:أن رسول الله ﷺأتي بيهودي ويهودية قد زنيا فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء اليهود فقال: ما تجدون في التوراة على من زنى؟ قالوا: نسوّد وجوههما ونحملها ونخالط بين وجوههما ويطاف بهما. قال: فأتوا بالتوارة إن كنتم صادقين فجاءوا بها فقرؤوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام –وكان من أحبار اليهود الذين أسلموا وهو مع رسول الله ﷺ مره فليرفع يده فرفعها فإذا تحتها آية الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺفرجما[٩٨].

والواقع أن الإسلام قد أفرد كمثل ما أفردت المسيحية لرسائلها على عهد السيد المسيح – مفردات متميزة من القرارات والأحكام التي تتجارى مع منطلقات الشريعة الموسوية، ولكنها تنفرد بخصوصية الموقف النابع من طبيعية الظرف ومقتضياته، والكتاب المقدس مليء بمثل تلك الحالات التي ذكر فيها قسطا من القرارات والنصوص التشريعية السابقة والتي عقب عليها السيد المسيح بأن عدل فيها وتجاوزها إلى أحكام وقرارات جديدة كانت قد أعانت المسيحيين بعدئذ لأن يكون لهم كيان ديني متميز، وقد جاء في الرسالة

إلى العبرانيين بشأن ذلك: (... ولكن المسيح نال خدمة أفضل من التي قبلها بمقدار ما هو وسيط لعهد أفضل من العهد الأول، لأنها قام على أساس دعوة أفضل من تلك، فلو كان العهد الأول لا عيب فيه، لما دعت الحاجة إلى عهد آخر).

وقد ساق السيد المسيح موارد الأحكام الجديدة بإيماءات وتعبيرات دالة يورد من خلالها الحكم السابق وبإزائه التعديل أو الحكم الجديد بمقتضى شريعته باستخدام عبارات مثل: (سمعتهم انه قيل لآبائكم أما أنا فأقول لكم...) و(قيل... وأنا أقول...) وحين ينقل النص من الشريعة السابقة يذكره بعبارة (يقول الكتاب) وغالبا ما كان يسأل معلمي الشريعة (ماذا تقول الشريعة؟) ثم يجيب ويعقب مجتهدا بما يناسب الموقف، وفي كل ما أورده السيد المسيح في ذلك وما جاء به الإسلام بعد ذلك من أحكام متجددة ما يشير إلى جانب من خصوصية الدور التشريعي على وفق الاعتبارات الموضوعية وبما لا يخرج عن المنطلق أو الإطار العام للدستور الإلهي، وان من جملة ما ذكر في الكتاب المقدس من تلك الموارد المعدلة أو المستجدة ما يلي [٩٩] .

١) نهت شريعة موسى عن القتل، أما السيد المسيح فقد ذهب أبعد من ذلك بالنهي عن التفكير في الإساءة عموما: (سمعتم أنه قيل لآبائكم: لا تقتل فمن يستوجب يقتل حكم القاضي، أما أنا فأقول لكم من غضب على أخي استوجب حكم القاضي، ومن قال لأخيه: يا جاهل استوجب حكم المجلس، ومن قال له: يا أحمق استوجب نار جهنم) (متى ٥: ٢١-٢٢). هذا وقد حرم الإسلام الإساءة للغير مطلقا، وأقام حد القصاص على القتل العمد:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة: ١٧٩).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى) (البقرة: ١٧٨).

وللقتل العمد حكم قاس:

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً) (النساء:٩٣).

فيما رتبت الشريعة التعويضات (الديات) عن الأضرار المترتبة عن القتل العمد وما يلحق به.

٢) اعترفت شريعة موسى بالانتقام وعملت بسنته (العين بالعين، والسن بالسن...) في ما نصح السيد المسيح بقبول الإهانة برباطة جأش (لا تقاوموا من يسيء إليكم، من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر، ومن أراد أن يخاصمك ليأخذ بثوبك فاترك له رداءك، ومن أمرك أن لا تمشي معه ميلاً واحداً فامشِ معه ميلين، ومن طلب منك شيئا فأعطه ومن أراد أن يستعير منك شيئاً فلا ترده خاليا) (متى :٥:٣٨-٤٢).

أما الإسلام فإنه بقدر ما نصح بالسماحة والعفو عن الإساءة فإنه أباح رد الاعتداء بمثله: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)(البقرة: ١٩٤).

٣) أباحت شريعة موسى الطلاق، بينما ألغى المسيح الطلاق وعلله، أما أنا فأقول لكم من طلق امرأته إلا في حالة الزنى وتزوج غيرها زنى، وحين سأله الفريسيون فلماذا أوصى موسى بأن يعطي الرجل امرأته كتاب طلاق فتطلق، فأجابهم لقساوة قلوبهم أجاز لكم موسى أن تطلقوا نساءكم، وما كان الأمر من البدء هكذا، فقال له تلاميذه إذا كانت هذه حال الرجل مع المرأة فخير له أن لا يتزوج) فأجاباهم يسوع: (لا يقبل هذا الكلام إلا إذا أعطى لهم أن يقبلون، ففي الناس من ولدتهم أمهاتهم

عاجزين عن الزواج، وفيهم من جعلهم الناس هكذا، وفيهم من لا يتزوجون من أجل ملكوت السماوات فمن قدر أن يقبل فليقبل) (متى ١٩:٨-١٢).

وبصدد تعدد الزوجات يشير د. جمال الدين محمد محمود إلى أنه ليس هناك نصوص قاطعة تمنع الزوجات في الأناجيل الأربعة، وإن كان معروفاً وواقعاً في الحضارات القديمة كلها وفي اليهودية والمسيحية حتى العصور الوسطى، وعلى الرغم من ذلك استمرت الكنسية على تحريم التعدد، وانتقل إلى القوانين المدنية (فالمادة ١٧٤-مدني فرنسي) اعتبرت التعدد جناية والقانون المدني الإيطالي (المادة ٨٤) وكل القوانين الغربية تدين هذا مع شيوع الارتباط غير المشروع بالنساء إلى درجة لا ينكرها أحد في البلاد الأوروبية [١٠٠].

وفي ما أباح الإسلام الطلاق اضطراراً، ليكون أبغض الحلال عند الله، فإنه رسم له ضوابط اعتبارية تتجاوز حالة العسف إلى الحالة التي لا يكون فيها ثمة مندوحة عن هذا الأمر، مع الإيفاء بحق الزوجة المطلقة كاملا مع استحباب الرجوع عن الأمر إن أمكن، والذي يقرأ النصوص القرآنية التالية والكثير الوارد مثلها، يدرك المعايير المبدئية التي تحكم عملية الطلاق في الإسلام:

(الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ

النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) (البقرة: ٢٢٩-٢٣٢).

(لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (البقرة: ٢٣٦-٢٣٧).

وقد علل المؤرخ (ول. ديوارنت) من جانبه إباحة الإسلام لتعدد الزوجات أنه: ليعوض بكثرة النسل الوفيات العالية بين الذكور والنساء على السواء ولطول فترة النفاس وما يحدث في البلاد الحارة من نقص سريع في قوة الإخصاب ولكنه حدد عدد الزوجات الشرعيات بحيث لا يزيد على أربع [١٠١] ومن المفيد الإشارة إلى هنا إلى أن الإسلام قد ربط موضوع تعدد الزوجات بحالة الاقتدار المادي مع شرط العدل بين الزوجات، مع الإقرار باستحالة تحقق حالة العدل بين الزوجات، مع الإقرار باستحالة تحقق العدل هذه لاعتبارات نفسية طبيعية:

(فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا) (النساء: ٣).

٤) نهت شريعة موسى عن الزنا بمفهومة المألوف، أما المسيح فقد نهى عن كل فكرة تداعي الحس والخيال، فقال: (من نظر إلى امرأة ليشتهيها زنى بها في قلبه).

ويتماشى ذلك مع مضمون الحديث الشريف (فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى ذلك وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) (عن ابن عباس).

٥) اكتفى الإسرائيليون بإتمام واجبات العدل لنيل الإنسان النجاة، أما المسيح فأفهم الناس أن العدل وحده لا يكفي بل لا بد معه من المحبة، أما في الإسلام فقد مضى على أن المحبة وحدها لا توجب النجاة بل العمل الصالح.

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (العصر: ٣).

وقد فارق السيد المسيح ما كان يقال عن محبة الأقربين وبغض الأعداء ليكون الحب في شريعته نظام الحياة: (سمعتم انه قيل: أحب قريبك وأبغض عدوك، أما أنا فأقول: أحبوا أعداءكم وصلوا لأجل الذين يضطهدونكم، فتكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات، فهو يطلع شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين، فإن كنتم تحبون الذين يحبوكم فأي أجر لكم...) ويتجارى ذلك مع القيم الخلقية التي اشتملتها الشريعة الإسلامية:

(وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (فصلت: ٣٤).

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) (الزخرف:٨٩).

(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)(الحجر: ٨٥).

(وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(التغابن: ١٤).

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران:١٥٩).

وذلك القليل من كثير مما يمكن الاستدلال به على خاص الأحكام الرسالية ما يحتاج إيراده إلى كتاب كامل.

وإذا كانت المسيحية قد ارتهنت لحكم التميز في مسيرتها الرسالية والذي فرض عليها بعدئذ أن تخرج من النطاق الإسرائيلي انسجاما مع ما يتطلبه تتابع الدور الرسالي بحسب المراحل الزمنية من التكيف للمقتضيات الظرفية، ولأن استيعاب الزمن لا يتم إلا من خلال استيعاب الحقائق التي تسود كل مرحلة من مراحل الإبلاغ الرسالي نقول: إذا كان ذلك قد حصل بالنسبة للمسيحية تجاه الوسط اليهودي الذي لم يحتمل الطروحات المسيحية مع كونها تتجارى مع المنطلقات الأساسية لشريعته، فإن من البداهية أن تكون للرسالة الإسلامية ميزتها وخصوصيتها التي تجاوزت بها معايير واقعها الجاري والذي رتب قدراً أكبر من العنت والمقاومة التي جوبهت بها المسيحية كونها أي الرسالة الإسلامية قد اختارت اجتياز بوابة الشرك، وبوابة الجوار الرسالي في مجهود ضخم اشتمل على محورين:

المحور الأول: تجديد الموقف الرسالي ومراجعته، واشتمل ذلك على دعوة أهل الأديان القائمة وقت انبعاث الرسالة الإسلامية والذين أسمتهم بأهل الكتاب إلى إسناد موقفها بالرجوع إلى ما تتضمنه شرائعهم من المبادئ التي

تتوافق مع منطلقات الرسالة الجديدة، وقد اشتلمت الفعاليات التي انتظمتها هذه المحور بالنسبة للمسيحية، إعادة التأكيد على القيم والمبادئ التي تتجارى وتتوافق فيها المسيحية مع الإسلام وهذا ما يمكن أن تمثله في جملة خطابات القرآن الكريم لأهل الكتاب، والتي أوردنا نبذا منها ومن أخصها قوله تعالى:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (آل عمران: ٦٤).

المحور الثاني: تأكيد على الثوابت الأساسية في الإيمان الديني، إذ اشتملت عقيدة الإسلام على رابط مركزي لوحدة الفكر الرسالي في كل دعوات الرسل، إذ سجل الإسلام من خلال نصوص القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ ومنهجه اعترافه الصريح بسلامة منطلقات الرسالات السماوية جميعا، مع التأكيد على ضرورة التزام أهل الكتاب بأسس وقواعد عقائدهم، مقرراً في الوقت نفسه كما تثبت النصوص القرآنية الحرية لأهل الأديان في أن يتعبوا الذي أوحى الله إليهم من الحق المبين وان لا يكتموا ما ذكر في كتبهم من ذلك:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ) (المائدة: ٦٨).

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)(المائدة: ٦٦) .

وبالنسبة للمسيحية خاصة، فإن القرآن ينوه إلى جملة فإن القرآن ينوه إلى جملة من الحقائق التي تتصل بما طرأ على عقيدتها من أفكار لا تنسجم مع منطلقاتها الأساسية ومنها تحديد الفكرتين التاليتين:

أولاً: التثليث المفضي إلى الشرك

والواقع هذه المسألة قد أحدثت على كثرة ما جرى فيها من المشاقات وأوجه الخلاف شرخا في الجسد المسيحي أدى إلى جملة من الانقسامات، حيث أدى الخلط بين صفات السيد المسيح وصفات الله وعدم تحديد خط واضح بين مجال الكينونية الإلهية وكينونة السيد المسيح وقدرته التي تجاوزت من خلال معاجزه القدرة البشرية لترتقي إلى مصاف القدرة الإلهية – إلى قدر من التشويش وتفاوت وجهات النظر بين مذاهب شتى في الفكر المسيحي، حتى أن المسيحية قد بدأت –كما يشير المؤرخ أرنولد توينبي "وكأنها واحدة من المذاهب العديدة التي كانت داخل اليهودية، وأن المسيحيين اليهود– الذين كانوا المسيحيين الأصليين– كان يصعب عليهم أن يصدقوا أن الإنسان، وهو يهودي مثلهم، الذي قام من بين الأموات، كان ابن الله إلا أن يؤخذ الأمر بالمعنى المجازي، إذ أنهم لو قبلوا بهذا الاعتقاد لما أمكنهم أن يظلوا جزءاً من الكيان اليهودي" (١٠٢).

وقد برزت فيما بعد عدة اتجاهات استهدفت تعزيز وتوضيح ما اختلط معه الأمر حول مفهوم التثليث أو الإدارة الواحدة، فقد قاد الراهب (أريوس) في الإسكندرية زمن الإمبراطور قسطنطين حملته التوحيدية والتي عدت في وقتها كما يذكر المؤرخ "ول. ديورانت" بمثابة الحركة الإلحادية" حيث قال أن المسيح لم يكن هو الخالق شيئا واحدا، بل كان هو الكلمة أول الكائنات التي خلقها لله وأسماها" وقد احتج الأسقف ألكسندر على هذا القول، ولكن أريوس أصر عليه وقال أنه إذا كان الابن من نسل الأب فلا بد من أن تكون ولادته حدثت في زمن، وعلى هذا لا يمكن أن يكون الابن متفقاً مع وجود الأب في الزمن... وأنه إذا كان المسيح قد خلق؟، فلا بد من أن يكون خلقه من لا شيء أي من غير مادة الأب، لأن المسيح والأب ليسا من مادة واحدة، وقد ولد

الروح القدس من الكلمة، وهو أقل ألوهية من الكلمة نفسها".

والواضح أن الأفكار التي طرحها أريوس حول كينونة السيد المسيح والتي تعتبر كما ذكر –استمرارا للأفكار المنحدرة عن أفلاطون عن طريق الرواقيين، وفيلون، وأفلوطيس، وأرخن، إلى أريوس [١٠٣]وما ذهب إليه النساطرة في كون المسيح إنسان وهو كملة الله، أينما يتوافق مع ما ورد في الآية (٤٥) وما بعدها من سورة آل عمران:

(إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (آل عمران:٤٥-٤٧).

وقد أورد ابن كثير في تفسيره لعبارة (بكلمة منه) أنه عليه السلام خلق بمجرد أمر التكوين الإلهي المعبر عنه بكلمة (كن) فالكلمة هنا يراد بها كلمة التكوين،وهي تعلق القدرة التنجيزي كما في حديث خلق الإنسان، وقوله (منه) من: للابتداء المجازي، أي بدون واسطة أسباب النسل المعتادة، وقد دل على ذلك قوله تعالى: (إِذَا قَضَى أَمْراً) وفي قوله: (اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ). عبر عن العلم واللقب والوصف بالاسم لأن لثلاثتها أثرا في تمييز المسمى، وأما اللقب والعلم فظاهر، وأما الوصف المفيد للنسب فلأن السامعين تعارفوا ذكرا لأب في ذكر الإعلام للتمييز [١٠٤].

ويورد "معجم الكتاب اللاهوتي" حول الأب أن الأبوة هي الصفة الأساسية لله وانطلاقاً من الاختيار البشري للآباء والأزواج ممن توفر لهم الحياة العائلية وسيلة لممارسة السلطة وتحقيق الذات في المحبة، وبطريقة تختلف عن الطريقة الوثنية التي تنقل إلى آلهتها هذه الأمور البشرية، وأن هذه

الأبوة الروحية هي التي تخصص بولس في إبرازها لاهوتيا، وقد وردت دعوة حزقيال (أبو البشر) وهذه اللفظة تظهر الفوارق بين الله والإنسان وتذكر النبي بطبيعته الثانية، وكذلك فإنه عندما تطلق عبارة أبناء الله في مناسبات متفرقة في العهد القديم على الملائكة الذين يكونون الحاشية الإلهية (١٠٥).

وأن كلمة (أبا Aba) كانت تعني في الأساطير الهندية في أمريكا الشمالية – كما يشير معجم ديانات وأساطير العالم روح طيبة خلق السموات والأرض (١٠٦).

والواضح أن كلمة الأب التي ترد كثيرا في ثنايا الكتاب المقدس – في عهديه القديم والجديد– إنما تنطبق مع المقصد اللغوي منها وهو السيد والمالك وهو ما ورد عن القرآن الكريم في قصة يوسف عليه السلام مع صاحبي الملك في السجن:

(أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً)(يوسف: ٤١).

(وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ)(يوسف: ٤٢).

فيما يذكر القرآن عبارة الرب على نحو واسع مرادفة لعبارة الله والإله باعتباره مالك الملك في السموات والأرض.

وينوه جاك مايلز إلى انه: حين يقول المسيحيون في صلواتهم (أبانا الذي في السموات) كما كان المسيح يقول يتصورون إن الذي يقول: (ليكن نور) في سفر التكوين (١:٣) هو أب، مع أن الله لا يشير إلى نفسه بكونه أبا إلا بعد مئات من الصفحات من الكتاب المقدس في الإصحاح السابع من سفر صموئيل الثاني(١٠٧).

وعلى ذلك فقد كانت حملة القرآن قد انصبت على الفئة المسيحية التي تدين بعقيدة التثليث على نحو يفضي إلى الشرك:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (المائدة:١٧) .

(وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً) (النساء: ١٧١).

ويورد القرآن التساؤل عما إذا كان السيد المسيح قد دعا إلى عبادته وأمه، ففي ما ينفي عليه السلام أن يكون قال ذلك:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (المائدة: ١١٦-١١٧).

(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ) (آل عمران: ٧٩).

ثانياً: الرهبانية المبتدعة

والترهب هو التعبد في الصوامع لما أفرط فيه كما جاء في لسان العرب وقد نوه القرآن إلى أن ما كان عند النصارى من ذلك ما لم يتحقق منه القصد في ابتغاء رضوان الله بالانقطاع عن أمور الدنيا وما يقتضي فيها من حقوق:

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)(الحديد: ٢٧).

والواقع أن السيد المسيح كان يشكو على الدوام من تلك الطغمة والتي دنست وظيفة الأديان والجوامع بما لا يكون من وظيفتها الروحية.

وفيما كان بطرس في عظمته في بيت كورنيليوس يشير إلى تكافؤ نظرة الله إلى كل ما آمن به وعمل صالحا من كل دين وأمة:

(أرى أن الله في الحقيقة لا يفضل أحدا على أحد، فمن خافه من أية أمة كانت وعمل الخير كان مقبولا عنده).(أعمال٣٤:١٠-٣٥).

فكأنه كان يعبر عن تلك الحقيقة التي نبه القرآن الكريم إليها في سلوك البعض من أهل الكتاب، وورد عتابه عليهم في ذلك وسواه، مما آل إلى تفاخر بعضهم على بعض، في ما تكون هناك معايير مبتدئه تحكم ذلك:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (البقرة: ١١١-١١٣).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة:١٨).

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (النساء:١٢٥).

وفي الصفحة الثانية من نشاط الرسالة الإسلامية كان العمل المثابر لتوحيد المنظومة الرسالية في إطار التوحيد، وقد سعى الإسلام سعيا حثيثا وجادا في هذا المجال، حتى أن الإبلاغ الرسالي قد اقترن ومنذ السنوات الأولى لانطلاقته بذلك التوجه الذي تجاوز محيط الجزيرة العربية إلى المدى الأرحب من الأرض، بل أن الجزيرة العربية قد شهدت مدارات من الحوار الميداني ما بين الإسلام وكل فصائل التوحيد المتواجدة فيها وبالأخص منها المسيحية التي كان لها وجود متناثر في الجزيرة وما حولها في نجران وحوران في ما كانت الحيرة من المركز المهمة في حركة التبشير بالنصرانية بين العرب، ومنها ذهب قسم من المبشرين إلى اليمن والأجزاء الأخرى لنشر النسطورية والمذاهب النصرانية الأخرى، وفيها انعقد مجمع (دار يشوع) في السنة (٢٤٢) وفي هذه المدينة توفي الجاثيلق (دار يشوع) وكان النعمان بن المنذر قد تنصر حوالي سنة ٥٩٣م، وصار يعد نفسه من حماة المذهب النسطوري، ومن الحيرة أخرج (سرجيوس) في أواسط القرن السادس فذهب إلى اليمن والى نجران حيث قام بالتبشير هناك مدة ثلاث سنين حتى وفاته، وكان أهل نجران نصارى من بني الحارث بن كعب وهم مذحج

وكهلان،ومنهم بنو عبد المدان بن الديان أصحاب كعبة نجران وكان فيها أساقفة معتمون وهم الذين جاءوا إلى النبي فدعاهم إلى المباهلة، فيما كان الغساسنة في بلاد الشام من بين العرب المستنصرة ومنهم (ضجعم) وهو أحد العمال الذين نصبهم الروم على عرب الشام وذكر أنه وقبيلته دخلوا في النصرانية (١٠٨).

وفي مكة كان من بين أهلها من يبغي التوحيد، ومنهم المجموعة التي عرفت بـــ(الأحناف)، ومن مشاهيرهم (ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو، وعثمان بين حويرث، وعبيد الله بن جحش)، وكانوا قد فارقوا دين قومهم وارتحلوا إلى الشام فتنصروا كلهم لأنهم وجدوا النصرانية أقرب الأديان إذ ذاك إلى الحق الذي كانوا يرومونه، إلا زيد بن عمرو بن تقيل، فكان لزم الأحبار والرهبان الذين ذكر أنهم أخبروه بوجود نبي قد أزف زمانه واقترب أوانه فرجع يتطلب ذلك واستمر على فطرته وتوحيديته وقد أدركته المنية قبل البعثة النبوية، فيما أدركها ورقة بن نوفل في مطلعها، وكان يتوسمها في رسول الله محمد ﷺ في ما يتوفر عليه من الدلائل، فلما قصده النبيﷺ حين أوحى إليه وقصَّ عليه خبره، قال ورقة: "سبوح، سبوح، هذا الناموس الذي أنزل على موسى يا ليتني كنت فيها جذعا، يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك" فقال رسول الله " أو مخرجي هم؟" قال: نعم، انه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي(١٠٩) قبل أن يدرك الإسلام.

وقد كان للكنائس المسيحية قبل الإسلام حضورها، بل كان لها تراث هام في العربية، ويذكر المطران جورج خضر بصدد ذلك:

(أنه في مقاربة النعوت يصح اعتبار الكنائس هنا عربية ليس فقط بسبب العرب العاربة أو المستعربة من النصارى قبل الإسلام، ولكن بسبب

الاتصال الأساس بين محمد والنصارى وهو في بيت خديجة، ولا شك أن القصص القرآني المتعلق بمولد السيد المسيح وطفولته كان متداولا في الجزيرة، وإذا كانت اللغة الطقوسية عند هؤلاء هي السريانية، إلا أن مزيج اللغتين في العبادة ولو عن طريق الوعظ والحديث اليومي كان واقعا، ثم عندنا أسقف العرب وهذه كانت تسميته الرسمية في الأردن في القرن الرابع ومجاله الرعائي عرف بالكنيسة التي تحت الخيمة لأنه كان يتبدى مع شعبه، وعربا كان أساقفة حوران وكانوا عديدين قبل الفتح، ثم تعرب لسان النصارى وتعربت أقلامهم منذ القرن الثاني الميلادي إلى أن نسوا في معظمهم كل لغة أخرى، ولو استعملت عند بعضهم جزئياً اللغات القديمة في العبادة.

كما أن كتاب (غراف Graf) بالألمانية (تاريخ الأدب المسيحي العربي) يورد أسماء الكتب المسيحية التي وضعت بالعربية عند الأقباط والسريان والنساطرة والموازنة، وهي ألوف مؤلفة، ولكنها لم تنشر، وإن كشفها جميعا ليظهر بأن العربية لم تأب أن تتنصر وأن الحضارة العربية ستكتب كتابة جديدة إذا نشرت هذه الكنوز وأنه لم يلجأ إلى مقولة القومية التي لم تكن واردة في أذهان الناس في العصور الغوابر.

واكتفينا بالمفهوم الحضاري وجب التأكيد على أن المسيحية نطقت قبل الإسلام وبعده العربية، وأنها جملة استخدمت جميعها بمقادير مختلفة اللسان العربي منذ ألف سنة(١١٠).

وإنا لنؤكد مع المطران جورج خضر بأن شواهد التاريخ الرسالي للإسلام فجر انطلاقته قد دللت على أن النسق المسيحي كان يجري بالتوافق مع النفس الإسلامي في الساحة العربية على قدر ما كانت نفس السيد المسيح يجري في روح رسول الله ﷺالذي قال:

(أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة، قالوا:كيف يا رسول الله؟ قال: الأنبياء أخوة من علات، وأمهاتهم شتى ودينهم واحد فليس بيننا نبي) (أخرجه البخاري).

وكما كان الرسول ﷺ هكذا في الولاية مع السيد المسيح، فقد كان المسيحيون على عهد رسالته أولى الناس انحيازاً وانتصاراً لرسالة الإسلام، فمن الحبشة مهد النصارى وحكمهم الماثل على عهد الرسالة جاءت النصرة للإسلام مبكرة، حيث لجأت الطلائع الأولى من مهاجري الإسلام، في الهجرتين الأولى والثانية إليها ولم يكن غير الحبشة المسيحية مأمناً وملاذاً لهم كونها تخضع لحكم ملك مسيحي تقارب عقيدته الإسلام، وهي كما صرح: تخرج من مشكاة واحدة، وقد رفض النجاشي بإصرار أن يسلم المهاجرين لقريش التي بعثت بـــ(عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي أمية) ومعهم الهدايا للنجاشي وأعيانه طالبين ردهم إليهم، فامتنع عن ذلك، وقد استمع لشرح مفصل عن أهداف ومقاصد الإسلام قدمه وفد مهاجري الإسلام على لسان جعفر بن أبي طالب، الذي قرأ في حضرة النجاشي نبذا مما ورد في سورة مريم من (كهيعص) والتي تتحدث بوصف بليغ وجزل عما جرى للقديسة مريم العذراء والسيد المسيح عليهما السلام مع الإشارة لذكر الأنبياء الآخرين منوهة بصلة الترابط بين قوانين السماء المعبر عنها برسالات الأنبياء وتوافق مراميها.

وينبه الأستاذ عبد الرحمن خليل إبراهيم في ملاحظة طريفة إلى ورود عبارة وأمرنا بالزكاة والصيام ضمن خطاب جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي وحيث لم يفرض في مكة أبان تلك الفترة ولم يوجه الرسول الدعوة إليها بعد، إذا كان مهتما بترسيخ عقيدة الإيمان بالله فيقول في مدلول ذلك: أن الرسول ﷺ قد أخذ أصحابه بدعوتهم إلى الزكاة والصلاة والصيام

وخاصة الذين سيهاجرون إلى بلاد تدين بالمسيحية لأن الإسلام متكامل واختصاص مكة بالدعوة إلى الوحدانية اقتضتها طبيعة الدعوة [١١١].

وكانت رسالة النبي محمد ﷺ للنجاشي تعبر عن مضمون الوفاق الرسالي ما بين المسيحية والإسلام قد ورد فيها:

(سلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن) وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، وأني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وان تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله) وذكر الآية الكريمة من سورة آل عمران:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (آل عمران:٦٤).

وكان جواب النجاشي: (سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته، من الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني للإسلام، أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله في ما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض أن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثغروقا، أنه كما قلت، وقد قربنا بان عمل وأصحابه وأشهد انك رسول الله صادقا وصديقا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأصحابه وأسلمت على يديه لله رب العالمين)[١١٢].

في ما ذكر بأن النجاشي قد بعث للرسول محمد ﷺ بابنه أبرهمة بن الأصجم بن أبحر وتؤكد المصادر الإسلامية إسلام الملك النجاشي وان النبي محمد ﷺ حين بلغه موت النجاشي صلى عليه واستغفر له، وأنه قد ثبت في

الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول ﷺ: نعي النجاشي في اليوم الذي مات فيه وخرج بهم إلى المصلى صلى بهم وكبر أربع تكبيرات، ونقل عن البخاري قال: قال رسول الله ﷺ حين مات النجاشي مات اليوم رجل صالح قوموا فصلوا على أخيكم أصجمة، وحين قدم وفد النجاشي على رسول الله قام بخدمتهم فقال أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله فقال لهم: كانوا أصحابي مكرمين وأني أحب أن أكافيهم.

في ما ذكر البيهقي من أمر نصارى نجران: أنهم قدموا على رسول الله في عشرين رجلا وهو بمكة، أو قريب من ذلك حين ظهر خبره من أرض الحبشة فوجدوه في المجلس، فكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسائلتهم عما أرادوا دعاهم الرسول إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا فاضت أعينهم بالدمع ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوهن وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش قائلا لهم: خيبكم الله من ركب بعثكم من ورائكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ما نعلم ركبا أحمق منكم فقالوا لهم: لا نجاهلكم سلام عليكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا تألون أنفسنا خيرا وفيهم نزلت الآيات التالية:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) (القصص: ٥٢-٥٥).

وبالنسبة للمقوقس ملك الإسكندرية فإنه استقبل بالترحاب والتقدير رسول النبي محمد إليه، والذي حدث عن هذا الأمر قائلاً: (بعثني ﷺ إلى المقوقس ملك الإسكندرية، قال فجئته بكتاب رسول الله فأنزلني في منزله وأقمت في منزله، ثم بعث إلي وقد جمع بطارقته؟ وقال: إني أسألك عن كلام وأحب أن تفهم عني، قال: قلت هلم، قال: أخبرني عن صاحبك أليس هو نبي، قلت بل هو رسول الله، قال: فماله حيث كان هكذا ألم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟ قال: فقلت عيسى ابن مريم أليس تشهد أنه هو رسول الله؟ قال: بلى، قلت فماله حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا؟ فقال لي: أنت حكيم قد جاء من عند حكيم، هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد، وأهدى إلى رسول الله ثلاث جواري إحداهن ماريا أم إبراهيم، والأخرى سيرين وهبها لحسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن بن حسان [١١٣].

وبالنسبة لهرقل ملك الروم فقد كانت أجابته للرسول محمد تنم على قدر من التعاطف والفهم لمضمون رسالته مع الاعتذار عن إجابة دعوته لعدم موافقة الروم عليها ومما جاء في كتابه:

(إلى أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى من قيصر ملك الروم انه جاء بي كتابك مع رسولك، وإني أشهد أنك رسول الله نجدك عندنا في الإنجيل، وبشرنا بك عيسى بن مريم، وإني دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا، ولو أطاعوني لكان خير لهم ولوددت أني عندك فأخدمك وأغسل قدميك)[١١٤].

وبمثل ذلك التعاطف والنصرة، كان الانتصار والنصرة للموقف الرسالي للإسلام أجلى بيانا لما وقر في نفوس المسيحيين ما اتسم به التسامح

الديني، وهي المعاملة التي يأمر بها القرآن، من ذلك ما يذكر من سماح الرسول ﷺ للمسيحيين والعرب بالحفاظ على ديانتهم والنهي عن إكراههم على تركها مثلما أمر عماله: (من كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يفتن عنها، وسنة عدم التدخل في شؤون الكنيسة لطائفة نجران [١١٥] وبذلك فقد كانت حميمتهم للإسلام حيث وجدوا في سماحته سماحة السيد المسيح، وفي رسالته مضمون رسالتهم، وقد كانت هناك في أثناء الفتح مواقف مجلاة تشهد بالإسناد والتعاطف، ومن تلك المواقف أن الموحدين العرب من جنود القائد البيزنطي (Sacell air) قتلوا قائدهم ووقفوا إلى جانب الجيش العربي الإسلامي خلال معركة اليرموك وفيما ينقل عن البلاذري أن جبلة بن الأيهم حي أوعز هرقل لاستنفار لخم وجذام وغيرهم لمقاتلة المسلمين – أنحاز في القتال إلى الأنصار قائلا: أنتم إخوتنا، بنو أبينا، وأظهر الإسلام [١١٦].

وفي العراق فإن المثنى بين حارثة الشيباني كان لما أنكسر المسلمون في معركة الجسر قد بعث بالرسل للقبائل العربية لنجدته فجاءته النجدات ومن ضمن من جاءه (أنس بن هلال النمري) في جمع من النمر نصارى، وقالوا: (نقاتل مع قومنا كما أن زبيد الطائي وكان نصرانيا قاتل يوم الجسر ببسالة وكان قدم الحيرة لبعض أمره فيما كان غلام نصراني من أهل تغلب قد جلب خيلا هو وجماعة فلما رأوا القتال قاتلوا مع العرب المسلمين[١١٧]،وفي واقع الحال فإنه لم تكن الحمية القومية هي التي حركت من جور الحكم البيزنطي المسيحي، وهو ما جعلهم كما يذكر د.مأمون رباط يهللون للفتح الإسلامي في حقائق مذهلة لاستقبال المسيحيين لهذا الفتح محررا لإرادتهم.

وقد عبر عن ذلك ميخائيل السرياني بطريك السريان الأرثوذكسي في القرن الثامن عشر أصدق تعبير في قوله:"لأن الله هو المنتقم الأعظم، الذي

وحده على كل شيء قدير والذي وحده إنما يبدل ملك البشر كما يشاء، ولأن الله قد رأى ما كان يقترفه الروم من أعمال الشر من نهب كنائسنا وديورنا، وتعذيبنا بدون أية رحمة، فإنما قد أوتي من مناطق الجنوب ببني إسماعيل لتحريرنا من نير الروم، وهكذا كان خلاصنا على أيديهم من ظل الروم وشرورهم وحقدهم واضطهادهم وفظاعتهم نحونا".

ومثل ذلك ما نجده فيما يتعلق بأقباط مصر في تاريخ يوحنا النيقوسي الذي تولى أسقفية نيقو في دلتا بعد فتح مصر بقليل، وكذلك في تاريخ ساوروس الأشموني الذي جاء بعده، وهي شهادة تدل على ما كان عليه مسيحيو مصر وسوريا والعراق من الشعور نحو البيزنطيين والفرس من جهة، وحيال العرب المسلمين وان الجماهير الكثيفة التي تشكل أغلبية أهالي سوريا ومصر والعراق والتي كانت تدين بالمسيحية منذ القرن الأول قد اعتنقت الإسلام بأفواج متلاحقة بملء حريتها في حين أن من بقي من هؤلاء النصارى موزعين على طوائفهم المعروفة، بتسمياتها المختلفة، إنما هم شهود عدل عبر التاريخ ليس على سماحة الإسلام وهو تعبير لا يوفي بالواقع، على حد قول (د.أدمون) وإنما على إنسانية الدين العربي الذي جاء في القرآن وهو الدين الذي أقر لغير المسلمين ليس فقط بحقوقهم الفردية والجماعية كاملة، بل وأيضا بالمواطنة الشاملة .. ألم يكن الرسول العربي هو الذي قال في حديثة المشهور: (ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي)[١١٨].

وهكذا نجد أن المضمون الروحي متوافقا مع الاعتبار الإنساني قد أسهم في جمع مؤمني العقيدتين المسيحية والإسلامية مع بعضهم كمثل ما جمع الكيان الرسالي الواحد بين أنبيائهم، وسنرى بعدئذ كيف أن هذا اللواء الموحد

سيجد حضوره في يوم الدينونة الكبرى، ليحضر عيسى عليه السلام صلاة المسلمين في بيت المقدس، وليرضى المسلمون امتثالا لوعد رسولهم الكريم بأن يكونوا في إمرته ليرتفع لواء الله في وحدة الرسل والرسالات.

الفصل الثامن
شهادات التوافق بين الأديان

١ - ول. ديوارنت: شواهد التوافق في المنهج الرسالي.

٢ - موريس بوكاي: الكتب المقدسة - وثائق الإيمان.

٣ - هـ.ج. ويلز: شهادة الضمير للتوحيد الإسلامي.

٤ - راماكريشنا: التناغم بين الأديان.

٥ - الكاردينال أنطونيوس خريش: الدين والإيمان - الحقل المشترك.

٦ - فكتور سحاب: التناغم والتكامل.

٧-بطرس مراياتي: رسالة الإسلام للأديان.

شهادات التوافق بين الأديان

هناك الكثير ممن أدلوا بشهاداتهم الحقة في ما يكون بين الأديان من التوافق في الأحداث والأحكام، ومن تلك الشهادات الكثيرة اخترنا بعضاً مما أدلى به الكثير من أهل التاريخ والدين، تاركين الشهادة الأوثق والأدلة في ما يكون في منهج خاتمة الرسالات الدينية وهي شهادة تنبئ من خلال الفكر ومنهج السلوك العقائدي بوحدة الفكر الرسالي للأديان وبأنها كلها تسير على الجادة الواحدة إلى الله...

ول. ديورانت:

شواهد التوافق في المنهج الرسالي

أورد المؤرخ ول. ديورانت في موسوعته (قصة الحضارة) جملة من شواهد التوافق ما بين الأديان السماوية مستقاة من مصادرها الحيوية ومن أبرزها:

١) التماثل في الخطاب الرسالي بين القرآن والكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد، فسور القرآن ما عدا الفاتحة تعد كما يقول: حديثاً من الله أو جبريل إلى النبي وأتباعه أو أعدائه، وتلك هي الطريقة التي تراها في كثير من فقرات أسفار موسى الخمسة وأن محمداً كان يعتقد بأنه ما من قانون أخلاقي يمكن أن يقع في النفوس، وأن يطاع طاعة تكفل للمجتمع النظام والقوة إلا إذا آمن الناس انه منزل من عند الله وهذه الطريقة تتفق مع الأسلوب الحماسي الفخم ومع البلاغة اللذين يسموان في بعض الأحيان في أقوال النبي أشعيا، وأن في السور المكية الأولى نغمات موسيقية

رنانة وأسلوب جزل قوي لا يدركه إلا المسلمون باللغة العربية.

٢) في موضوع الإيمان يذكر أن كلاً من اليهودية والإسلام والمسيحية ترى أن ما يحتاج إليه المجتمع السليم هو الإيمان فإن هذا الكون خاضع لحكم أخلاقي مسيطر على شؤونه، وأن الأديان قد أعانت على تكوين عقلية الإنسان في العصور الوسطى مجتمعة كلها على أن هذه الفضيلة الكونية هي الله الواحد ذي الجلال، غير أن المسيحية أضافت إلى هذه العقيدة أن الله الواحد يظهر في ثلاثة أقانيم مختلفة، أما اليهودية والإسلام فتريان أن هذا الاعتقاد ليس إلا شركاً مقنعاً وتعلنان وحدانية الله بأقوى الألفاظ وأشدها حماسة وفي القرآن سورة خصصت كلها لهذا الغرض هي السورة الثانية عشرة بعد المائة -سورة الإخلاص- وأن المؤذنين يرددون ذلك من فوق الآلاف من المآذن كل يوم.

٣) بمثل ما يرد في العهد القديم من الكتاب المقدس أن (يهوه)- الله- قد طمس على قلب فرعون فجعله قاسياً، كذلك يرد في القرآن عن الكافرين:

(إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً)(الكهف: ٥٧).

وأن ذلك يتأكد بنفس القوة التي يؤكد بها القديس اوغسطين أمثاله: (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)(السجدة:١٣).

٤) إن المحور الذي تدور عليه المبادئ الأخلاقية في القرآن الكريم كما هو الحال في العهد القديم هو خوف العقاب ورجاء الثواب في الحياة الآخرة:

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)(الحديد: ٢٠).

وأن القرآن الكريم كبعض العقائد المسيحية يعنى كما يظهر بصحة الإيمان أكثر مما يعنى بالسلوك الطيب، فهو كثيراً ما ينذر من لا يقبلون دعوة النبي بعذاب النار في الآخرة كما في (آل عمران الآيات (٤،٥٦،١٣١) وسورة النساء (٥٦،١١٥، والتوبة ٦٣... الخ)، وإذا لم تكن الذنوب كلها بدرجة واحدة ولا نوعًا واحداً فقد جعلت النار سبع طبقات كل طبقة من العذاب ما يتناسب مع الذنب، الذي ارتكبه المذنب، ففيها الحرارة التي تشوي الوجوه وفيها الزمهرير، وحتى من يستحقون أخف العذاب يلبسونه أخدجيه من نار. (ويشرب الضالون المكذبون من الجحيم وشرب الهيم) (الواقعة ٤٠ وما بعدها).

وربما كان دانتي قد أبصر بعض الرؤى التي وضعها في ملهماته في القرآن إلا أن الجنة في القرآن واضحة وضوح صورة النار، وأن الجنة مقرّ المؤمنين الصالحين والذين يموتون في سبيل الله والفقراء يدخلونها قبل الأغنياء.

وأن القانون الأخلاقي في القرآن كما هو في التلمود شيء واحد، فالسلوك الديني في كليهما يشمل أيضاً السلوك الدنيوي وكل أمر فيها يوحي بها من عند الله،ويشير القرآن إلى نفس الحقيقة التي سبق وان أشار إليها السيد المسيح من أكل بعض الأحبار والرهبان لأموال الناس بالباطل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) (التوبة: ٣٤).

٥) يصف محمد النساء كما يصف آباء الكنيسة المسيحية بأنهن من أكبر الشرور التي أصيب بها الرجال، ويظن إن مصير الكثرة الغالبة منهن هو الجحيم، (وهذا رأي نرى أن لا حجة فيه في القرآن ولا مجمل الحديث النبوي، ولا في مجمل تعامل الرسول مع نسائه) فيما يعلل ديوارنت إباحة الإسلام لتعدد الزوجات انه ليعوض بكثرة النسل نسبة الوفيات العالية بين الذكور والنساء على حد سواء ولطول فترة النفاس وما يحدث في البلاد الحارة من نقص سريع في قوة الإخصاب -ولكنه حدد عدد الزوجات الشرعيات بحيث لا يزدن على أربع- وأن الإسلام قد أباح الطلاق للرجل كما أباحه التلمود، وللمرأة أن تطلق زوجها بأن ترد له صداقها -مستدلا بمضمون الآية (٢١٩) من سورة البقرة- فيما كان النبي لا يشجع على الطلاق كما أن القرآن نفسه يحض على عدم قطع العلاقة الزوجية إلا بعد أن تبذل الجهد للإصلاح بين الزوجين:

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً

يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً) (النساء:٣٥).

٦) في معرض حديث ديوارنت عن القرآن والدين والدولة يشير إلى أن عقيدة الإسلام المشتركة ما بين الطبقات والأجناس والتي تمثلت في قول النبي محمد: (اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة) معقباً على ذلك بقوله: (أنها لعمري أعظم معجزة للمسيحية والإسلام، وأن الذين يجلهون الإسلام هم وحدهم الذين يظنون أنه دين سهل من الوجهة الأخلاقية، منوهاً إلى أن القرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد وأقلها غموضاً وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس وأكثرها تحرراً من الوثنية وأن الإسلام قد علم الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ويتحملوا قيودها بلا شكوى ولا ملل وتحثهم في الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كله.

٧) إن المبادئ التي وردت في النصوص القرآنية:

(اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) (البقرة:١٩٤). (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ) (الشورى:٤١). تمثل الأخلاق التي تليق بالرجال، وهي شبيهة بما جاء في العهد القديم فهي تؤكد فضائل الرجولة كما تؤكد المسيحية فضائل الأنوثة وليس في التاريخ غير دين الإسلام يدعو اتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء، ولم يفلح في الدعوة دين آخر بقدر ما أفلح الإسلام:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران:٢٠٠).

وهكذا أيضاً يقول زرادشت الذي نادى بمبادئ نيتشه قبل وجود نيتشه

بزمن طويل.

وأن القرآن عرّف الدين وحدّده تحديداً لا يجد فيه المسيحي ولا اليهودي صحيح العقيدة ما يمنعه في قبوله مستدلاً بالآية (١٧٧) من سورة البقرة.

موريس بوكاي:

الكتب المقدسة (وثائق الإيمان)

لكل دين من أديان التوحيد الثلاثة كتابه الذي يختص به،وتشكل هذه الوثائق أساس الإيمان لدى كل مؤمن- يهودياً كان أو مسيحياً أو مسلماً- وكل مؤمن يعد كتابه تسجيلاً مادياً لوحي إلهي، وقد يكون هذا الكتاب منزلاً بشكل مباشر كما هو الأمر فيما يتعلق بإبراهيم أو موسى فقد تلقينا الوصايا من الله نفسه وقد يكون منزلاً بشكل غير مباشر كما هو الحال فيما يختص بالسيد المسيح أو محمد، فقد أعلن المسيح أنه يتحدث باسم الأب، أما محمد ﷺ فقد بلّغ الرسالة التي نقلها إليه جبريل.

وأن اعتبارات على المعطيات الموضوعية لتاريخ الأديان يوجب وضع العهد الجديد والأناجيل والقرآن على مستوى واحد من حيث أنها مجموعات للوحي المكتوب، غير أن هذا الموقف الذي يقول به المسلمون مبدئيا ليس هو نفس الموقف الذي يقبله مؤمنو بلادنا الغربية التي تنتشر فيها المؤثرات اليهودية والمسيحية والتي ترفض إعطاء القرآن صفة الكتاب المنزل.

القرآن الذي أتى بعد المسيح بقرون َستة يتناول معطيات عديدة جاءت في التوراة العبرية والأناجيل، ولذلك فهو يذكر التوراة والإنجيل كثيراً، والقرآن يوصي كل مسلم بالإيمان بالكتب السابقة عليه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)(النساء:١٣٦).

وهكذا فإن القرآن يؤكد المكانة البارزة التي يحتلها رسل الله في تاريخ التنزيل مثل نوح وإبراهيم وموسى، والأنبياء، خاصة المسيح الذي يحتل مكانه بارزة بينهم، ويخص بالذكر أيضا مريم ويطلق على السورة(١٩) اسمها.

ولا شك أن تاريخ الدينين (الإسلام والمسيحية) سيسجل روح الانفتاح نحو الإسلام والتي عبر عنها البابا بولس في تصريحه بـــ(إيمانه العميق بوحدة العالمين الإسلامي والمسيحي اللذين يعبدان إلهاً واحداً)، وأن هناك تغيراً جذرياً يتحقق الآن على أعلى مستوى في العالم المسيحي، فالوثيقة التي طبعتها سكرتارية الفاتيكان لشؤون غير المسيحيين إثر مجمع الفاتيكان الثاني بعنوان "توجهات لإقامة حوار بين المسيحيين والمسلمين" والتي طبعت للمرة الثالثة عام ١٩٧٠ تشهد بعمق التحول في المواقف الرسمية، فقد دعت الوثيقة إلى استبعاد الصورة التي يصور بها المسيحيون والمسلمون، والاعتراف بمظالم الماضي التي ارتكبها الغرب ذو التربية المسيحية في حق المسلمين..

والوثيقة تؤكد على وحدة الإيمان بالله عند الجماعتين وقد لحقت تلك البوادر للتقارب بين الهيئة البابوية لقاءات واجتماعات جعلت تلك البوادر للتقارب أمرا واقعا [١١٩].

مارسيل بوازار:

التصور الإلهي المركزي

يترجم الغربيون غالباً (Religion) بالكلمة العربية (دين) التي هي إذا بسطنا التفاسير العديدة لها بإمكاننا ترجمتها ترجمة أقرب إلى أداء معناها بـــ(سلوك متمثل للإرادة الإلهية)، وهكذا فإن جميع الأنبياء، محمد والذين سبقوه أتوا بنظام الحياة هذا للإنسانية في مراحل مختلفة من تطورها.

ولفظ (Foi) يترجم هو الآخر في الفرنسية بنقص شديد بالتعبير القرآني (الإيمان) والذي يحتوي بالأحرى على فكرة (الاعتراف الأكيدة) و(الإرادة العقلانية)، هذا العرفان للإرادة الإلهية الذي عبر عنه القرآن، والذي يطبقه عملياً كل فرد والأمة برمتها باستناده إلى النية الطاهرة.

القرآن مرصود فقط لتصديق، لإكمال وتصعيد الأديان السماوية بتقديمه المعرفة الشاملة، السامية، والنهائية.

ونظراً لأن الله واحد، فإرادته مطلقة، شريعته الكونية واحدة، فهي تنطبق على الإنسانية كلها، التي هي أيضاً واحدة.

والعالم نفسه نظام أخلاقي أعلى ومتناغم لكن الله قرر فصْم الوحدة الوجودية للإنسان وهو ما يقوله في القرآن:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)(الحجرات: ١٣).

إن المقدس يقدم مقدمات مسعى فكري صالح أسس فكر اجتماعي بالإمكان وصفه بـــ(التصور الإلهي المركزي The Ocentrique)[١٢٠].

هـ.ج. ويلز:

شهادة الضمير للتوحيد الإسلامي

إن الإلحاح على تبادل الرفق والرعاية بين الناس في الحياة اليومية هو واحد من فضائل الإسلام الكبرى، بيد أنه ليس الفضيلة الوحيدة فيه، ويعادل هذا في أهمية التوحيد الذي لا هوادة فيه والذي يتجرد من كل ما جاء به اليهود من استئثار بالله، وهو وتوحيد يدعمه القرآن الكريم، وكان الإسلام منذ البداية قاطعاً مانعاً إلى حد بعيد لكل الإضافات والتفصيلات اللاهوتية التي أربكت المسيحية وفرقت ملتها، وغطت بالدخان على روح يسوع، وكان مصدر قوته الثالث تحديد الطريق لطرائق الصلاة والعبادة، وبيانه الصريح عن المغزى العرفي المحدود للأهمية المنوطة بمكة، وأقفل دون المؤمنين باب كل قربان، ولم يترك سم خياط مفتوحات ينفذ منه كاهن القربان في الغفران القديم ويعود بذلك إلى مسرح العقيدة الجديدة، ولم تكن مجرد عقيدة ولا ديانة نبوية خالصة، كما كانت عقيدة يسوع، أيام يسوع أو ديانة جوتاما في أيام جوتاما ولكنها وضعت بحيث تظل على حالها دون تغيير...

وأن ذلك الرب (الله) الذي كان يبشر به الرسول كان بشهادة الضمير المنطوية عليه قلوبهم، رب برٍ وهدى وتقوى، وان القبول الشريف لمبادئه وطريقته يفتح الباب على مصراعيه على أخوة عظيمة متزايدة بين رجال جديرين بالثقة في هذه الدنيا، ولا على فردوس لا يأخذ من أنفسهم بالسرمدي المتواصل من التسبيح والعبادة.

وقد أوصل محمد هذه المبادئ الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية دون أن يلجأ إلى أية رمزية مبهمة، ودون أي تعتيم ولا ترتيل بقسوس جديدة..

ولم يناصب محمد يسوعا أو ماني أي عداء، ولكن الإسلام هو الذي ناهض مسيحية القرن السابع الفاسدة، وتقاليد المجوس الزرادشية المنحلة (١٢١).

راماكريشنا:

التناغم بين الأديان

مارس قديس الهند الحديثة "راماكريشنا" كل المناهج الثنائية واللاثنائية في الهندوسية، ووصل دائماً إلى حالة الوعي الإلهي ذاتها، لقد اتبع تعاليم المسيح ومحمد، وبلغ الهدف الروحي ذاته وأحد المظاهر البارزة لممارسته الروحية هي استغراقه الكلي في أي طريق يتبعه لدرجة أنه ينسى كل شيء آخر، وعندما اتبع المناهج الإسلامية فإنه كان يأكل ويلبس ويتصرف كالمسلم، وأزال صور الآلهة الهندوسية من غرفته، وكف عن الذهاب إلى المعابد الهندوسية وهكذا علم من خلال التجربة العقلية وليس من مجرد المعرفة التي تنص عليها الكتب، إن الأديان كلها ليست إلا طرقاً مختلفة من أجل بلوغ الهدف ذاته، كما علم أيضاً أنه ينبغي على المتبع لأي عقيدة ألا يتخلى عن طقوسه ومعتقداته الخاصة، لأنه بالتأكيد يستطيع تحقيق الله بمساعدتها إذا كان صادقاً.

وقد كانت الأغنية التالية إحدى أغنياته المفضلة:

(لقد اتحد قلبي بك، فكل ما يوجد هو أنت.
لم أجد سواك لأنك كل ما يوجد.
يا رب، يا حبيب قلبي، أنت منزل الكل.
أين من قلب لا تقبع فيه؟
لقد دخلت كل قلب، فكل ما يوجد هو أنت.

وسواء كانوا حكماء، أو مجانين، هندوساً أو مسلمين.

تجعلهم كما تريد: فكل ما يوجد هو أنت).

الكاردينال انطونيوس خريش:

الدين والإيمان الحقل المشترك

لقد تصارعت المسيحية والإسلام عبر التاريخ، أكثر من مرة وتعايشا وتحابا وتفاهما خلال حقب طويلة، وفي النهاية أدرك المسيحيون والمسلمون انهم جميعا أبناء الله يؤمنون به وباليوم الآخر ويأمرون بالمعروف والخير والرفق والإحسان، وينهون عن المنكر والباط والظلم والجور، واستقر في أذهان الجميع إن الدين والإيمان لا يمكن أن يشكلا أسباباً للخلاف والتباعد، بل على العكس من ذلك أنهما الحقل المشترك الذي يلتقي فيه الجميع.

وإذا كان التاريخ قد سجل على المسلمين تحويل بعض الكنائس إلى جوامع، فإن أجمل جوامع إسبانيا قد حولت إلى كنائس، ولا ضير على هذا ولا على تلك، فكلها أماكن عبادة الله.

والكنائس والأديرة والهياكل ازدهرت حتى انه في حكم المأمون في مطلع القرن التاسع، كان الإسلام يملك على أرضه أكثر من أحد عشر ألف كنيسة مسيحية وعدة مئات من كنائس اليهود وهياكل عبادة النار.

فكتور سحاب:

التناغم والتكامل

إننا ممن يؤمنون بأن تراث الإسلام جزء من وجدان النصارى وتكوينهم التاريخي، وبأن تراث النصرانية العربية مصدر من مصادر الثقافة الإسلامية أيضاً، فالموسيقى السريانية والأرجال السورية البدوية وكل ما شاكلها من ميراث خلفه المسيحيون في البادية والحواضر لحفدتهم، أصبحت جميعاً تراثاً مشتركاً لحضارة العروبة بمسلميها ومسيحييها وبين هذه المسيحية والإسلام لا أرى أين التناقض.

لكن هذا التناغم والتكامل لا يثبتان حين تصبح المسيحية هي مسيحية الغزو الثقافي والوكالة الدولية ومسمار جحا السياسي الغربي، إن ثمة مسيحية نريدها نحن لأننا نؤمن بالعقيدة الحرة.

لقد كانت مسألة الوحدة والاجتماع من أخطر المسائل التي عالجها الإسلام في مسعاه إلى تحرير العرب وإعزازهم، فالإسلام أسمى يومه المقدس يوم (الجمعة)، أسمى صلاته الأسبوعية (الصلاة الجامعة)،وأسمى المعبد الذي تقام فيه هذه الصلاة المسجد (الجامع) وأبطل الإسلام صلاة الجمعة إذا لم يجتمع لها أربعون مصليا على الأقل... فالإسلام إذن في معناه السياسي الأول لا في المعنى الذي يتخذه له المنافقون دين وحدة واجتماع حتى أن الرسول ﷺ كفل للمسلمين مباركة الله لكل ما يجمعون عليه في أحاديث لا تحصى منها: "إن الله مع الجماعة"، "وإذا اجتمعت أمتي على أمر كان الله معها" (١٢٢).

بطرس مراياتي:

رسالة السلام للأديان

إن جميع الديانات السماوية تؤكد على رسالة السلام وتعزيز مفهوم كرامة الإنسان وحقوقه... وأن تلاقي الأفكار من مختلف دول العالم سيسهم بإيجاد أرضيه قويّة للسلام العادل في العالم [١٢٣].

من كلمة مراياتي ممثل مجلس كنائس الشرق الأوسط في المؤتمر العالمي للدين والسلام، عمان، بترا ٢٧/١١/١٩٩٩.

الهوامش

١- الموسوعة العربية الموسعة – دار النهضة لبنان، ج١ ص ٨٣٨.

٢- موسوعة الأديان في العالم – دار كريس ٢٠٠٠-٢٠٠١، ج٤، ص ٣٤.

٣- الموسوعة العربية الموسعة، الجزء الأول، ص ٨٣٩.

٤- المعتقدات الآرية، خزعل الماجدي، دار الشروق، عمان، ص ١٥.

٥- جذور الديانة المندائية، خزعل الماجدي، ص :١٦.

٦- موسوعة الأديان في العالم، الجزء الرابع، ص ٢٦-٣٠.

٧- الدين المقارن، محمد أبو الفصل المنوفي، نهضة مصر، ص ٥٧-٥٨.

٨- جذور الديانة المندائية ص ١٦-١٧.

٩- موسوعة الأديان في العالم – الجزء الرابع ص ١٦٠.

١٠- صحيح مسلم – مسلم بن حجاج- دار أحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى ١٩٥٥، الجزء الرابع، ص ٢٠٤٨.

١١- معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦، ص٩١.

١٢- المصدر السابق ص ٩٥.

١٣- سيرة الله – حاك مايلز، دار الحوار، اللاذقية، ص ٢٦-٢٨.

١٤- دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، ص٧٩.

١٥- الديانة المسيحية، نهى نجار، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٥، ص ٧٠.

١٦- تاريخ الحضارات العام، أدوار بروي، ترجمة أسعد داغر، فريد م. داغر، منشورات عويد، بيروت- باريس، ط٣، المجلد الثالث، ص١٢٣.

١٧- معجم اللاهوت الكهنوتي – ص ٩٣-٩٤.

١٨- معجم اللاهوت الكاثوليكي- كارل راهز، هربرت غريلمر، ترجمة المطرقان عبده خليفة، دار المشرق، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢١٧.

١٩- معجم اللاهوت الكتابي ص ٩٥-٩٦.

٢٠- لسان العرب- ابن منظور، ص ٢٥٦-٢٥٧.

٢١- جريدة الرأي (الأردنية) – العدد ١٠٦٦٠ (١٦/١١/١٩٩٩) .

٢٢- الصلاة المندائية وبعض الطقوس الدينية، الشيخ رامز الشيخ، ص ٣٩.

٢٣- موسوعة الأديان في العالم، الجزء الرابع، ص٢٤٦-٢٤٧.

٢٤- الصابئة في ماضيهم وحاضرهم- عبد الرازق الحسني، ص ٢٦.

٢٥- الصابئة حرايين ومندائين- د. رشدي عليان، ص ١٠٥-١٠٦.

٢٦- دراسات في حضارة الإسلام- هاملتون جب- ص٢٤٠.

٢٧- ترانيم زرادشت – دان دوشن جيلمان، ص١٠.

٢٨- موسوعة الأديان في العالم، الجزء الرابع، ص ٢٧٧.

٢٩- تفسير الجلالين، ،عبد الرحمن السيوطي،ص ٥٤٠.

٣٠- المصدر السابق، هامش الصفحة ٧٢٠.

٣١- ترانيم زرادشت ص ١٥٧ وما بعدها.

٣٢- معجم ديانات وأساطير العالم، د. إمام عبد الفتاح إمام- المجلد الأول، ص ٣٨٣-٣٨٤.

٣٣- موسوعة الأديان في العالم، الجزء الرابع ص ٢٨٧.

٣٤- حكمة الأديان الحية، جوزيف كار، ص ١٢٢.

٣٥- قصة الحضارة- ول. ديورانت –ص ٥١.

٣٦- موسوعة الأديان في العالم، الجزء الرابع، ص ١١٤-٢٢٦.

٣٧- المصدر السابق، الجزء الثالث ص ١٠.

٣٨- الموسوعة العربية العالمية، المجلد العاشر، ص ٥٧٢.

٣٩- معجم ديانات وأساطير العالم – المجلد الثالث، ص ١٥٨.

٤٠- موسوعة الأديان في العالم – الجزء الرابع ص ٢٤.

٤١- موسوعة الأديان في العالم – الجزء الرابع ص ١٩٥،٤٤.

٤٢- الموسوعة العربية العالمية – المجلد العاشر، ص ٣٤.

٤٣- موسوعة الأديان في العالم – الجزء الرابع ص ٢٤.

٤٤- تاريخ الموازنة ومسيحي الشرق عبر العصور، عبد الله –ص ٤٤.

٤٥- موسوعة الأديان في العالم – الجزء الرابع ص ٣٤.

٤٦- روح المعاني في تفسير القرآن – الألوسي، ص ٣٤٢-٣٤٥.

٤٧- الصابئيون في ماضيهم وحاضرهم ص ٤٤.

٤٨- مفاهيم صابئية مندائية – ناجية مراني، ص ٤٤.

٤٩- في العقائد والأديان، محمد جابر عبد العالي، ١٩٧١، ص ١٢٠-١٢١.

٥٠- موسوعة الأديان في العالم، الجزء الثالث، ص١٠.

٥١- قصة الحضارة - المجلد الثالث ص ٤١.

٥٢- موسوعة الأديان في العالم، الجزء الرابع، ص ٢٧٨-٢٧٩.

٥٣- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، ج١، ص ٣٧٨.

٥٤- الصابئون في ماضيهم وحاضرهم، ص ٤٣-٤٤.

٥٥- موسوعة الأديان في العالم، الجزء الرابع ٢٧٩.

٥٦- سلام مع الله - د. بلي جراهام- مطبعة النيل، ص٦٥-٦٦.

٥٧- التلمود، شريعة بني إسرائيل، ترجمة محمد صبري، ص ٩.

٥٨- جذور الديانة المندائية ص ١٦-١٧.

٥٩- ترجمة القرآن الكريم، عبد الله يوسف علي، دار المنار، ص ٣٤٠.

٦٠- جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري، الجزء الأول ص ٥٨.

٦١- التفسير الكبير -الفخر الرازي، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ٥٨.

٦٢- تاريخ البشرية - أرنولد توينبي، تعريب نقولا زيادة، ص ٢٨١.

٦٣- موسوعة الأديان في العالم، الجزء الرابع ص ٢٩.

٦٤- الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، جورج كونتينو، ص ٤٤٧-٤٤٨.

٦٥- موسوعة الأديان في العالم، الجزء الثالث، ص ١٨.

٦٦- الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ص ٤٤٨.

٦٧- موسوعة الأديان في العالم المجلد الثاني، ص ٩٤.

٦٨- في العقائد والأديان ص ٢٩٠.

٦٩- موسوعة الأديان في العالم الجزء الرابع ص ٩٥.

٧٠- المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٩٥

٧١- القرآن،محاولة لدراسة عصرية، مصطفى محمود، ص ٩٤.

٧٢- موسوعة الأديان في العالم، الجزء الرابع، ص ٢٨-٢٩.

٧٣- جذور الديانة المندائية ص ٢٨-٢٩.

٧٤- معجم أساطير وديانات العالم، المجلد الأول، ص ٣٨٧.

٧٥- قصة الحضارة -المجلد الرابع، ص ٦٨-٦٩.

٧٦- استقيت النصوص من المصادر التالية:
- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.
- مختصر صحيح مسلم – سبقت الإشارة إليه.
- مفاهيم صابئية مندائية – سبقت الإشارة إليه.
- ترانيم زرادشت – سبقت الإشارة إليه.
- حكمة الأديان الحية – سبقت الإشارة إليه.
- موسوعة الأديان في العالم – سبقت الإشارة إليه.

٧٧- مختصر صحيح مسلم ص ٧٤.

٧٨- تفسير الجلالين –٥٦١.

٧٩- عثمان بن عفان، ذو النورين، عباس محمود العقاد، ص ٤٧.

٨٠- السيرة النبوية، ابن هشام– المجلد الأول، القسم الأول، ص ٣٦٤.

٨١- موسوعة الأديان في العالم، الجزء الرابع، ص ٢٨٢-٢٨٣.

٨٢- قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد الرابع، ص٥١، ٥٥، ٦٩.

٨٣- البداية والنهاية، ابن كثير، المجلد الثاني، الجزء الثالث، ص ٣.

٨٤- موسوعة الأديان في العالم، الجزء الرابع ص ٢٢٦.

٨٥- المصدر السابق، ص ٢٦٨.

٨٦- مختصر صحيح مسلم بشرح النووي– دار الكتب العلمية، بيروت، المجلد الثاني، ص ٢١٣-٢١٤.

٨٧- المصدر السابق ص ٢١٤.

٨٨- تفسير الطبري– ابن جرير– المجلد الرابع، ص ٥٦.

٨٩- دلائل النبوة، البيهقي، ص ١٨٥-١٨٩.

٩٠- تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد بن عاشور، ج٦، ص ٦-٩.

٩١- الإعلام، خير الدين الزركلي، الجزء الرابع ص٢٢٧.

٩٢- مختصر صحيح مسلم، للحافظ المنذرين، ج٢، ص ١٨٥-١٨٩.

٩٣- المصدر السابق ص ١٨٩.

٩٤- صحيفة اللواء، العدد ١٤٤٣، ٢٠٠١/١٢/٢١، ص٣٥.

٩٥- قصة الحضارة، الجزء الرابع عشر، ص ٧٢-٧٣.

٩٦- "المسيحيون العرب"- دراسات ومناقشات- ص:٣٨.

٩٧- تفسير التحرير والتنوير - الشيخ محمد ابن عاشور - ج٦، ص:٦-٩.

٩٨- صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج -الجزء الثالث، ص:١٣٢٦.

٩٩- ورد جانب من هذه الموارد في كتاب (النصرانية) د. مصطفى شاهين، دار الاعتصام ١٩٩٢، ص:٦٢-٦٥.

١٠٠- "مجلة الإسلام اليوم"العدد(٩-١٠)، ١٩٩٢، من مقالة: (الوسطية التشريعية الإسلامية) د. جمال الدين محمد محمود، ص:٢١.

١٠١- قصة الحضارة - ول. ديورانت، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر- الجزء الثاني من المجلد الرابع، ص:٤٥.

١٠٢- تاريخ البشرية - أرنولد توينبي، تعريب: نقولا زيادة، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، ص: ٢٩٣.

١٠٣- قصة الحضارة - ول. ديورانت - المجلد: ١١-١٢، ص:٣٩٢.

١٠٤- تفسير ابن كثير - إسماعيل بن كثير - دار الأندلس - الطبعة الثانية ١٩٨٠، الجزء الثاني -ص:٤١.

١٠٥- معجم الكتاب اللاهوتي - دار المشرق- بيروت، ١٩٨٦، ص: ١٩-٢٠.

١٠٦- معجم ديانات وأساطير العالم - د.إمام عبد الفتاح إمام -المجلد الأول، ص:٢٦.

١٠٧- سيرة الله - جاك ما يلز، ترجمة: ثائر ديب، دار الحوار، اللاذقية الطبعة الأولى ١٩٩٨، ص:٢٦.

١٠٨- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام- د. جواد علي، الجزء الثالث، الصفحات: ١٧١-١٧٢، ٥٣٠، ٤٢٧.

١٠٩- البداية والنهاية- ابن كثير، الجزء الثالث ص:٨-٩.

١١٠- المسيحيون العرب - من بحث (المسيحية العربية والغرب) - المطران جورج خضر، ص:٨٤.

١١١- دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول.- عبد الرحمن خليل إبراهيم، ص:٩٠.

١١٢- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدية، د. محمد حمد الله، دار الإرشاد- بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٦٩، ص:٢٣.

١١٣- البداية والنهاية - ابن كثير، المجلد الثالث، الصفحات: ٧٧-٧٨، ٧٨-٨١، ٣٧٢-٣٧٣.

١١٤- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدية، د.محمد حمد الله، ص: ٨٢-٨٣.

١١٥- المسيحية العربية وتطوراتها- د. سلوى بالحاج صالح- العايب، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص:١٤٠.

١١٦- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د.جواد علي، الجزء السادس، ص:٤٢٧.

١١٧- "المسيحيون العرب"- من بحث د. أدمون رباط (المسيحيون في الشرق قبل الإسلام)، الصفحات: ٢٧,٢٨,٢٦.

١١٨- الكامل في التاريخ- ابن الأثير، دار بيروت، ١٩٦٥،المجلد الثاني ص ٢٣-٢٤٠.

١١٩- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٧٧، ص ٥-٧.

١٢٠- الإسلام اليوم، مارسيل بوازار، ص ٤٥ وما بعدها.

١٢١- معالم تاريخ الإنسانية، هـ.ج ويلز- ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الطبعة الثالثة، ١٩٧٢، المجلد الثالث، ص ٨٠٣-٨٠٤.

١٢٢- العرب وتاريخ المسألة المسيحية، فكتور سحاب- ص ١٠٨-١٠٩.

١٢٣- صحيفة الرأي (الأردنية) العدد ١٠٦٦٨ في ١٩٩٩/١١/٢٧ ص ٢٣.

المراجع

١- القرآن الكريم.
٢- الحديث الشريف.
٣- الإسلام اليوم، مارسيل بوازار.
٤- تاريخ البشرية، أرنولد توينبي.
٥- تاريخ الحضارات العام، إدوارد بروني.
٦- ترانيم زرادشت، دان دوشن جليمان.
٧- ترجمة القرآن الكريم، عبد الله يوسف علي.
٨- تفسير الجلالين، السيوطي.
٩- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور.
١٠- التفسير الكبير، الفخر الرازي.
١١- جذور الديانة المندائية.
١٢- حكمة ديانات وأساطير العلم، إمام عبد الفتاح.
١٣- دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي.
١٤- دراسات في حضارة الإسلام، هاملتون جب.
١٥- الدين المقارن، أبو الفضل المنوفي.
١٦- الديانة المسيحية، نهى نجار.
١٧- روح المعاني في تفسير القرآن، محمد الأشوسي.
١٨- السيرة النبوية، ابن هشام.
١٩- الصابئة، رشدي عليان.
٢٠- الصابئة في ماضيهم وحاضرهم، عبد الرزاق الحسيني.
٢١- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج.
٢٢- الصلاة المندائية، رامز الشيخ.
٢٣- عثمان بن عفان، رامز الشيخ.

٢٤- عثمان بن عفان، عباس العقاد.

٢٥- قصة الحضارة، ول. ديورانت.

٢٦- معجم اللاهوت الكتابي.

٢٧- معجم اللاهوت الكهنوتي.

٢٨- معجم ديانات وأساطير العالم، إمام عبد الفتاح.

٢٩- مفاهيم صابئية مندائية، ناجية مراني.

٣٠- الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي.

٣١- موسوعة الأديان في العالم، دار كريس.

٣٢- الموسوعة الآرية، خزعل الماجدي.

٣٣- الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال.

فهرس

تنويه ٣
الإهداء.. ٤
المقدمة ٥
الفصل الأول: معالم الفكر الديني ومنطلقاته.......................... ٩
نشأة الفكر الديني... ١١
أصول التوحيد في الأديان.. ١٧
١-التوحيد في الكتاب المقدس.. ١٧
أ-العهد القديم (اليهودية) ١٧
ب- العهد الجديد (المسيحية) ٢٠
٢- التوحيد في الإسلام- نظرة أولية... ٢٨
٣- التوحيد عند الصابئة المندائيين.. ٣٢
٤- نبوءة التوحيد في الزرادشتية: ٣٤
٥- الهندوسية بين تعدد الآلهة والتوحيد..................................... ٤٠
٦- البوذية: التأليه البشري ٤٤
٧- الكونفوشسية: الصلاح من السماء....................................... ٤٦
الفصل الثاني: توافق الأحداث في الأديان.................................. ٤٩
خلق الكون ٥٢
خلق آدم... وما كان من أمره.. ٦٤
الملائكة وإبليس ٦٩
الجزاء.. أو معتقدات الدار الآخرة ٧٥
الطوفان... ٨٧

إبراهيم وبنوه ٩٤
الفصل الثالث: توافق الأديان في القيم........................ ٩٩
أولا: القيم الإيمانية (الروحية).. ١٠٢
ثانيا: قيم العمل ١٠٧
ثالثا: قيم العلم والمعرفة ١١٣
رابعا: قيم الحكم والإدارة (التدبير)... ١١٧
الفصل الرابع:الإبلاغ الرسالي حصة مشتركة من العناء والمكابدة.............١٢٣
الفصل الخامس: نبوءات الأحداث دلالة التوافق بين الأديان.........١٤١
الفصل السادس: مصداقية الدور الرسالي وانتقالته الإنسانية...........١٦٣
الفصل السابع: الإسلام والمسيحية وفاق الأحداث وحجة الرسالة على أهل الرسالة...١٨١
الفصل الثامن: شهادات التوافق بين الأديان.................................٢١٣
ول. ديورانت: شواهد التوافق في المنهج الرسالي.......................... ٢١٥
موريس بوكاي: الكتب المقدسة (وثائق الإيمان)........................... ٢٢١
مارسيل بوازار: التصور الإلهي المركزي.......................................٢٢٣
هـــ.ج. ويلز: شهادة الضمير للتوحيد الإسلامي............................٢٢٤
راماكريشنا: التناغم بين الأديان.. ٢٢٦
الكاردينال انطونيوس خريش:الدين والإيمان الحقل المشترك...............٢٢٨
فكتور سحاب: التناغم والتكامل ٢٢٩
بطرس مراياتي: رسالة السلام للأديان ٢٣٠
الهوامش..٢٣١
المراجع...٢٣٧
الفهرس...٢٣٩